تاريخ الدولة العباسية

تأليف
أ.د. عطية القوصى
أستاذ التاريخ الإسلامى
كلية الآداب - جامعة القاهرة

دار الثقافة العربية
٣ شارع المبتديان بالسيدة زينب - القاهرة

فهرست الموضوعات

★★★

رقم الصفحة

رقم الصفحة

الخلفاء العباسيون

(١٣٢-٦٥٦هـ/ ٧٥٠-١٢٥٨م)

	هجري	ميلادي
١- السفاح (أبو العباس عبد الله بن محمد) .	١٣٦-١٣٢	٧٥٤-٧٥٠
٢- المنصور (أبو جعفر عبد الله بن محمد) .	١٥٨-١٣٦	٧٧٥-٧٥٤
٣- المهدي (أبو عبد الله محمد بن المنصور) .	١٦٩-١٥٨	٧٨٥-٧٧٥
٤- الهادي (أبو محمد موسي بن المهدي) .	١٧٠-١٦٩	٧٨٦-٧٨٥
٥- الرشيد (أبو جعفر هارون بن المهدي) .	١٩٣-١٧٠	٨٠٩-٧٨٦
٦- الأمين (أبو موسي محمد بن الرشيد) .	١٩٨-١٩٣	٨١٣-٨٠٩
٧- المأمون (أبو جعفر عبد الله بن الرشيد) .	٢١٨-١٩٨	٨٣٣-٨١٣
٨- المعتصم (أبو إسحق محمد بن الرشيد) .	٢٢٧-٢١٨	٨٤٢-٨٣٣
٩- الواثق (أبو جعفر هارون بن المعتصم) .	٢٣٢-٢٢٧	٨٤٧-٨٤٢
١٠- المتوكل (أبو الفضل جعفر بن المعتصم) .	٢٤٧-٢٣٢	٨٦١-٨٤٧
١١- المنتصر (أبو جعفر محمد بن المتوكل) .	٢٤٨-٢٤٧	٨٦٢-٨٦١
١٢- المستعين(أبو العباس أحمد بن محمد بن المعتصم)	٢٥١-٢٤٨	٨٦٦-٨٦٢
١٣- المعتز (أبو عبد الله محمد بن المتوكل)	٢٥٥-٢٥١	٨٦٩-٨٦٦
١٤- المهتدي (أبو اسحق محمد بن الواثق) .	٢٥٦-٢٥٥	٨٧٠-٨٦٩
١٥- المعتمد (أبو العباس أحمد بن المتوكل)	٢٧٩-٢٥٦	٨٩٢-٨٧٠
١٦- المعتضد (أبو العباس أحمد بن الموفق بن المتوكل)	٢٨٩-٢٧٩	٩٠٢-٨٩٢
١٧- المكتفي (أبو محمد علي بن المعتضد)	٢٩٥-٢٨٩	٩٠٨-٩٠٢

الخليفة	هـ	م
١٨- المقتدر (أبو الفضل جعفر بن المعتضد)	٢٩٥-٣٢٠	٩٠٨-٩٣٢
١٩- القاهر (أبو منصور محمد بن المعتضد)	٣٢٠-٣٢٢	٩٣٢-٩٣٤
٢٠- الراضي (أبو العباس أحمد بن المقتدر)	٣٢٢-٣٢٩	٩٣٤-٩٤٠
٢١- المتقي (أبو اسحق إبراهيم بن المقتدر)	٣٢٩-٣٣٣	٩٤٠-٩٤٤
٢٢- المستكفي (أبو القاسم عبد الله بن المكتفي)	٣٣٣-٣٣٤	٩٤٤-٩٤٦
٢٣- المطيع (أبو القاسم الفضل بن المقتدر)	٣٣٤-٣٦٣	٩٤٦-٩٧٤
٢٤-الطائع (أبو الفضل عبد الكريم بن المطيع)	٣٦٣-٣٨١	٩٧٤-٩٩١
٢٥- القادر (أبو العباس أحمد بن اسحق بن المقتدر)	٣٨١-٤٢٢	٩٩١-١٠٣١
٢٦- القائم (أبو جعفر عبد الله بن القادر)	٤٢٢-٤٦٧	١٠٣١-١٠٧٥
٢٧- المقتدي (أبو القاسم عبد الله بن محمد بن القائم)	٤٦٧-٤٨٧	١٠٧٥-١٠٩٤
٢٨- المستظهر (أبو العباس أحمد بن المقتدي)	٤٨٧-٥١٢	١٠٩٤-١١١٨
٢٩- المسترشد (أبو منصور الفضل بن المستظهر)	٥١٢-٥٢٩	١١١٨-١١٣٥
٣٠- الراشد (أبو جعفر المنصور بن المسترشد)	٥٢٩-٥٣٠	١١٣٥-١١٣٦
٣١- المقتفي (أبو عبد الله محمد بن المستظهر)	٥٣٠-٥٥٥	١١٣٦-١١٦٠
٣٢- المستنجد (أبو المظفر يوسف بن المستظهر)	٥٥٥-٥٦٦	١١٦٠-١١٧٠
٣٣- المستضيء (أبو محمد الحسن بن المستنجد)	٥٦٦-٥٧٥	١١٧٠-١١٨٠
٣٤- الناصر (أبو العباس أحمد بن المستضيء)	٥٧٥-٦٢٢	١١٨٠-١٢٢٥
٣٥- الظاهر (أبو نصر محمد بن الناصر)	٦٢٢-٦٢٣	١٢٢٥-١٢٢٦
٣٦- المستنصر (أبو جعفر المنصور بن الظاهر)	٦٢٣-٦٤٠	١٢٢٦-١٢٤٢
٣٧- المستعصم (أبو أحمد عبد الله بن المستنصر)	٦٤٠-٦٥٦	١٢٤٢-١٢٥٨

تاريخ الدولة العباسية

مصادر و مراجع تاريخ الدولة العبسية

أ- المصادر :

- ابن الأثير : الكامل ، ١٣جزء
- ابن الجوزى: المنتظم فى أخبار الأمم.
- ابن خلدون :العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ١ (المقدمة)
- أبو هلال الصابى: تاريخ الراضى بالله.
- الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد (١٤جزء)
- السيوطى : تاريخ الخلفاء
- الصولى : كتاب الأوراق
- عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى
- الطبرى : تاريخ الرسل والملوك (١٤جزء)
- المسعودى :مروج الذهب ومعادن الجوهر .
- مسكويه: تجارب الأمم.

ب- المراجع :

- أحمد أمين ، فجر الاسلام ، ضحى الاسلام ، ظهر الاسلام.

- أحمد الشريف وحسن محمود : العالم الاسلامى فى العصر العباسى .
- آدم متز : الحضارة الاسلامية ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة .
- بارثولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ، ترجمة أحمد السعيد.
- حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ، ٣ أجزاء .
- الخضرى : محاضرات فى تاريخ الأمم الاسلامية - الدولة العباسية .
- شاكر مصطفى : دولة بنى العباس .
- عبد العزيز الدورى : العصر العباسى الأول .
- عطية القوصى: الحضارة الإسلامية.
- محمد البيلى : دراسات فى تاريخ الدولة العباسية .
- محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية
- محمد حلمى أحمد : الخلافة والدولة فى العصر العباسى

- Barthold, w: Turkestan down to the Mongol invasion, London 1928.
- Bouvat: Les Barmécides, Paris 1912.
- Buchler: Harun al Rashid and charles the great, massachusetts 1931.
- Pirenne, H: Mahomet et charlemagne, Paris 1971.
- Shaban, A: The Abbasid Revolution, London 1960.
- Sourdel, D: Le vezirat Abbaside, Damas 1960.

تقديم

الدولة العباسية هى الدولة التى حكمت العالم الاسلامى بعد سقوط دولة الأمويين ، فى الفترة ما بين سنوات ١٣٢و٦٥٦ هـ ، أى أنها حكمت ما يزيد عن الخمسة قرون (٤٢٣سنة) ، وتناوب على حكمها ستة وثلاثون خليفة .

ويقسم المؤرخون عادةً هذه الدولة إلى عهدين :

أ- العهد العباسى الأول ، وهو يشمل المائة عام الأولى من عمر الدولة ، وتنحصر بين سنوات ١٣٢ -٢٣٢ هـ ، وتولى الخلافة فيه تسعة من الخلفاء.

ب- العهد العباسى الثانى ، وهو يشمل بقية عمر الدولة بعد المائة الأولى من هذا العصر ، أى من سنة ٢٣٢ هـ إلى سنة ٦٥٦ هـ ، وتولى الخلافة فيها سبع وعشرون خليفة .

ويُعتبر العصر الأول لهذه الدولة هو عصرها الذهبى فى الحكم والادارة والحضارة ، أما عصرها الثانى فقد ساده الاضطراب بسبب تسلط القواد الأتراك والفرس على خلفاء هذا العصر ، وما صاحب هذا التسلط من فوضى وقتال وصراع على الحكم أضر بأحوال الدولة وأضعفها وجعلها ، فى النهاية ، تسقط صريعة على يد الغزو المغولى الذى إجتاح العراق واسقط العاصمة بغداد سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م وقتل الخليفة المستعصم بالله العباسى ، آخر خلفاء هذه الدولة فى العراق .

وقبل أن نتحدث عن عوامل قيام الدولة العباسية ، يجدر بنا أن نلقى ضوءاً سريعاً على الدولة التى كانت تحكم عالم الاسلام قبل هذه الدولة ، ونناقش الأسباب التى أدت إلى انهيارها ، على اعتبار أن هذه الأسباب هى التى مهدت لقيام الدولة العباسية. الدولة التى سبقت حكم العباسيين هى الدولة الأموية التى حكمت العالم الاسلامى بعد انقضاء حكم الخلفاء الراشدين من سنة ٤١ حتى ١٣٢ هـ / ٦٦١- ٧٥٠ م ، ومؤسس هذه الدولة هو معاوية بن أبى سفيان ، وآخر خلفائها هو مروان بن محمد ، وقد حكمت لمدة واحد وتسعين عاماً ، كان عدد خلفائها أربع عشرة خليفة ، هم على الترتيب :

١ - معاوية بن أبى سفيان (٤١ - ٦٠ هـ) ،

٢ - يزيد بن معاوية (٦٠ -٦٤ هـ) ،

٣ - معاوية بن يزيد (حكم أربعين يوماً فقط) ،

٤ - مروان بن الحكم (٦٤ - ٦٥ هـ) ،

٥ - عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ) ،

٦ - الوليد بن عبد الملك (٨٦ -٩٦ هـ) ،

٧ - سليمان بن عبد الملك (٩٦- ٩٩ هـ) ،

٨ - عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) ،

٩ - يزيد بن عبد الملك بن مروان (١٠١ - ١٠٥ هـ) ،

١٠- هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ) ،

١١- الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ - ١٢٦ هـ)

٩- يزيد بن عبد الملك بن مروان (١٠١ - ١٠٥ هـ).

١٠- هشام بن عبد الملك (١٠٥- ١٢٥ هـ) .

١١- الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ - ١٢٦ هـ) .

١٢- يزيد بن الوليد (الناقص) (حكم لعام واحد) .

١٣- ابراهيم بن الوليد (حكم أربعة أشهر ثم خلع نفسه) .

١٤- مروان بن محمد بن مروان بن الحكم (١٢٦ -١٣٢ هـ) .

وينتسب معاوية ، مؤسس البيت الأموى الحاكم ، إلى بيت أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى بن كلاب ، وأبوه سفيان بن حرب بن أمية ، زعيم قريش وقائد المشركين ضد الرسول ، بعد موت أبى جهل (عمرو بن هشام) فى معركة بدر . لكنه أسلم عند فتح مكة وحسن اسلامه وأسلم معه أبناؤه ، وكان سن معاوية حين دخل الاسلام ثلاثة وعشرون عاماً . ولقد أحب معاوية الرسول ولازمه وكان من كتاب الوحى له . وبعد موت أبى سفيان صار معاوية رأس بيت بنى أمية ، وقد نجح معاوية فى الوصول إلى حكم الدولة الإسلامية عقب مقتل الخليفة على بن أبى طالب على يد الخارجى عبد الرحمن بن ملجم (١٥رمضان ٤٠ هـ.) ، وبعد تنازل الحسن بن على له عن الخلافة ، وبعد أن بويع فى عام الجماعة . (٢٥ ربيع الثانى ١٤ هـ.) بالخلافة بحضور الحسن والحسين إبنى الخليفة على .

حرص معاوية ، حين ولى الحكم ، على جمع كلمة المسلمين ونجح فى ذلك

بفضل ما كان يتمتع به من ذكاء ودهاء وشجاعة وحسن سياسة ، وعمد أثناء خلافته إلى أخذ البيعة بالخلافة لإبنه (يزيد) من بعده ، وبذلك حوّل الخلافة .

من نظام الشورى والاختيار الحر فى عهد الراشدين ، إلى النظام الملكى الوراثى الذى كان سائداً نذاك فى دولة الروم ، وصارت الخلافة وراثية فى بيت واحد بدلاً من أن تكون حقاً للمسلمين جميعاً يختارون لها من يرون صلاحه لتوليها ، وهذا البيت هو البيت الأموى .

وبعد وفاة يزيد بن معاوية ، انتقلت الخلافة إلى فرع آخر من فروع بنى أمية ، وهو الفرع المروانى بتولى مروان بن الحكم بن العاص بن أمية الخلافة وأبنائه من بعده . وبرغم أن عدد خلفاء الأمويين وصل إلى أربع عشرة خليفة إلا أن أبرز من قاموا منهم بأعمال كبيرة هم سبعة خلفاء ، معاوية ، ومروان وإبنه عبد الملك ، والوليد ، وسليمان، وهشام أبناء عبد الملك بن مروان ، وعمر بن عبد العزيز بن مروان ، إضافة إلى آخر خلفائهم مروان بن محمد ، الملقب بالجعدى

وإذا كان المسلمون قد ارتضوا بحكم معاوية بن أبى سفيان وارتضوا خلافته ، فإن غالبية المسلمين أنكروا خلافة من جاء من بعده ، وقد كثرت الثورات والمعارضة ضدهم ، واستخدم هؤلاء الحكام القوة والعنف فى تثبيت حكمهم ، وظلت المعارضة والمقاومة فى ازدياد ، حتى نجح بنو العباس فى استغلالها والاستفادة منها وتمكنوا من القضاء على خلافة بنى أمية سنة

١٣٢هـ/ ٧٥٠م واستحوذ أيديهم عليها .

ورغم ما أخذ علي هذه الدولة ، فإن الشيء الطيب الذي يذكر لها هو أنها حملت لواء العروبة والإسلام وسارت بالفتوح إلي الأمام ، فتضاعفت مساحة الدولة الإسلمية في عهدهم ، ووصلوا براية الإسلام إلي قلب شبه القارة الهندية وغربي الصين شرقاً وجنوبي فرنسا غرباً ، وأدخلوا شعوباً كثيرة تحت راية الإسلام .

كذلك يُسجل لحكام هذه الدولة أنهم وضعوا النظم السياسية والإدارية والحكومية لهذه الدولة الإسلامية ووضعوا بذور الحضارة الإسلامية في العلوم والفنون والآداب التي ازدهرت شجرتها وأثمرت في القرون التالية لحكم هذه الدولة .

سقطت هذه الدولة سنة ١٣٢هـ ، وكانت هناك أسباب أدت إلي هذا السقوط، رغم ما كانت تتمتع به من قوة في السنين الأولي من حكمها .

ويأتي في مقدمة هذه الأسباب تلك المعارضة التي لقيتها هذه الدولة منذ قيامها وخاصةً من جماعات الشيعة والموالي : فإن معظم المسلمين لم يجمعوا علي قيام الدولة الأموية ولم يروا أحقية حكامها بالخلافة ، وظل بعضهم موالياً لعلي بن أبي طالب ولبنيه من بعده . وأهل الحزب يرون ضرورة استمرار حكم المسلمين في بيت رسول الله ، والبعض الآخر رأي أن معاوية انتزع الحكم بدون وجه حق من مستحقيه ، وأنه أغفل نظام الشوري الذي نادي به الإسلام وحوّل

الخلافة إلي مُلك وراثي كسروي ؛ الأمر الذي يتنافي مع ما حدث في سقيفة بني ساعده غداة وفاة رسول الله صلي الله عليه وسلم وما طبقه الشيخان أبو بكر وعمر رضوان الله عليهما .

وكانت جماعتا الشيعة والخوارج من اكثر لمعارضين لحكم الأمويين ومن أشدهم عملاً علي إسقاط حكمهم وإنهاء دولتهم .

ويري العلويون ، الذين عرفوا بالشيعة ، لكونهم أشياع علي وآل البيت ، أن الزعامة حق لآل البيت من نسل علي والسيدة فاطمة إبنة رسول الله صلي الله عليه وسلم ، وأن خلافة الأمويين باطلة من أساسها ، وقالوا أن علياً وأهل بيته هم الثمرة وقريش هي الشجرة والثمرة أفضل من الشجرة . وقد ظهرت جماعة الشيعة كجماعة سياسية ، بعد معركة كربلاء سنة ٦١ هـ ، وهي المعركة التي استشهد فيها الحسين بن علي وعدد من آل البيت ، سبعة من أبناء السيدة فاطمة وخمسة من أحفاده ، وقد زادت هذه المعركة في أعداد المناصرين لهم ، كما زادت في سخط الساخطين علي بني أمية .

وقد قام الشيعة بثورات ضد الأمويين ، قام بإحداها زيد بن علي بن الحسين في الكوفة ، وقام بالأخري إبنه يحيي بن زيد . وقد قابل الأمويون هذه الثورات العلوية بالعنف الشديد ولم يشفع لأهلها عندهم قرابتهم لرسول الله .

ورغم هذا العنف في مقاومة هذه الثورات ، فلقد استمرت ثورتهم ، وأخذوا يبثون دعاتهم في كل أرجاء الدولة الإسلامية ليقف المسلمون إلي جانبهم

ضد الأمويين من خلال تنظيمات سرّية محكمة .

أما الخوارج ، فهم فرقة نشأت أثناء معركة صفين بين علي ومعاوية بعد حادثة التحكيم . وكان هؤلاء قد أجبروا علياً على قبول التحكيم حين لجأ معاوية وعمر بن العاص إليه حين أدركتهم الهزيمة . وبعد أن حدث التحكيم احتج هؤلاء على عليٍّ لقبوله التحكيم رافعين شعار (ألا حكم إلا لله) ، وهجروا جيش علي وانسحبوا إلى قرية حروراء ، بالقرب من الكوفة ، واختاروا لهم قائداً عليهم هو عبد الله بن وهب الراسبي ، وسموا أنفسهم بالحرورية ، نسبة إلى حروراء ، وبالشراة ، لأنهم ، حسب زعمهم ، اشتروا أنفسهم بأن باعوها في سبيل الله ، وسماهم أعداؤهم بالخوارج ، لخروجهم عن جماعة المسلمين .

وبرغم أن علياً حارب الخوارج وأوقع بهم هزيمة كبيرة ، إلا أنهم انهزموا وتفرقوا إلى أجزاء عديدة ، وظلت أفكارهم قائمة ، وقوى جانبهم في عهد حكم الأمويين وشكلوا حزب المعارضة ضدهم ، وكانوا يرون أن الخلافة حق مباح لكل مسلم حر يبايعه المسلمون مهما كان لونه أو جنسه أونسبه .

وقد حاول الخوارج إسقاط حكم الأمويين ، وكانوا أشد العناصر إقلاقاً لهم بسبب شجاعتهم واستبسالهم في القتال والرغبة في الاستشهاد .

وقد قاتل حكام الأمويين الخوارج بضراوة واستنفد قتالهم معظم قوتهم ، كادوا يقضون على الدولة في عهد عبد الملك بن مروان لولا شجاعة قائده الحجاج بن يوسف الثقفي ونجاحه في هزيمتهم المرة بعد الأخرى .

واشتدت ثورات الخوارج فى عهد مروان بن محمد ، آخر خلفاء الأمويين ، وانضم إلى حركتهم أعداد كبيرة من شعوب الموالى الذين راقتهم شعارات الخوارج فى الحكم وبخاصة موالى الفرس . فاستطاع الخوارج بذلك أن يألبوا شعوب الدولة الاسلاميه ضد الدولة الأموية التى تفرغت فى السنوات الأخيرة من حكمها لمحاربة هذه العناصر الساخطة ، الأمر الذى اتعب الدولة وأجهد اقتصادها ، وأدى فى النهاية إلى انهيارها ثم سقوطها .

وكان سوء حال الموالى فى الدولة الأموية ، من أسباب سقوط هذه الدولة . والموالى هم المسلمون من غير العرب ، وهى تسمية أطلقها العرب على غيرهم من شعوب العجم . وقد أخذ عدد هؤلاء الموالى يزداد بعد أن انتقلت الخلافة للأمويين نتيجة توالى الفتوح الإسلامية ونجاح الأمويين فى توسيع رقعة دولتهم ودخول شعوب مثل الفرس والبربر والأرمن والقبط والترك وغيرهم تحت تبعية الدولة الأسلامية . وقد ترفع الأمويون على الموالى ، بحكم أنهم حكام الدولة ، برغم اضطرارهم إلى الإستعانة بذوى الكفاءة والمقدرة منهم ، خاصة فى الأمور التى لم يكن العرب يعرفونها أو يتقنوها .

ولقد نقم الموالى على الأمويين سوء معاملتهم لهم على أنهم مواطنون من الدرجة الثانية لا يولونهم المناصب الكبرى فى الدولة ولا يشركوهم معهم فى السياسة والحكم والجيش، رغم أن الموالى، وبخاصة الفرس منهم كانوا أصحاب حضارة ومدنية قديمة وعريقة. وكان الموالى يشعرون بأن الأمويين لا ينفذون

تعاليم الاسلام فى العدل والمساواة فى المعاملة، وهى من أشد الأشياء التى حببتهم فى هذا الدين وجذبتهم اليه. لذلك نقم هؤلاء الموالى على الأمويين، وكانوا دائما علي استعداد للثورة ضدهم وازالة حكمهم، فهم قبلوا من الأمويين الإسلام ولكنهم لم يقبلوا منهم سيادتهم عليهم، لذلك تقبلوا أفكار الخوارج التي تدعوا الي المساواة بين جميع المسلمين بغض النظر عن أى تفاوت بينهم ودون أى تمييز عنصرى. وفى ظل هذه المبادىء، التي نادي بها الخوارج ورفعوا شعارها، كان الموالى يأملون فى القضاء علي الحكم الأموى وقيام حكم يحقق المساواة لهم مع العرب فى الحقوق والواجبات. وقد استغل الخوارج سخط الموالى في تنفيذ برنامجهم التى يتطلع الي اقامة حكم لهم على أنقاض الأمويين بعد أن يقضوا علي دولتهم.

كذلك كانت العصبية القبلية من أهم العوامل التي أدت الى القضاء على هذه الدولة ووصول حكمها الى نهايته. ومع ان الإسلام نبذ العصبية القديمة التى كانت متفشية بين قبائل العرب في أمة واحدة، الا أن هذه العصبية بين العرب عادت كما كانت فى عهد الدولة الأموية، وعادت كل قبيلة تتعصب إلى أصلها اليمانى القحطانى أو القيسى «المضرى»، مما كان له أكبر الأثر في نشوب النزاع العرقى بين هذه القبائل، ذلك الذى ساهم بدرجة كبيرة فى ضعف الدولة، ثم في سقوطها ونهايتها.

وكان نفوذ اليمانية يزداد أحيانا، ونفوذ القيسية يزداد أحياناً أخرى تبعا

لميول كل خليفة من خلفاء هذه الدولة. فازداد نفوذ عرب اليمانية في عهد معاوية بن أبى سفيان وابنه يزيد لاستنادهما عليهم ليواجه بهم معارضة أهل الحجازالقيسية الذين تعصبوا لآل البيت. وناصر عبد الملك بن مروان القيسية ضد اليمنية واعتمد خصوصا على رجالات بنى ثقيف القيسيين للقضاء على الثورات الخارجية ضدهم التى كانت تتكون في غالبيتها من رجال عرب اليمانية. كذلك تعصب الوليد بن يزيد للقيسية، وكانت أمه قيسية، وقام باقصاء العنصر اليمانى فقاموا بتدبير المؤمرات له. وتعصب يزيد بن الوليد لليمانية فثارت القيسية ضده، وتعصب مروان بن محمد للقيسية فثارت عليه اليمانية .

وقد عجلت هذه الحروب بين القيسية واليمانية بنهاية هذه الدولة، وأدى التنازع بين عرب الشام الى تضعضع الأساس الذى ارتكز عليه الحكم الأموى فى اقامة دولته، فضلا عن وصول آثار هذا الصراع وانتقاله الى شتى الأمصار الاسلامية مما أدى الى تضعضع النفوذ الأموى فيها وفقدان السيطرة والهيمنة عليها واتاحة الفرصة للشيعة والخوارج ليرتعوا فيها ويعملوا ما يشاءون حتى يقضوا علي دولة الأمويين داخل بلاد الشام وخارجها.

كذلك كان من عوامل سقوط هذه الدولة: انقسام البيت الأموى على نفسه بسبب نظام ولاية العهد، وتولية العهد لأكثر من واحد، وهو المبدأ الذى أقره الأمويون في مؤتمر الجابية سنة ٦٤هـ. وقد أدى هذا الأمر الى النزاع بين أمراء البيت الأموى الحاكم، فعلى سبيل المثال نرى: الخليفة مروان بن الحكم يعهد

بالخلافة من بعده لولديه عبد الملك ثم عبد العزيز، ولما ولى عبد الملك الخلافة خلع أخاه عبد العزيزمن ولاية العهد وولى مكانها إبنه الوليد. ولما ولى الوليد بن عبد الملك الخلافة وضع في خطته عزل أخيه سليمان بن عبد الملك من ولاية العهد وأخذ البيعة لابنه، لولا أن الموت عاجل الوليد فلم يستطع تنفيذ خطته، وقد ظهر هذا الخلاف واضحا فى النزاع بين يزيد بن الوليد بن عبد الملك وبين ابن عمه الوليد بن يزيد الذى آلت اليه الخلافة.

وفى آخر العهد الأموى تولي الخلافة الأموية خلفاء ضعاف لم يتصدوا بقوة للمؤامرات والدسائس التى كانت تحاك ضد الدولة والثورات التى اشتعلت ضدها واستهدفت الخلاص من الحكم الأموى، فأتاح مناخ الضعف هذا الفرصة لأعدائهم العباسيين من الاستفادة من جميع هذه الظروف وتجنيد جميع العناصر المناوئة للأمويين ونجحوا في النهاية فى اسقاط دولة بني أمية واقامة دولتهم التى عُرفت بالدولة العباسية، أو بدولة العباسيين.

التعريف بالعباسيين

ينتسب العباسيون الى العباس بن عبد المطلب، عم رسول الله صلي الله عليه وسلم. ومن المعروف تاريخيا أن الأنظار لم تتجه الي اختيار العباس خليفة للرسول بعد وفاته لأنه لم يكن من السابقين الي الاسلام، اذ أنه لم يعلن اسلامه الا قبيل فتح مكة برغم تأييده للرسول منذ بداية الدعوة. كذلك من المعروف أيضا أن المسلمين لم يرشحوا للخلافة أحدا من بنى هاشم الا أن العلويين رشحوا عليا وأولاده من بعده.

وكما أن لم يُرشح العباس للخلافة لم يُرْشح أيضا أحد من أولاده من بعده. وقد قيل في بعض الروايات التاريخية أن أبا سفيان جاء للعباس بعد وفاة الرسول مباشرة وطلب منه ترشيح نفسه للخلافة قائلا له: «أبسط يدك أبايعك»لكن العباس أبى. وقد أثبتت الروايات التاريخية أن العباس لم يطالب بالخلافة في عهد الراشدين وأنه بايع أبا بكر وعمراً وعثمان وعلياً، وأنه كان مؤيدا لحق على فى الخلافة حتى وفاته فى خلافة عثمان سنة ٣٢هـ..

كذلك لم يطالب عبد الله بن العباس، أكبر أبناء العباس، بالخلافة، وكان أكبر المؤيدين لعلى ولولديه الحسن والحسين فى المطالبة بالخلافة، وقد تفرغ عبد الله بن العباس لرواية الحديث وتفسير القرآن الكريم، وقد سالم الأمويين حين وصلوا الى الحكم، ولزم مدينة الطائف حتى توفى ودفن بها سنة ٦٨هـ. وكان عبد الله بن العباس قد نصح الحسين بن على بعدم اتباع أهل العراق الذين

أعلنوا تأييدهم له في ثورته ضد يزيد بن معاوية، ولكنه لم يأخذ برأيه وكانت واقعة كربلاء التي استشهد فيها الحسين وكثير من أهل البيت ومواليهم سنة ٦٠هـ.

ولقد سار على بن عبد الله بن العباس، المعروف بالسّجاد على نهج أبيه عبد الله في مسالمة الأمويين، ولزم قرية الحميمة (في شرق الأردن) وكان الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان قد ألزم أفراد بيت العباس سكنى الحميمة، بعد قضائه على ثورة عبد الله بن الزبير، لتسهل مراقبتهم هناك ولرصد نشاطهم وتحركاتهم.

وانتقلت زعامة بيت العباس، بعد موت على بن عبد الله بن العباس سنة ١١٨هـ (عن عمر ناهز الثمانين) الى ابنه محمد، الذى لازم أباه فترة طويلة ولم يكن يصغره بأكثر من أربع عشرة عاماً، وتوفى بعده بسبع سنين، وقد ظل محمد إبن على بن عبد الله بن العباس بالحميمة، حتى وفاته بها سنة ١٢٥هـ. ولقد أدعى العباسيون أن حق الامامة انتقل اليهم من أبناء عمهم الهاشميين العلويين قبل وفاة محمد هذا،وذلك على أثر تنازل أبي هاشم بن محمد بن الحنفية، وهو ابن على بن أبى طالب من زوجة أخرى غير السيدة فاطمة الزهراء، عن حقه فى الخلافة لابن عمه وتلميذه محمد بن على بن عبد الله بن العباس لعدم انجابه ولدا يتولى الامامة من بعده، ولأن ابن الحنفية لم يجد بين أفراد البيت العلوى من يستطيع النهوض بأعباء إمامة المسلمين غيره بسبب ضعف رجال الهاشميين

آنذاك.

والتفسير الوحيد لزعم إشاعة هذا التنازل من جانب العلويين الهاشميين إلى أبناء عمومتهم العباسيين والذى ادعاه العباسيون، هو أن العباسيين، على ما يبدو، كانوا فى أواخر القرن الأول الهجرى أكثر كفاية ونشاطاً وتحركاً من أبناء عمومتهم العلويين على المستوى السياسى وأكثر تطلعاً منهم الى النفوذ والسلطان.

وكان أبو هاشم بن محمد بن الحنفية إماما لجماعة من الشيعة أطلقت على نفسها إسم الهاشمية، نسبة لأبى هاشم، والكيسانية، نسبة الى كيسان، مولى محمد بن الحنفية والمنظم لدعوته. وكان حق الامامة عند هذه الفرقة قد انتقل الى أبى هاشم (عبد الله) بعد وفاة والده محمد بن الحنفية الذى يطالب بالامامة عن أبيه بعد استشهاد أخيه، غير الشقيق، الحسين بن على، وقد دفعه الى ذلك القائد المختار بن أبى عبيد الثقفى.

وقالت الروايات العباسية، فى موضوع تنازل العلويين الهاشميين عن حقهم فى الخلافة لأبناء عمومتهم العباسيين، أن أبا هاشم بن محمد بن الحنفية كان قد زارفى أخريات أيامه أبناء عمه العباسيين المقيمين بالحميمة بعد زيارة خاطفة لدمشق على أثر دعوة وجهها له الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك بن مروان لزيارته هناك، وقيل أن هشاماً كلف رجاله بأن يدسوا السم لأبى هاشم فى اللبن، وأن أبا هاشم شرب اللبن المسموم ، وما كاد يصل الحميمة حتى لفظ أنفاسه

متأثرا بالسم. وادعى العباسيون أنه قبل وفاته تنازل عن حقه في الامامة لابن عمه محمد بن على بن عبد الله بن العباس، ذلك لأنه لم ينجب ولداً ذكراً، وقد حدث ذلك سنة ٩٨هـ.

على أن هنالك مسألةً جديرةً بالملاحظة، وهى إن صحت هذه الرواية التى يدعيها العباسيون من تنازل أبى هاشم عن حقه فى الخلافة للعباسيين، أن هذا التنازل كان من جانب شخص واحد ولا يعتبر تنازلاً من جانب العلويين جميعاً، وهو علي الأقل تنازل من جانب جماعة الكيسانية الشيعية دون باقى الجماعات العلوية. يؤيد ذلك أن الشيعة الامامية لم تعترف بهذا التنازل، وقد قاموا، فيما بعد، فى وجه العباسيين وثاروا ضدهم بعد أن تسلموا مقاليد الأمور وتولوا الخلافة كما سوف نرى.

تنظيم الدعوة العباسية حتى الوصول إلى الحكم:

قام العباسيون بالتستر فى دعوتهم بعد ما لاقاه العلويون الهاشميون علي يد الأمويين حين أعلنوا الثورة العلنية ضدهم. وقد رأى الامام محمد بن عبد الله إبن العباس أن نقل الحكم من بيت الى بيت أمر خطير لابد أن يسبقه اعداد الأفكار وتهيئة النفوس لهذا النقل والتغيير، وأن كل محاولة فجائية غير مدروسة قد تكون عاقبتها الاخفاق. فرأى محمد، ببعد نظره، أن الأمر يحتاج الى شدة الحيطة والحذر، وطلب من أشياعه دعوتهم الناس الى نصرة آل البيت، دون تسمية أحد معين من آل البيت خوفاً عليهم من الأمويين وخوفاً عليهم فى نفس

الوقت من العلويين الهاشميين كذلك طلب منهم رفع شعار (الرضا من آل محمد)، أى من يرض عنه آل محمد، علويا كان أم عباسياً، اذا ما نجح آل محمد جميعهم فى القضاء على حكم الأمويين.

وقد وجد محمد العباسى أن مدينة الكوفة بالعراق واقليم خراسان فى فارس هما أصلح الأماكن لنشر الدعوة لآل محمد واتخاذهما مركزاً لهم ومقراً لدعوتهم. ذلك لأن الكوفة كانت مهد التشيع لآل البيت منذ خلافة على، كذلك لأن أهل خراسان من الفرس يفهمون فكرة التشيع بسهولة ويؤمنون بنظرية الحق الملكى المقدس فى الحكم التى كانت سائدة فى بلاد فارس منذ أيام حكم الملوك الساسانيين. اضافة الى كراهية الفرس للحكم الأموى، كراهية سائر الموالى لهذا الحكم، وبُعد بلادهم عن دمشق حاضرة الخلافة الأموية، مما يسهل على العباسيين نشر دعوتهم فى هذه البلاد.

وقد نهض محمد العباسى بالدعوة نهضة قوية، وعين الدعاة والنقباء، وأوصاهم بضرورة نشر الدعوة فى السر، وأوصاهم أيضا بأن يتظاهروا بنشر الدعوة لآل البيت جميعاً، تسكيناً للعلويين الهاشميين. ومن الحميمة، التى أتخذها العباسيون مركزاً لنشر دعوتهم، انطلق دعاة العباسيين، فى أوائل القرن الثانى الهجرى، الى الولايات والأطراف لنشر الدعوة. وقد أرسل محمد العباسى الى العراق خادمه ميسرة النبال، وطلب منه أن يجعل الكوفة قاعدته، كما أرسل الى خراسان اثنين من الدعاة وهما: محمد بن خميس وأبا عكرمة

السراج. وقد تخفى هؤلاء الدعاة فى زى التجار، وذهبوا الى حيث أمرهم الامام الذى ركز الدعوة فى أيدى هؤلاء الدعاة الثلاثة.

وقد اكتمل التنظيم للدعوة باختيار اثنى عشر نقيباً الى جانب هؤلاء الدعاة، يأتمرون بأمرهم وينفذون أوامرهم، كما أختير سبعون عاملا لمساعدة النقباء، يخضعون لهم ويأتمرون بأوامرهم. ولم تكن شخصية الامام فى الدعوة معلومة الا للدعاة الثلاثة فقط، أما النقباء والعمال فكانوا لا يعرفونها وعليهم فقط أن يدعوا للرضا من آل محمد، وذلك منتهى الاحكام فى التعليم لضمان السرية للدعوة وضمان عدم معرفة حكام الأمويين لشخصية الامام المدعو له. وعلى الرغم من هذه السرية التامة في الدعوة، فقد انكشف أمر بعض الدعاة وخاصة على يد الوالى أسدبن عبد الله القسرى حين كان واليا علي الكوفة، وقد أخذ جماعة من النقباء والعمال وقام بتعذيبهم ثم قتلهم، ولكن رغم ذلك فان الدعوة العباسية ظلت في مأمن بسبب دقة التنظيم وتمام السرية وبخاصة بعد وفاة الوالى القسرى سنة ١٢٠هـ.

هذا وقد مرت الدعوة العباسية بطورين أو مرحلتين: طور الدعوة السرية الذى بدأ من عام ١١٧ هـ. وطور العمل الذى بدأ من سنة ١٢٧هـ وانتهى سنة ١٣٢هـ.، وهى السنة التى سقطت فيها الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية.

نجاح الدعوة العباسية:

عند وفاة الامام محمد بن على بن عبد الله بن العباس سنة ١٢٥هـ، كانت

الدعوة للعباسيين قد قطعت شوطاً كبيراً في عهده. وقد أوصى محمد قبل وفاته، بالامامة من بعده لابنه ابراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس. وفى عهد امامة ابراهيم دخلت الدعوة العباسية فى طور العمل، وفي هذا الطور ظهرت شخصية أبى مسلم الخراسانى، صاحب الدور الأكبر فى نجاح الدعوة ووصول العباسيين الى كرسى الخلافة.

وكان أبو مسلم شاباً فارسياً من خراسان، اتصف بالشجاعة والاقدام وحب العسكرية. وقد اتصل أبو مسلم بالامام ابراهيم العباسى وأخذ على عاتقه عبء نشر الدعوة للعباسيين فى موطنه خراسان ومقر عصبيته. وكان أبو مسلم قد تلقى أصول الدعوة عن داعية العباسيين فى الكوفة: بكير بن ماهان. وفى سنة ١٢٨هـ تسلم أبو مسلم مقاليد الأمور فى خراسان التى كانت تتأجج فيها آنذاك نيران العصبية والحرب القبلية بين عرب الجنوب (اليمانية) وعرب الشمال (المغربة). وكان أسد بن عبد الله القسرى، والى خراسان آنذاك يمانياً. ثم خلفه على ولاية خراسان نصر بن سيار، وكان أميراً مغرياً قيسياً، وزاد بذلك الصراع بين الفريقين، واستطاعت القبائل اليمانية الانتصار على نصر بن سيار وطرده من خراسان والانضمام الى قوات أبى مسلم ومناصرة دعوته للعباسيين. وقد أرسل نصر بن سيار الى الخليفة الأموى مروان بن محمد، آخر خلفاء الأمويين، يخبره بقوة أبى مسلم وقوة عرب اليمانية وضعف الجيش الأموى المرابط فى خراسان، ولم يكن بيدالخليفة ما يفعله بسبب المشاكل المتفاقمة فى دولته. وفى نفس الوقت الذى تولى فيه أبو مسلم الدعوة للعباسيين في خراسان، تولى أمر الدعوة

لهم فى الكوفة شخصية قوية لا تقل في قوتها عن شصية أبى مسلم وهو حفص إبن سليمان، المعروف بأبى سلمة الخلال، الذى كان له دور كبير في وصول العباسيين الى الحكم. وكان سبب اتصال أبى سلمة ببنى العباس أنه كان صهراً لداعية العباسيين فى الكوفة بكير بن ماهان الذى كان كاتباً خصوصياً للامام ابراهيم العباسى. وقدأوصى بكير، قبل أن يموت، الامام ابراهيم أن يتخذ أبا سلمة كاتباً له بدله، فتم له ذلك وصار داعيةً للعباسيين في الكوفة.

ولقد ظلت دعوة العباسيين سرية في عهد الامام ابراهيم، ولا يعلم شخص الامام الا الدعاة، حتى وقع خطاب مرسل من الامام ابراهيم الى أبى مسلم فى خراسان فى يد الخليفة الأموى مروان بن محمد، فانكشف أمر ابراهيم، وقام الخليفة بالقبض عليه وسجنه فى حران ثم قتله. ولماً علم ابراهيم أن نهايته قد قاربت جعل ولاية العهد من بعده لأخيه: أبى العباس، عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله العباس، لأنه لم يكن له ولد ذكر، وأوصى ابراهيم أخاه أبا العباس بضرورة مواصلة الدعوة ونقل مقرها من الحميمة الى الكوفة.

ولماً قتل ابراهيم، سار رسوله الي الحميمة وسلّم وصيته الى أخيه أبى العباس، فتوجه أبو العباس، من فوره، الى الكوفة مصطحبا معه كبار بنى هاشم من العباسيين، وكان من بينهم: أخوه أبو جعفر المنصور، وابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد، وعمه عبد الله بن على.

وكان الامام ابراهيم، قبل وفاته، قد أصدر أمره الى أبى مسلم بأن يبدأ

العمل، وجاء فى وصيته له ألا يبرم أمراً من الأمور دون استشارة سليمان بن كثير داعى العباسيين بخراسان، وأن يستغل النزاع بين اليمنية القيسية فى خراسان علي أن يتضافر مع اليمانية المعارضين للوالى الأموى بخراسان. كذلك أوصاه بالأخذ بالشك والريبة فى أموره واشاعة الرهبة والخوف للقضاء على المتآمرين والمترددين فى أمر الدعوة، وأخبره بأن هذه خصال ضرورية للقواد الذين يتقرر علي أيديهم مصائر الأمم والشعوب.

وفى رمضان سنة ١٢٩هـ، بدأ أبو مسلم العمل، فعقد لواء السواد، شعار العباسيين (تأسياً بالرسول الذى اتخذ راية سوداء لواءً له)، وبدأ الثورة ضد الأمويين فى قرية سفيدنج، من قرى مدينة مرو عاصمة خراسان. واشتبكت قواته فى أول قتال لها، مع قوات والى خراسان نصر بن سيار وهزمتها، وقد نجح أبو مسلم فى دخول مرو فى العام التالى والاستيلاء عليها بعد هرب الوالى الأموى منها. ومن مرو، بدأ الزحف داخل بلاد فارس والعراق بقوات خراسانية جعل قيادتها لقائده قحطبة بن الحسن. وقد اكتسح قحطبة بقواته بلاد فارس والعراق، وأُجبر والى العراق على الالتجاء الى مدينة واسط، قاعدة الأمويين العسكرية فى بلاد العراق.

وفى الكوفة، نجحت قوات أبى سلمة الخلال فى هزيمة قوات قائد الأمويين بالكوفة يزيد بن عمر بن هبيرة، وأرغمته على الانسحاب بقواته المنهزمة الى واسط. فجاء أبو سلمة الخلال ونزل بجنده مدينة الكوفة دون مقاومة تذكر، فى

أوائل سنة ١٣٢هـ. وصار أمر دعوة العباسيين فى الكوفة فى يد أبى سلمة الخلال.

وتذكر المصادر أن أبا سلمة الخلال أخذ فى ذلك الوقت يتغير على العباسيين بعد أن سبر أحوالهم، وعزم على العدول عنهم الى بنى عمهم العلويين الهاشميين. وقيل أنه كاتب ثلاثة من أعيان العلويين ليبايع بالخلافة لأحدهم، وهم: الامام جعفر الصادق، وعبد الله المحضّن بن حسن بن الحسين بن على، وعمر الأشرف بن على زين العابدين بن الحسين، ولكن أحداً منهم لم يجبه لادراكهم خروج الأمر من أيديهم. وأثناء محاولات أبى سلمة مع قادة العلويين، فوجىء بقدم الامام أبى العباس عبد الله بن محمد، أخو الإمام ابراهيم المقتول وولى عهده من بعده، دون علمه الى الكوفة. وقد علم أبو العباس بنوايا أبى سلمة فحقدها عليه وأخفاها فى نفسه.

وعند قدوم أبى العباس الى الكوفة، قام كبار أعوان العباسيين بالبيعة له بالخلافة فى مسجد الكوفة الكبير يوم الجمعة الثالث من شهر ربيع الأول سنة ١٣٢هـ. ولقد عهد أبو العباس الى عمه عبد الله بن على بقتال الخليفة الأموى مروان بن محمد، فتتبعه الى نهر الزاب الأصغر بالعراق، وهو أحد روافد نهر دجلة، وهزم قواته وقتل وأغرق كثيراً من أتباعه، كان من بينهم نحو ثلثمائة أمير أموى. ثم هرب مروان بن محمد بمن تبقى من قواته الى الموصل لكن قوات عبد الله بن على العباسى لحقت بهم واوقعت الهزيمة بهم. فهرب مروان الي حران، ثم

عبر نهر الفرات وارتحل الى فلسطين والأردن ثم مصر. ولحق به عبد الله بن علي، في مصر وهزم بقايا قوات الأمويين عند قرية بوصير، من أعمال الفيوم وقتل مروان هناك. وبقتل مروان بن محمد انتهت الخلافة الأموية وقامت الخلافة العباسية، التى كان أول خلفائها أبو العباس عبد الله بن محمد الملقب بالسفاح.

العصر العباسى الأول
(١٣٢ - ٢٣٢ هـ)

اصطلح المؤرخون إلى تقسيم عهد حكم الدولة العباسية للعالم الاسلامى إلى عصرين ، عُرف العصر الأول منه باسم العصر العباسى الأول ، وهو يشمل المائة عام الأولى من حكم هذه الدولة (من ١٣٢ - ٢٣٢ هـ) ، بينما عُرف العصر الثانى الذى تقع فيه بقية سنوات حكم الدولة (من ٢٣٢ -٦٥٦ هـ) بالعصر العباسى الثانى.

ويعتبر العصر العباسى الأول العصر الذهبى الزاهر لهذه الدولة سياسياً وحضارياً ، وقد شهد هذا العصر مجموعة من الخلفاء الأقوياء الذين حكموا امبراطورية واسعة إمتدت حدودها من حدود الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسى غرباً ، وكانت بغداد أيامهم عاصمة العالم آنذاك . وقد حكم فى هذا العصر تسع من الخلفاء جاءوا على التوالى وهم :

١- أبو العباس عبد الله بن محمد ، السفاح (١٣٢ -١٣٦ هـ) .

٢- أبو جعفر المنصور بن محمد (١٣٦ -١٥٨ هـ) .

٣- محمد المهدى بن المنصور (١٥٨ - ١٦٩ هـ) .

٤- موسى الهادى بن المهدى (١٦٩ -١٧٠ هـ) .

٥- هارون الرشيد بن المهدى (١٧٠ - ١٩٣ هـ) .

٦- محمد الأمين بن هارون الرشيد (١٩٣ -١٩٨ هـ.) .

٧- عبد الله المأمون بن هارون الرشيد (١٩٨ -٢١٨ هـ.) .

٨- محمد المعتصم (أبو اسحق) بن الرشيد (٢١٨ -٢٢٧ هـ.) .

٩- هارون الواثق بن المعتصم (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ.) .

١- أبو العباس السفاح (١٣٢ - ١٣٦ هـ) .

ينظر المؤرخون إلى خلافة أبى العباس عبد الله السفاح ، على أنها فترة انتقال من حكم دولة إلى حكم دولة أخرى ، ويعتبرون أخاه أبا جعفر المنصور ، ثانى خلفاء العباسين ، المؤسس الحقيقى لهذه الدولة . وذلك لأن حكم السفاح القصير الأمد والذى لم يتجاوز السنوات الأربع ، كان فترة تصفية للقوى المعارضة للدولة الجديدة ، تلك القوى التى تمثلت فى بقايا البيت الأموى . كذلك كان عهد السفاح سنوات تصفية للشخصيات الكبرى التى قامت الدولة العباسية على اكتافها ، بل على أسيافها ، والتى كانت تنتظر فى المقابل من الدولة الجديدة خير الجزاء وتتوقع إحراز مكان الصدارة فيها جزاءاً لما قدمت أيديهم .

وقد رأى السفاح ، ومن بعده المنصور ، فى هذه الشخصيات خطراً كبيراً على دولتهم الناشئة . وكان السفاح والمنصور قد أخذا بوصية أخيهما الامام ابراهيم بضرورة الأخذ بالشك والريبة وإظهار هيبة الدولة وقوتها منذ لحظة ولادتها وإلا فلت الزمام من بنى العباس . وإذا كانت بداية هذه التصفية قد وقعت على يد السفاح ، فإن النهاية الكاملة لها كانت فى عهد المنصور الذى استطاع أن يتخلص من أعداء الدولة وأن يمكن لها وأن يحقق النجاح فى جميع مشروعاته

نظراً لما كان يتميز به هذا الخليفة من صفات القادة وعظماء الرجال من بناة الدول من حزم وعزم وصبر وجلد ودهاء ومكر وقدرة فائقة على التخطيط والتنظيم . ولذلك اعتبره المؤرخون المؤسس الحقيقى للدولة العباسية . هذا فضلاً على أن طول مدة خلافته التى بلغت الاثنى وعشرين عاماً ساعدته على التفرغ لعمله البناء وساعدته أيضاً على جنى ثمار الغرس الذى بذر بذوره حتى أنه ترك الخلافة من بعده لابنه المهدى وقد فرغت تقريباً من كل مشاكلها وازدهرت جميع مرافق الحياة فيها وامتلأت خزانتها بالأموال والخيرات الوافرة .

تولى عبد الله السفاح الخلافة يوم الجمعة الثالث من شهر ربيع الأول سنة ١٣٢هـ ، وخطب خطبة الجمعة فى هذا اليوم فى مسجد الكوفة الكبير ونوّه بفضل آل محمد فى خطبته وندد بالأمويين لاغتصابهم الخلافة ولما اقترفوه فى حق آل البيت وأنحى باللائمة على جند الشام وأطنب فى مدح أهل الكوفة والعراق ، وأفاض فى مدح أهل خراسان واعترف بمساعدتهم الكبيرة فى إقامة دولة بنى العباس ، ولقد اختتم السفاح خطبته مهدداً بسفك دم كل من يقف فى سبيله أو يعترض حكمه فقال واصفاً نفسه : (أنا السفاح المبيح والثائر المبير) .

ولقد اختلف المؤرخون فى سبب تسميته بالسفاح ، فقال بعضهم أنه سمُى كذلك لكثرة ما سفح من دم الأمويين وأتباعهم ، وقال البعض الآخر إنه سُمى بهذا الاسم لتلقيب نفسه به فى أول خطاب له كما سبق أن أشرنا بقوله (أنا السفاح المبيح والثائر المبير) . وقال فريق أن سفاحاً فى اللغة العربية تعنى صفة للرجل الكثير العطايا والمنح ، أى الكريم الذى يسفح المال سفحاً . وقيل أيضاً أن السفاح هو الفصيح القادر على سفح الكلام .

ولقد وصفه صاحب كتاب الفخرى بأنه (كان كريماً حليماً وقوراً عاقلاً كاملاً

كثير الحياء حسن الأخلاق ، ولما بويع واستوثق له الأمر تتبع بقايا بنى أمية ورجالهم فوضع السيف فيهم) .

التمثيل ببنى أمية :

وقد بدأ أبو العباس خلافته بالانتقام من كل كبار الأمويين أخذاً لثأر أخيه ابراهيم الامام وللامام الحسين شهيد كربلاء وثأر غيره ممن أستشد من آل البيت فى ثوراتهم ضد الأمويين .

وقد تعقب العباسيون الأمويين بعد مقتل مروان بن محمد عند قرية بوصير بصعيد مصر ، وتمتلئ كتب التاريخ والأدب بالكثير من القصص الرهيبة التى تناولت قتل الأحياء من الأمويين ونبش قبور موتاهم . ولم ينج من هذه القبور سوى قبر الخليفة الورع عمر بن عبد العزيز ، لما عُرف عنه من تقوى وورع ، وبسبب مواقفه الطيبة من آل البيت سواء أكانوا علويين أو عباسيين ، كذلك لمنعه سب الامام على وآل البيت من فوق المنابر ، وهى عادة سيئة دأب عليها حكام الأمويين .

ولقد تتبع السفاح بقايا حكام الأمويين وأمرائهم حتى أنه لم يفلت منهم أحد إلا عبد الرحمن بن معاوية الذى هرب إلى الأندلس ، وعُرف بعبد الرحمن الداخل ونجح هناك فى إقامة ملكاً جديد للأمويين .

وكان من أمراء الأمويين الذين قتلهم السفاح : ابراهيم بن الوليد عبد الملك ويزيد بن معاوية بن عبد الملك ، وعبد الجبار بن يزيد بن عبد الملك، وسليمان بن يزيد بن عبد الملك ، كما قتل قواده مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين .

وكان للشعراء ورجال البلاط تأثير كبير فى اذكاء نار هذا العداء ضد الأمويين ، ولما قاموا به من سفك دماء آل البيت حين كان السلطان لهم . ولقد روت كتب التاريخ أن السفاح كان جالساً يوماً فى مجلس الخلافة وعنده سليمان إبن هشام بن عبد الملك ، وقد أكرمه السفاح ، فدخل عليه (سديف) الشاعر فأنشده قائلاً :

لا يغرنك ما ترى من رجال
إن تحت الضلوع داءً دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى
لا ترى فوق ظهرها أمويا

فالتفت سليمان ، وقال : (قتلتنى يا شيخ) ، ودخل السفاح وأخذ سليمان فقتل .

ودخل على السفاح شاعر آخر ، وقد قُدم الطعام فى وليمة أقامها السفاح لنحو سبعين أمير من أمراء بنى أمية على ضفاف نهر أبى فطرس ، فقال شعراً أهاج به الخليفة وأعاد عنده ذكريات الماضى الأليمة ، ومن شعره أبيات جاء فيها :

أصبح الملك ثابت الأساس
بالبهاليل من بنى العباس
لا تقيلن عبد شمس عثارا
واقطعن كل رقلة وغراس
ولقد غاظنى وغاظ سوائية
قربهم من نمارق وكراسى
أنزلوها بحيث أنزل الله
بدار الهوان والاتعاس
واذكروا مصرع الحسين وزيد
وقتيلا بجانب المهراس

فالتفت أحدهم إلى منّ بجانبه وقال : (قتلنا العبد) . ثم أمر بهم السفاح فضربوا بالسيوف حتى قتلوا ، وبسط النطوع (الفُرش) عليهم ، وجلس فوقهم فأكل الطعام وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً . وقد عُرفت هذه المذبحة بمذبحة نهر أبى فطرس التى لم ينج منها من أمراء الأمويين سوى عبد الرحمن الداخل لعدم حضوره هذه الوليمة وفراره إلى الأندلس .

ولمّا قتل السفاح رجال الأمويين واستصفى لنفسه أموالهم ، قال :

بنى أمية قد آفنيت جمعكم
فكيف لى منكم بالأول الماضى
يُطيب النفس أن النار تجمعكم
عوضتم من لظاها شر معتض

ولم تطل مدة السفاح ، فمات فى الأنبار ، التى اتخذها عاصمة لخلافته ، سنة مائة وست وثلاثين بسبب إصابته بمرض الجدرى .

ولقد واصل المنصور ، عند تسلمه الخلافة ، سياسة الانتقام من الأمويين وقتلهم وتتبعهم أينما كانوا . ولم يقتصر هذا التتبع على الأمويين المقيمين ببلاد الدولة العباسية بل تتبع الفارين منهم ، وبخاصة عبد الرحمن الداخل الذى فر إلى الأندلس . وقد وضع المنصور فى ذهنه وفى صلب سياسته ضرورة القضاء على الداخل وعلى الدولة التى أقامها فى الأندلس ، كما سوف نرى .

التخلص من الشخصيات صاحبة النفوذ والسلطان فى الدولة :

ولقد وجه السفاح همه ، والمنصور من بعده ، إلى الفتك بمن والاهم وساعدهم من الرجال والأعوان فى تأسيس دولتهم ، حتى لا يكونوا شوكة فى جنب هذه الدولة وحتى لا ينازعوهم ويشاركوهم الحكم والسلطان . وكان أكبر الشخصيات التى خشى السفاح والمنصور من نفوذهم هم ثلاثة صمموا على القضاء عليهم والتخلص منهم ، وهم :

داعيتهم أبوسلمة الخلال ، وعمهما عبد الله بن على ، وقائدهما أبومسلم الخراسانى .

وقد بدأت عملية التخلص بأبى سلمة الخلال ، ثم تلاها التخلص من عبد الله بن على ، واختُتمت بالتخلص من أبى مسلم الخراسانى.

التخلص من أبو سلمة الخلال:

وكان أبو سلمة أول وزير وُزر لأول خليفة عباسى واسمه حفص بن سليمان أبو

سلمة الخلال ، وكان مولى لبنى الحارث بن كعب . قيل فى تلقيبه بالخلال ثلاثة أوجه : أحدها أن منزله بالكوفة كان قريب من محلة الخلالين وكان يُجالسهم فنُسب اليهم،

وثانيها : أنه كان له حوانيت يُعمل فيها الخل فنُسب إلى ذلك

وثالثها : أنها نسبة إلى خِلَل السيوف وهى أغمادها.

وكان أبو سلمة من مياسير أهل الكوفة وكان ينفّق ماله على رجال الدعوة وكان سبب اتصاله ببنى العباس أنه كان صهراً لبكير بن ماهان كاتب الامام ابراهيم الخصوصى ، فلما أدركت بكير الوفاة قال للامام ابراهيم : إن لى صهراً بالكوفة يُقال له أبو سلمة الخلال قد جعلته عوضى فى القيام بأمر دعوتكم فلما مات كتب الامام ابراهيم إلى أبى سلمة يعلمه بذلك ويأمره بمايريد من أمر الدعوة . وقام أبو سلمة بأمر دعوتهم قياماً عظيماً . فلما سبر أحوال بنى العباس عزم على العدول عنهم الي بنى على، فكاتب ثلاثة من أعيانهم هم: جعفر الصادق، وعبد الله المُحْصَّن بن حسن بن الحسن بن على، وعمر الأشرف بن على زين العابدين.

وأرسل الكتب مع رجل من مواليهم وقال له: اقصد أولا جعفر الصادق فان أجاب فأبطل المكتابين الآخرين وإن لم يجب فالق عبد الله المحصن فان اجاب فابطل كتاب عمر وإن لم يجب فالق عمر.

فذهب الرسول الى جعفر أولاً ودفع اليه كتاب أبى سلمة فقال: «مالى ولأبى سلمة وهو شيعة لغيرى» يعنى للعباسيين، فقال له الرسول: اقرأ الكتاب، فقال الصادق لخادمه: إدن السراج منى، فأدناه فوضع الكتاب علي النار حتى احترق،

فقال الرسول: ألا تجيبه؟ قال: قد رأيت الجواب ثم مضى الرسول الي عبد الله المحصن ودفع اليه الكتاب فقرأه وقبله وركب في الحال الي الصادق وقال: هذا كتاب أبى سلمة يدعونى فيه الي الخلافة قد وصل علي يد بعض شيعتنا من أهل خراسان، فقال له الصادق: ومتى صار أهل خراسان شيعتك؟ أأنت وجهت اليهم أبا مسلم؟ هل تعرف أحدا منهم باسمه أو بصورته، فكيف يكونون شيعتك وأنت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك؟.

فقال عبد الله: كأن هذا الكلام منك لشىء. فقال الصادق: قد علم الله انى أوجب النصح لكل مسلم فكيف أوخره عنك؟ فلا تمن نفسك الاباطيل فان هذه الدولة ستتم لهؤلاء وقد جا ءنى مثل الكتاب الذى جاءك.

فانصرف عبد الله من عنده غير راض.

وأما عمر زين العابدين فانه رد الكتاب وقال: «أنا لا أعرف صاحبه فأجيبه».

ثم غُلب أبو سلمة على أمره وعملت الدعوة عملها وبويع السفاح، ونمى الخبر اليه فحقدها على أبى سلمة وقتله بسببها.

وكان أبو سلمة سمحاً كريماً مطعاماً كثير البذل فصيحاً شاعراً ذا يسار ومروءة ظاهرة.

فلما بويع السفاح استوزره وفوض الأمور اليه وسلم اليه الدواوين ولقب بوزير آل محمد.

فعل السفاح ذلك ونفسه فيها ما فيها حيال أبى سلمة. وخاف ان هو قتله

فسيؤدى قتله الى غضب أبى مسلم وانقلابه عليه وأهل خراسان. فتلطف لذلك وعمل على ان يتم الخلاص من أبى سلمة على يد أبى مسلم نفسه وكتب الى أبى مسلم كتاباً يعلمه فيه بما عزم عليه أبى سلمة من نقل الدولة عن العباسيين الى العلويين وعهد اليه بمعاقبته على ذلك وأوحى اليه بقتله بقوله فى الخطاب « اننى قد وهبت جُرْمَه لك.. »وكان باطن الكتاب يقتضى تصويب الرأى فى قتل أبى سلمة. وأرسل الكتاب مع أخيه المنصور فلما قرأ أبو مسلم الكتاب فطن لغرض السفاح ولاقت الفكرة قبولا عنده اذ أن قتل أبى سلمة يتيح له التخلص من نفوذه بدار الخلافة وتبقي له وحده الحظوة عند الخليفة. فارسل أبو مسلم رجالا من أهل خراسان قتلوا أبا سلمة دون أن يثير ذلك ريبة أو غضب فُرس خراسان.

وأراد السفاح ان يثنى بأبى مسلم لكن المنية وافته وهو يخطط للخلاص منه.

تولي المنصور الخلافة سنة ١٣٦هـ حتى ١٥٨هـ، وكان قد وُلى سنة ١٠١هـ.

التخلص من عبد الله بن على:

لما مات السفاح وآلت الخلافة الي أخيه أبى جعفر المنصور ثار ضده عمه عبد الله بن على اعتقادا منه بأحقيته بها دون أبى جعفر نظراً للدور الذى قام به فى القضاء على الدولة الأموية وقيام دولة العباسيين.

وكان عبد الله بن على بالشام عند حلب حين ولى المنصور الخلافة ففوجىء بذلك فجمع الناس ودعا الى نفسه وخطب الناس قائلا:

«ان السفاح ندب بنى العباس لقتال مروان بن محمد فلم ينتدب غيرى وانه

قال لي: ان ظهرت عليه وكانت الغلبة لك فأنت ولي العهد بعدي» وشهدت له جماعة بذلك فبايعه أهل الشام عند حلب. ثم رحل من حلب الى حران وطلب الى واليها مبايعته فأبى فهزمه وقتله.

ولما اتصل الخبر بالمنصور أقامه ذلك وأقعده، وفكر المنصور أنه ليس هنالك خيرا من أبي مسلم يخلصه من خطر عمه بوجهه لقتاله فان تخلص منه فقد كفاه خطر عمه وان تخلص عبد الله من أبي مسلم فقد كفاه ذلك أيّ فهداه تفكيره أن يضرب عدوا له بعدو ولما عرض المنصور الأمر على أبي مسلم قال له:

«لا تخفه أنا اكفكيه ان شاء الله انما عامة جنده من أهل خراسان وهم لا يعصونني». فسار أبو مسلم بعسكر كثيف لحرب عبد الله وقد نجح أبو مسلم لما عُرف عنه من مهارة في القتال وقدرة على وضع خطط الحرب في أن يوقع الهزيمة بقوات عبد الله بعدعدة شهور في معركة نصيبين سنة ١٣٧هـ فهرب عبد الله الي البصرة ونزل على أخيه سليمان بن علي الذي كان والياً عليها من قبل المنصور. فشفع سليمان في أخيه الى المنصور وطلب له الأمان، فأمنه المنصور وكتب له كتابا بليغاً التزم فيه بكل شيء. الا أن المنصور لم يف بهذا الأمان ودبر أمر التخلص منه بعد أن استقدمه اليه فقام بحبسه مدة تسع سنين ثم أمر بقتله سنة ١٤٩هـ، وقيل أنه بني له بيتاً حبسه فيه ٩ سنوات وعمل في أساسه ملحاً ثم أجري الماء فيه فسقط البيت عليه فمات.

وهكذا تخلص المنصور من أكبر الشخصيات الخطرة علي حكمه ولم يبق أمامه بعد ذلك سوى الخلاص من أبي مسلم الخراساني.

ولخص الطبري هذه التهم التي نسبها إليه وجاءت خلاصتها في مختلف

روايات المؤرخين كالآتي:

١ - عدم تحيته حين زار أبا العباس فى الهاشمية. وذكره باسمه لا بكنيته فى بعض الرسائل.

٢ - تقديم اسمه على اسم الخليفة فى الرسائل.

٣ - تقدمه علي أبى جعفر فى طريق الحج وعدم انتظاره.

٤ - تأخره في بيعة أبى جعفر.

٥ - تحريض عيسى بن موسى على التمرد وطلب الخلافة.

٦ - تدخله فى شئون أبى العباس السفاح.

٧ - قتل الداعى سليمان بن كثير دون استشارة الامام، وقتل ٦٠٠ ألف من المسلمين صبراً.

٨ - أخذه بعض متاع وجوارى عبد الله بن على لنفسه.

٩ - ادعائه النسب لبنى العباس (ادعى أنه من نسل سليط بن عبد الله العباسى).

١٠ - مراوغته ومحاولته الخروج الى خراسان رغم استدعاء الخليفة له.

التخلص من أبى مسلم الخراسانى:

كان أبو جعفر المنصور، يعتبر أبا مسلم الخراسانى أكثر الشخصيات خطرا عليه وعلى حكمه، لأنه كان يعتبر نفسه السيد المطلق في خراسان مسقط رأسه

وموطن عصبيته.

وان العداء قد اشتد وتفاقم بين أبى مسلم وأبى جعفر منذ أيام خلافة السفاح. وكان السفاح، بعد أن تولى الخلافة، قد بعث بكتاب الى أبى مسلم، وهو بنيسابور، يقر فيه ولايته علي خراسان، ويطلب منه أن يأخذ البيعة من أهل خراسان له ولأخيه أبى جعفر من بعده. وعلي الرغم من أن أبا مسلم كان يستخف بأبى جعفر ولم يكن راضيا علي ولايته للعهد بعد أخيه، الا أن أبا مسلم أجاب الخليفة الى ما طلب وأخذ له ولأخيه البيعة من أهل خراسان.

ولقد حنق أبو جعفر لاستخفافه به وأوغر صدر الخليفة عليه وحثه على قتاله وخوّفه من خروجه عليه. ولكن أبا العباس لم يجب أخاه الي ما طلب لما كان يتمتع به أبو مسلم من نفوذ في نفوس أهل خراسان. ثم حدثت بين أبى جعفر وأبى مسلم أحداث أدت الى اثارة عوامل الحقد والكراهة بين الرجلين. ذلك أن أبا مسلم أراد أن يؤدى فريضة الحج فولى الخليفة أبا جعفر امارة الحج فى ذلك العام فغضب أبو مسلم وقال: «أما وجد أبو جعفر عاما يحج فيه غير هذا؟ وعمل أبو مسلم على الحط من هيبة أبى جعفر.

وحين جاء نعى أبى العباس لأبى مسلم كتب الى أبى جعفر يعزيه فى وفاة أخيه دون أن يهنئه بالخلافة أو يبعث اليه بالبيعة. ثم بايعه بعد مماطلة ليدخل فى روعه القلق من ناحيته. ولما وصل المنصور الى الكوفة ندب أبا مسلم لمحاربة عمه حتى أرسل اليه رسولا من عنده ليحصيى عليه الغنائم فغضب أبو مسلم وهم بقتل الرسول وقال: «أمين على الدماء خائن على الأموال؟». وكتب أصحاب الأخبار بذلك للمنصور وعزم أبو مسلم على الخلاف وأن يتوجه إلى خراسان .

وقرر المنصور أن يضرب الحديد وهو ساخن وقرر التخلص من أبى مسلم قبل أن يعود الي خراسان مركز ولايته وعصبيته. وكان أبو مسلم قد قرر العودة مغاضبا الى خراسان. فعمل علي ابعاده عنها وولاه مصر والشام فغضب أبو مسلم وقال: «هو يوليني الشام ومصر وخراسان لى».

واصر علي المسير الي خراسان. عند ذلك تحققت مخاوف أبي جعفر من ناحية أبى مسلم وخشي خروجه عليه وعول على التخلص منه قبل ان يستفحل شره. فكتب اليه كتابا يأمره فيه برجوعه اليه، فرد عليه أبو مسلم: «انه لم يبق لأمير المؤمنين – أكرمه الله – عدو الا أمكنه الله منه. وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان أن اخوف ما يكون الوزراء اذا سكنت الدهماء، فنحن نافرون من قربك حريصون علي الوفاء بعهدك ما وفيت، حريون بالسمع والطاعة غير انها من بعيد حيث تقارنها السلامة. فان ارضاك ذاك فأنا كأحسن عبيدك فان ابيت الا ان تعطى النفس ارادتها نقضت ما ابرمت من عهدك ضناً بنفسى».

وفي هذا الكتاب عبر أبو مسلم عما يجيش في صدره من حقد لأبى جعفر ومن خوف علي حياته اذا هو اطاع أمره، لكن أبا جعفر سلك مع قائده العظيم سبيل اللين والمسالمة ومقابلة التعدى والتهديد بالحيلة حتى يبدد مخاوفه ويتمكن منه فكتب اليه المنصور يطيب نفسه ويسكنه ويعده الجميل ويستدعى منه الحضور. فلما وجد المنصور اصرار أبى مسلم على الخروج أشتد خوفه منه وحنقه عليه وكتب اليه كتابا معناه أنك لست في نظرنا بهذه الصبغة التى قد وسمت بها نفسك وان حسن بلائك في دولتنا يغنيك عن هذا القول. وكرر عليه طلب الحضور، وقال لوجوه بني هاشم: اكتبوا أنتم أيضا اليه. فكتبوا اليه يعتبون عليه خلاف المنصور ومشاقته ويحسنون له الحضور عنده والاعتذار اليه.

وأرسل المنصور الكتب مع كاتب عاقل من أصحابه وقال له: امض اليه وحدثه الين حديث تحدثه أحداً فان رجع فارجع به حتى تقوم به عليّ، وان أصر على المشاقة وصمم على التوجه الى خراسان وأيست منه ولم يبق لك حيلة فقم بتهديده وتخويفه.

فمضى الرسول اليه وناوله الكتب فقرأها والتفت الى صديق له اسمه مالك بن الهيثم وقال له: ما الرأى؟.

قال: الرأى الا ترجع اليه فانك ان رجعت اليه قتلك وان مضيت علي طريقك حتى تصل الى الرى فهنالك جندك تكون بينهم وتنظر فى أمرك فان حدث لك حادث كانت خراسان من ورائك فعزم أبو مسلم على ذلك وقال للرسول: قل لصاحبك انه ليس من رأيى الحضور عندك وأنا متوجه الى خراسان. فقال له الرسول: يا أبا مسلم أنت مازلت أمين آل محمد فانشدك الله الا تسيم نفسك بسيمة العصيان والشقاق والرأى أن تحضر عند أمير المؤمنين وتعتذر اليه فلن ترى عنده الا ما تحب.

فقال له أبو مسلم متى كنت تخاطبنى بمثل هذا الخطاب؟

فقال الرجل: سبحان الله، انت دعوتنا الى ولاية هؤلاء القوم ونصرتهم وقلت لنا من خالفهم فاقتلوه فلما دخلنا معك فيما ندبتنا اليه رجعت عنه وأنكرته علينا!

فقال أبو مسلم: هو ما قلت لك ولست براجع.

فقال له: فليس عندك غير هذا؟

قال: نعم، ولما يئس « الرسول من أبي مسلم خلا به وأبلغه بتهديد المنصور وأكد له قدرة الخليفة على القضاء عليه حتى لو خاض البحار واقتحم النار فأوجس أبو مسلم خيفة وساورته الظنون وتملكه القلق ولا سيما بعد أن علم أن أبا جعفر أرسل الى أبي داود خالد الذهلي نائب أبي مسلم بخراسان كتابا يمنيه فيه بولايتها اذا هو قطع صلته بأبي مسلم وحال دون وصوله اليها. كما ازداد قلق أبي مسلم حين وصله كتاب هذا النائب والذى جاء يقول فيه:

«إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيه (ص) فلا تخالفن امامك ولا ترجعن الا باذنه».

وكان هذا التهديد لأبي مسلم من نائبه على خراسان كافيا لعدوله عن رأيه فقرر القدوم الى الخليفة مصالحا بعد ان أخذ منه الأمان.

فقام بتسليم عسكره الى بعض أصحابه وقال له: ان جاءك كتابي وهو مختوم بنصف خاتمي فهو كتابي وان كان مختوماً بكل الخاتم فاعلم أنه ليس ختمي، وأوصاه بما أراد. ثم سار الي المنصور.

ولما علم المنصور بقرب أبي مسلم من المدائن دبر أمر اغتياله وأمر فى الوقت نفسه رجالات دولته وأفراد البيت الهاشمي بلقائه.

ولما مثل أبو مسلم بين يدى الخليفة بالغ فى الترحيب به ثم قال له: «انصرف يا عبد الرحمن فأرح نفسك وادخل الحمام فإن للسفر عناء واحضر غداً» وأرسل المنصور الى رئيس حرسه ودبر معه طريقة قتله، وهى أن يحضر أربعة من الحراس الذين يثق بهم وأن يكونوا خلف ستار على أن يخرجوا اذا صفق بيديه ويقتلوا أبا مسلم.

ثم أصبح الصباح وجاء أبو مسلم ومثل بين يدى الخليفة وبدأ الحديث معه من العتاب الى المؤاخذة ومحاسبته على أخطائه ثم اللوم والتأنيب.

ولما عدد أبو جعفر على أبى مسلم عدة ذنوب قال أبو مسلم: «يا أمير المؤمنين مثلى لا يقال له هذا ولا تعدد عليه مثل هذه الذنوب بعد ما فعلت».

فاغتاظ المنصور وقال: «يا ابن اللخناء أنت فعلت! والله لو كانت فى مكانك أمة سوداء لفعلت ما فعلت وهل نلت ما نلت إلا بنا وبدولتنا؟» فقال أبو مسلم: «دع هذا فقد أصبحت لا أخشى غير الله» يقول الطبرى فضرب المنصور بيده على الأخرى فخرج رجال الحرس الأربعة من وراء ستارهم وضربوه بالسيوف فصاح: «استبقنى يا أمير المؤمنين لعدوك» فقال المنصور: «وأى عدو لى أعدى منك» ثم أمر به فلف فى بساط. وخطب المنصور بتلك المناسبة يبرر هذا العمل بقوله:

«.. إن من نازعنا هذا القميص أجزيناه خبى هذا الغمد وإن أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا على أنه من نكث بنا فقد أباح دمه لنا ثم نكث بنا هو فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه».

وكان لقتل أبى مسلم نتائج بعيدة المدى فى تاريخ الدولة العباسية وفى أحداث الصراع بين العرب والفرس على الحكم فى هذه الدولة.

ولقد أصبحت شخصية أبى مسلم مع الأيام عند الفرس شخصية اسطورية ونسجوا حولها القصص الخيالية وأصبح البطل القومى الشعبى فى خراسان. ورفع عدد كبير من الثوار فى فارس شعار الثأر لأبى مسلم كمبرر للثورة على العباسيين.

فترة التأسيس والبناء فى الدولة العباسية

يعتبر المؤرخون عهد خلافة أبى جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨هـ) فترة تأسيس وبناء الدولة العباسية، كما يعتبرونه المؤسس الحقيقى لهذه الدولة برغم مجيئه الثانى فى الترتيب بعد الخليفة السفاح كذلك يعتبرون فترة المهدى والهادى الرشيد فترة الاستقرار. وكان المنصور كما ذهب بعض المؤرخين الى القول من أعظم الخلفاء العباسيين شدة وبأسا ويقظة وحزماً وصلاحا واهتماما بمصالح الرعية، ولذا يعدونه المؤسس الحقيقى للدولة «استطاع تخليص بلاده من عبث العابثين وتوطيد دعائم ملكه على أسس ونظام قوى».

وقد عرف المنصور بالثبات عند الشدائد، ولا شك فى أن هذه الصفة كانت من أبرز الصفات التى كفلت له النجاح اذا صادفته احدى العقبات وقد كانت كثيرة فى عهده.

ومما يسجل له بالاعجاب قيامه فى وجه من خرجوا عليه وتحديه لهم حتى تغلبه عليهم ولكن يؤخذ على المنصور ميله لسفك الدماء، وان لم يكن قد بلغ فى ذلك ما بلغه أخوه السفاح، كذلك يؤخذ عليه غدره بمن أعطاهم الأمان. فقد غدر بثلاث شخصيات كبيرة كان قد أمنها وهم: ابن هبيرة أحد قواده. وعمه عبد الله إبن على وأبى مسلم الخراسانى وكان قد أعطى الثلاثة الأمان ثم غدر بهم.

ساعدت طول فترة خلافة المنصور (٢٢ سنة) على التفرغ لعملية بناء الدولة بما تتطلبه من تنظيم ادارة الحكم وعمران البلاد واصلاح اقتصادها. وقد

ترك أبو جعفر الدولة وقد فرغت تقريباً من كل مشاكلها وازدهرت جميع مرافقها وامتلأت خزائنها بالأموال فى عهد أبناء العباس من بعده وفيما روته كتب التاريخ والأدب عن ازدهار الدولة الشامل فى عصرها الأول.

وبصدد التخلص من أعداء الدولة فقد رأينا استمرار المنصور فيما شرع فيه اخوه السفاح فى هذا الخصوص فكان له القضاء على عبد الله بن على وعلى قائده الخطير أبى مسلم الخراسانى. كذلك بصدد تتبع بقايا الأمويين نراه لا يهدأ فى مطاردة الأمير الأموى عبد الرحمن الداخل بالأندلس وبذل المحاولة تلو الأخرى للقضاء على حكمه كما سوف نرى.

كذلك تعرض المنصور لثورة العلويين وتصدى لهذه الثورة وقضى عليها كما سوف نرى.

بناء بغداد:

كان المنصور قد بنى فى أوائل دولتهم مدينة بنواحى الكوفة وسماها الهاشمية ووقعت واقعة الراوندية فيها فكره سكناها لذلك ولمجاورة أهل الكوفة وكان لا يأمن شرهم.

وقد رأى المنصور ضرورة اتخاذ حاضرة جديدة لدولته الراسعة تتناسب فى عظمتها وروعتها مع عظمة الدولة وقوتها، وكان يكره الكوفة ولا يأمن أهلها على نفسه وكانوا قد افسدوا جنده. فخرج بنفسه يرتاد له موضعا يسكنه ويبنى

فيه مدينة له ولعياله ولأهله ولجنده، فوقع اختياره على منطقة خصبة يرويها ماء دجلة والجداول التى تأخذ ماءها من الفرات، فى منطقة يسهل فيها الاتصال بين أرجاء دولته وتتوافر فيها سبل العيش وتقع وسط العراق. وكان موضع هذه المدينة قرية صغيرة قديمة كان قد بناها بعض ملوك الفرس على شاطىء نهر دجلة فى أعلى المكان الذى يلتقى فيه نهر الصراة بدجلة، وتسمت هذه المدينة أول الأمر بمدينة المنصور. وابتدأ البناء فيها سنة خمس وأربعين ومائة وانتهى سنة تسع وأربعين ومائة، وجعلها مدورة وجعل قصره والمسجد فى وسطها، وسميت المدينة باسم بغداد، ويقال لها: مدينة المنصور، والزوراء (لازورارها عن القبلة والكعبة)، ودار السلام، والروحاء (لطيب هوائها)، والمدورة (لاستدارة بنائها)، وبغداد. كلمة فارسية تتكون من كلمتين: باغ، ومعناها الله وداد من فعل دادن بالفارسية بمعنى أعطى، فيكون معناها بذلك المدينة التى أعطاها الله، أو مدينة الله. ولقد أحضر المنصور المهندسين والبنائيين والصناع من مجارين وبنائين من الشام ومصر وبلاد الديلم والبصرة والكوفة وواسط ليشرعوا فى بنائها. وقد قيل أن عدد هؤلاء بلغ مائة ألف رجل. وقد أناط المنصور الاشراف على البناء الى قائده الحجاج بن أرطاة والامام أبى حنيفة النعمان الذى كان ذا معرفة بالهندسة والبناء.

وسرعان ما ازدحمت بغداد واتسع بناؤها على مر السنين وامتلأت بالسكان الذين أقبلوا عليها من شتى البلاد. ولما فرغ المنصور من عمارة المدينة أقطع أعيان دولته قطائع من الأرض خارجها رغبة منه فى تخفيف الضغط على

العاصمة، وسرعان ما عمرت هذه القطائع وازدحمت بالسكان واتصلت بالعاصمة، ولا شك فى أن البناء كان رائعا فقد وصف الجاحظ بغداد بعد وقت قليل من عهد المنصور بقوله: «لم أر مدينة قط أرفع سمكا ولا أجود استدارة ولا أوسع أبوابا من الزوراء، وهى مدينة أبى جعفر المنصور، كأنما صبت فى قالب وكأنما أفرغت أفراغا». واتصل ببناء بغداد بناء مدينة الرصافة، وكانت قد اتخذت فى الأصل سكنات للجيش وسميت رصافة بغداد ثم بغداد الشرقية لانها تقع فى الجهة الشرقية من دجلة المقابلة لبغداد. وقد بنى لها المنصور سوراً وحفر حولها خندقا. وسرعان ما عمرت الرصافة حتى قاربت بغداد فى الاتساع فظهرت فيها الحدائق والمتنزهات والميادين الواسعة والمبانى الفخمة والحمامات والأسواق.

وقد قيل فى سبب بناء الرصافة، أن الجند شغبوا يوما على المنصور، فقال المنصور لأحد مستشاريه: ما ترى؟ وإنى خائف من تجمع كلمة الجند. فقال له: يا أمير المؤمنين الرأى أن يعبر أبنك الى الجانب الشرقى وتعبر معه قطعة من العسكر وتبنى له مدينة فيصير هو فى مدينة وعسكر بالجانب الشرقى وأنت فى مدينة وعسكر بالغربى، فان رابك حدث من أحد الجانبين استعنت عليه بالجانب الآخر، فقبل قوله، وبنى الرصافة.

ولقد اتصلت الرصافة ببغداد، فيما بعد، وصارتا مدينة واحدة بلغ عدد سكانها آنذاك المليون نسمة، وصارت عاصمة العالم. وفى سنة ١٥٧هـ بنى

المنصور فى داخل بغداد الكرخ، وهو السوق الرئيسى لبغداد فى الجهة الغربية منها، وقسمه الى أسواق عدة، أفرد كل أصحاب حرفة سوقا خاصة بهم عرفت باسمهم وصار الكرخ من أعظم أسواق الدنيا وعمر بالسلع والبضائع المصنوعة بالداخل والمجلوبة من الخارج.

المنصور يخلع ابن أخيه عيسى بن موسى من ولاية العهد:

كان عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله العباس أميرا على الكوفة، وهو ابن أخى المنصور. وكان ابراهيم الامام قد جعله ولى عهده بعد المنصور وأخذ له البيعة على الناس « وحلفهم له. فلما كبر المهدى بن المنصور شغف المنصور به شغفا شديدا فأحب أن يبايع له بالخلافة. فخلع عيس بن موسى وأشهد عليه بالخلع، وبايع للمهدى وجعل عيس بن موسى بعده».

وقد اختلف أرباب السير فى كيفية خلعه، فقيل ان المنصور التمس منه ذلك وكان يكرمه ويجلسه على يمينه ويجلس المهدى على يساره، فلما فاوضه المنصور فى خلع نفسه قال: «يا أمير المؤنين كيف أصنع بالأيمان التى فى رقبتى وفى رقاب الناس بالعتاق والطلاق والحج والصدقة؟ ليس الى الخلع سبيل».

فتغير المنصور عليه وباعده بعض المباعدة وصار يأذن للمهدى قبله ويجلسه دون عيسى وصار يتعمد أذاه. فاذا جلس عيسى فى مجلس يطلب المنصور أن يُحفر الحائط الذى يليه وينثر التراب على رأسه فيقول لبنيه: تنحوا ثم يقوم هو فيصلى والتراب عليه ثم يؤذن له فيدخل على المنصور والتراب عليه لا ينفضه

فيقول له المنصور: يا عيسى ما يدخل أحد على بمثل ما تدخل به من الغبار والتراب أفكل هذا من الشارع؟ فيقول عيسى: أحسب ذلك يا أمير المؤمنين، ولا يشكو.

وقيل أنه سقاه بعض ما يتلفه فمرض مدة ثم أفاق من مرضه، فلم يزل هذا الأذى يتكرر عليه حتى خلع نفسه وبايع للمهدى.

وقيل بل اشتراها المنصور منه بمال مبلغه أحد عشر ألف درهم. وقيل بل أرسل اليه خالد بن برمك فأخذ معه جماعة من أهل المنصور نحو ثلاثين رجلا ومضى الى عيسى فخاطبه فى أن يخلع نفسه فأبى. فلما أبى قال خالد للجماعة: نشهد عليه أنه قد خلع نفسه ونحقن بذلك دمه ونسكن هذه الفتنة. فشهدوا عليه بذلك فقامت البينة به. وأنكر عيسى فلم يلتفت اليه وتم خلعه وبويع للمهدى.

شخصية المنصور:

كان المنصور عالما قبل توليه الخلافة، خالط العلماء وتجول فى البلاد يحضر المناظرات والحلقات الفكرية والدينية.

وكان على علم واف بعلم الحديث والأخبار المغازى ورغبته فيها هى التى جعلته يطلب الى محمد بن اسحق وضع السيرة النبوية التى وضعها لتثقيف ابنه المهدى وطلب من مالك بن أنس وضع الموطأ.

وكان ذكيا حذرا يقظا عميق الفكر.

لقب نفسه بالمنصور بعد ٩ سنوات من خلافته بعد ان انتصر فى حربه على النفس الزكية.

وفاة المنصور:

كان المنصور ممعودا (أى مريض بمعدته) كان يستحضر الاطباء من كل مكان لشفاء علته فكانوا يقررون له الدواء لكنه لم يكن يتبع نصائحهم فمات بمعدته. وافاه الاجل وهو فى الطريق الى مكة حاجا محرما فلم يبلغها وكان ذلك فى السادس من ذى الحجة سنة ١٥٨هـ.

وكتم الربيع بن يونس وزيره أمر موت المنصور لأجل أخذ البيعة لابنه المهدى (أبى عبد الله محمد). ويقال انه أجلسه وسنده وجعل على وجهه غلالة خفيفة يرى وجهه منها ولا يفهم أمره وأذن لوجوه بنى هاشم فلما دخلوا ووقفوا بين يديه وهم يحسبون انه حى تقدم الربيع اليه كأنه يشاوره ثم عاد اليهم وأبلغهم أن أمير المؤمنين يأمرهم تجديد البيعة للمهدى فبايعوه.

هذا وقد وزر للمنصور وزيره الفارسى أبو أيوب المورياني. لكن المنصور نكبه وقتله وقتل أقاربه وصادر أموالهم لدسيسة دسها أعداء المورياني ضده عند الخليفة اتهموه فيها بالخيانة.

ثم وزر له الربيع بن يونس (أبو الفضل).

فترة الإستقرار:

(عهد المهدى والهادى والرشيد) (١٥٨ - ١٩٣هـ)

خلافة محمد المهدى (١٥٨ - ١٦٩).

خلافة الهادى (١٦٩ - ١٧٠)

خلافة الرشيد (١٧٠ - ١٩٣)

خلافة المهدى:

هو أبو عبد الله محمد المهدى بن أبى جعفر المنصور، بويع له بالخلافة بمكة سنة ١٥٨هـ. وكان المهدى شهما فطنا كريما شديدا على أهل الالحاد والزندقة لا تأخذه فى اهلاكهم لومة لائم، وكانت أيامه شبيهة بأيام أبيه فى الحوادث والخوارج، وكان يجلس فى كل وقت لرد المظالم.

وفى أيامه ظهر المقنع بخراسان. وكان رجلاً قصيرا اعورا من أهل مرو وكان قد عمل وجها من ذهب ركبه على وجهه لئلا يرى وجهه وادعى الألوهية، وكان يقول بالتناسخ، وبايعه عدد من أتباعه وكانوا يسجدون ناحيته اينما كانوا من البلاد وكانوا يقولون فى الحرب «يا هاشم اعنا وكان» قد سمى نفسه هاشما.

فأرسل اليه المهدى جيشاً عظيماً فاعتصم منهم بقلعة هناك، وظل محاصرا الى أن يئس من النصر فأضرم نارا عظيمة واحرق جميع ما بالقلعة من دابة وثوب ومتاع ثم جمع نساءه وأولاده وقال لاصحابه: «من أحب منكم الارتفاع معى الى السماء فليلق نفسه فى هذه النار». ثم القى فيها نفسه وأولاده

ونساء خوفاً من أن يُظفر بجثثهم. فلما احترقوا فتحت ابواب القلعة فدخلها عسكر المهدى فوجدوها خالية وخاوية.

خلع عيسى بن موسى والبيعة لولديه موسى الهادى وهارون الرشيد:

قام المهدى بتجديد خلع عمه عيسى بن موسى وأخذ البيعة لولديه موسى الهادى وهارون الرشيد، وكان المهدى قدكرر معه ما فعله المنصور من قبل معه فطلب منه المهدى أن يخلع نفسه فأبى فأرهبه وأرغبه حتى أجاب وأشهد عليه بالخلع، وبايع لولديه الهادى والرشيد.

وقام المهدى بغزو الروم عدة غزوات وتغلب عليهم عند الحدود، بين الدولة العباسية وبيزنطة فى مناطق الثغور.

وتوفى المهدى سنة ١٦٩هـببلدة ماسندان من بلاد فارس بسبب سقوطه من على فرسه على ظهره أثناء قيامه بصيد الظباء فمات فى ساعته. وقيل أن بعض جواريه جعلت سما فى بعض المآكل لجارية أخرى فأكل المهدى منه وهو لا يعلم فمات.

خلافة موسى الهادى (١٦٩ - ١٧٠هـ):

بويع له بالخلافة بعد وفاة أبيه سنة ١٦٩هـ، وكان كريما غيورا شديد البطش جرىء القلب.

وفى عهده خرج الحسين بن على بن الحسن بن على بن أبى طالب ثائرا فى المدينة واجتمع اليه هناك عدد كبير، فأرسل اليه قائده محمد بن سليمان فى عسكر كبير التقوا بموضع يقال له فخ بين مكة والمدينة فاقتتلوا قتالا شديدا، ثم قتل الحسين وخمدت ثورته وهو يعرف عند الشيعة بشهيد فخ وكذلك ثار أخوه ابراهيم فى البصرة وأخمد ثورته وقتلته قوات الهادى عند منطقة تعرف باسم باخمرى وعرف باسم قتيل باخمرى..

موت الهادى:

ولم تطل مدة الهادى وتوفى سنة ١٧٠هـ أى بعد عام واحد من توليه الخلافة فيقال أن أمه الخيزران أمرت جواريها بقتله فجلسوا على وجهه حتى مات. وقيل ان سبب ذلك يرجع الى أنه سلبها سطوتها ونفوذها التى كانت لها فى عهد والده، وقيل أيضا أنه أرسل لها طعاما مسموما فلم تأكل منه ثم قتلته.

وقيل أيضا أن سبب القتل هو ان الهادى عزم على خلع أخيه هارون الرشيد من ولاية العهد والبيعة لابنه جعفر فخافت الخيزران أم الرشيد عليه وكانت تحبه ففعلت بالهادى ما فعلت.

خلافة هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ):

قال صاحب الفخرى عن الرشيد ما نصه:

«وكان الرشيد من أفاضل الخلفاء وعظمائهم وعلمائهم وكرمائهم، كان يحج سنة ويغزو سنة طوال مدة خلافته الا سنين قليلة. وكان يصلى كل يوم مائة ركعة وحج ماشيا ولم يحج خليفة ماشيا غيره، وكان اذا حج حج معه مائة من الفقهاء وأبناؤهم واذا لم يحج أحج ثلاثمائة رجل بالنفقة البالغة والكسوة الظاهرة

وفى عهده خرج يحى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب ثائرا وهو أخ للنفس الزكية وأخوه ابراهيم قتيل باخمرى، وكان قد هرب الى بلاد الديلم بعد فشل ثورة أخويه والتف حوله هنالك الناس واعتقدوا فى حقه وامامته وبايعوه.

فأرسل الرشيد اليه الفضل بن يحيى البرمكى لقتاله، ولكن الفضل نجح فى كسبه الى صفه والصلح على أن يأخذ له الامان من الرشيد. فأجابه الرشيد الى ذلك ولكن الرشيد قبض عليه حين وصل اليه بغداد وحبسه ثم قتله فى محبسه.

وكانت دولة الرشيد من أحسن الدول وأكثرها خيرا وأوسعها رقعة، ولم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقضاة والكتاب والادباء ما اجتمع على باب الرشيد.

توفى الرشيد سنة ١٩٣هـ بمدينة طوس بخراسان حين خرج للقضاء على ثورة رافع بن الليث بن نصر بن سيار، وكان رافع قد خرج وخلع الطاعة وتغلب على سمرقند وملكها وقوت شوكته هناك فخرج الرشيد بنفسه اليه ولكنه مات بطوس وملك بعده ابنه الأمين محمد.

وفى عهده أيضا خرج عليه الثائر العلوى ادريس بن الحسن ونجح فى الوصول الى المغرب واقامته هنالك أول دولة علوية شيعية عرفت بدولة الادارسة فى المغرب الاقصى.

فترة الازدهار في الدولة العباسية ١٩٣ - ٢٣٢هـ
(عصر الأمين والمأمون والمعتصم والواثق)

خلافة الأمين (محمد)١٩٣ - ١٩٨هـ:

أم هذا الخليفة هي زبيدة بنت جعفر المنصور (أم جعفر)، وليس فى خلفاء بنى العباس من أمه وأبوه هاشميان سواه، وكان كثير اللهو واللعب، منقطعا الى ذلك، مشتغلا به عن تدبير أمر مملكته.

وكان الرشيد قد بايع للأمين بولاية العهد، وللمأمون من بعده، وكتب الكتب بذلك وأشهد فيها الشهود، وأرسل نسخها الى الأمصار،وعلقت من تلك النسخ نسخة على الكعبة. فلما مات الرشيد بطوس، كان المأمون فى خراسان ومعه جماعة من أكابر القواد ووزيره الفضل بن سهل، وكان الأمين ببغداد، وكان الفضل بن الربيع، وزير الرشيد، مع الرشيد بطوس، فلما مات الرشيد توجه الفضل بن الربيع الى بغداد وبايع الأمين، فاستوزره الأمين، ثم اشتغل باللهو واللعب.

ونشأت العداوة بين الأخوين الأمين والمأمون، ذلك لأن الوزير الفضل بن الربيع حسن للأمين خلع أخيه المأمون من ولاية العهد وجعلها لإبنه موسى. فركن الأمين لنصيحة وزيره، وقام بخلع أخيه والبيعة لابنه موسى الذى سماه: بالناطق بالحق. وبسبب ذلك كانت الفتنة ببغداد بين الأمين والمأمون وانتهت بمقتل الأمين وتولى المأمون الخلافة. وقد حاول الأمين أن يستدرج أخاه بالقدوم من فارس الى

بغداد، لكن لم ينخدع وكتب له يعتذر عن الحضور. وترددت المكاتبات والمراسلات بينهما، حتى رق المأمون وعزم على الاجابة بخلع نفسه ومبايعة ابن أخيه موسى، لكن وزيره الفضل بن سهل شجعه على الامتناع وضمن له الخلافة وتأييد الفرس، فامتنع المأمون وظل فى فارس. ونهض الفضل بن سهل بأمر المأمون، واستمال له أهل خراسان.

واشتدت العداوةبين الأخوين، وقطع المأمون الخطبة عن أخيه بخراسان، وكان بقدر ما عند المأمون من اليقظة والضبط ما عند الأمين من الاهمال والتفريط والغفلة. فأرسل الأمين جيشا كبيرا لمحاربة أخيه فى خراسان، قوامه خمسين الف رجل بقيادة على بن عيسى بن ماهان، فالتقى بقوات المأمون بقيادة طاهر بن الحسين عند الرى، وكان عدد جيش طاهر أربعة آلاف فارس فقط، استطاعوا احراز النصرعلى قوات الأمين، ، وقتل على بن عيسى فى المعركة وارسال رأسه الى المأمون

ومازال الشر والخلاف يتزايد بين الأخوين حتى أرسل المأمون قائده طاهر بن الحسين، يساعده القائد هرثمة بن أعين بعسكر كثيف لمحاصرة بغداد ومحاربة الأمين. فحاصروا بغداد مدة وقاتلا بعساكرهما قتالا شديدا، وجرت بين الفريقين وقائع كثيرة كان فى آخرها الغلبة لعسكر المأمون ، وقتل الأمين وارسال رأسه الى أخيه المأمون بخراسان سنة ١٩٨هـ.

خلافة المأمون (عبد الله) ١٩٨ - ٢١٨هـ :

بويع للمأمون بالبيعة العامة للخلافة سنة ١٩٨هـ، وقد كان المأمون من أفاضل خلفاء العباسيين وعلمائهم وحكمائهم وحلمائهم، وكان فطنا قويا كريما، وكان مولعا بالعلم ومجالسة العلماء حتى أن من أرخ لسيرته قال عنه أنه لو لم يكن خليفة لكان عالما، وذلك لحبه للعلم ولمجالس العلم ولإكرامه العلماء وتقريبهم اليه أيام دولته. ولقد اهتم المأمون بنقل علوم اليونان والفرس والسريان الى العربية، فنشطت حركة الترجمة فى عهده، وشهدت العلوم العملية، كما شهدت العلوم الدينية ازدهارا كبيرا على يديه.

كذلك مال المأمون الى آراء جماعة المعتزلة، الذين ازدهر حالهم أيامه، وقال قولهم بخلق القرآن وألزم الناس أن يقولوا بذلك، ونوظر فيها الامام أحمد إبن حنبل وغيره. وقبل وفاته، أوصى المأمون أخاه المعتصم الالتزام بهذا الأمر، فلما ولى المعتصم قال برأيه وضرب الامام أحمد بن حنبل وسجنه على مخالفته له فى الرأى والقول بأن القرآن، كلام الله، قديم أزلى.

كذلك حاول المأمون نقل الدولة من بنى العباس الى العلويين، بايحاء من وزيره الفضل بن سهل، لكن ذلك لم يتم، حين أدرك أن الخلافة سوف تنزع منه وتحول الى عمه ابراهيم بن المهدى فعدل عن خطته وقام بقتل الامام على الرضا ووزيره الفضل بن سهل.

وفى أيام المأمون، ثار عليه العلويون بزعامة الامام محمد بن جعفر

الصادق، فقضى عليهم، وعفى عن الامام محمد، بعد القبض عليه، وكان المأمون حليما يحب العفو، وقد ورد عنه قوله: «لو عرف الناس حبى للعفو لتقربوا الى بالذنوب».

واستتب بعد ذلك الأمر للمأمون، وقام بأعباء الخلافة وتدبيرها خير قيام، وازدهرت الحضارة الاسلامية فى عهده. وفى سنة ٢١٨هـ، خرج المأمون الى ثغر طرطوس، لمقاتلة الروم، وهناك أدركته الوفاة، بعد حكم زاهر دام عشرين عاما.

وكان قد وزر للمأمون اثنان من بنى سهل، هما: الفضل بن سهل، والحسن بن سهل، وهما من الفرس وكانا من خير وزرائه، وقد سمى الفضل بن سهل بذى الرياستين، لجمعه بين السيف والقلم. وقد استوزر المأمون الحسن بن سهل بعد قتل أخيه الفضل سنة ٢٠٢هـ، وتزوج من ابنته بوران، وكان عرس المأمون على بوران من أعظم اعراس التاريخ ولا يضاهيه الا عرس قطر الندى (أسماء) ابنة الأمير خمارويه بن أحمد بن طولون، حاكم مصر، على الخليفة العباسى المعتضد بالله سنة ٢٨٢هـ. وقد توفى الحسن بن سهل سنة ٢٣٦هـ، فى أيام خلافة المتوكل بن المعتصم.

خلافة المعتصم بالله، (محمد، ابو اسحق)، ٢١٨ - ٢٢٧هـ:

بويع المعتصم بالخلافة يوم وفاة أخيه المأمون، وكان المعتصم سديد الرأى، قوى البنية شجاعا، وقد سمى المثمن لأنه: هو الثامن من ولد العباس، والثامن من خلفائهم، وتولى الخلافة وعمره ثمان وعشرون سنة، وكانت خلافته ثمان سنين

وثمانية أشهر، وتوفى وعمره ثمان وأربعون سنة، وولد فى شعبان، وهو الشهر الثامن، وأنجب ثمانية ذكور وثمان بنات، وغزا ثمان غزوات، وخلف وراءه ثمانية مليون درهم.

وكانت أيام المعتصم أيام فتوح وحروب، وهو الذى فتح عمورية سنة ٢٢٣هـ، وكانت بيد الروم، وقام بهدمها وتخريبها نكاية فى ملك الروم وانتقاما مما عمله فى مدينة زبطرة وأهلها المسلمين.

وقد قام المعتصم ببناء مدينة سرمن رأى (سامرا)، واتخذها عاصمة لدولته بدلا من بغداد، وقد قيل فى سبب بنائها أن المعتصم خاف من عسكر بغداد لعدم ثقته بهم، فقال لخاصته: «اطلبوا لى موضعا اخرج اليه وابنى فيه مدينة وأعسكر به، فان رابنى من عساكر بغداد حادث كنت بنجوة، وكنت قادرا على أن آتيهم فى البر والماء، فوقع اختياره على سامرا، فبناها وخرج اليها».

وقيل أيضاً فى سبب البناء: «أن المعتصم اسكثر من المماليك، فضاقت بهم بغداد وتأذى بهم الناس وزاحموهم فى دورهم وتعرضوا للنساء، فكان فى كل يوم ربما قتل منهم جماعة، فركب المعتصم يوما فلقيه رجل شيخ، فقال للمعتصم: يا أبا اسحاق! فأراد الجند ضربه، فمنعهم المعتصم وقال له: مالك يا شيخ؟ فقال: لا جزاك الله خيرا عن الجوار! جاورتنا مدة فرأيناك شر جار، جئتنا بهؤلاء العلوج من غلمانك الاتراك فأسكنتهم بيننا فأيتمت بهم صبياننا وارملت نساءنا، والله لنقاتلنك بسهام السحر، يعنى الدعاء. والمعتصم يسمع ذلك، فدخل منزله ولم ير

راكبا الا فى مثل ذلك اليوم، فركب وصلى بالناس العيد، وسار الى موضع سامرا فبناها، وكان ذلك سنة احدى وعشرين ومائتين».

ولقد وقع المعتصم على مكان سامرا، قبالة بغداد شرق نهر دجلة، يبعد عن بغداد بستين ميلا من الشمال، فخرج اليه وبنى مدينتة هناك، التى انتقل اليها بجنده بعد أن أتم بناءها. وتوفى المعتصم، لمرض أصابه، سنة ٢٢٧هـ، وتولى الخلافة بعده ابنه هارون الواثق.

خلافة الواثق بالله (هارون)، ٢٢٧ - ٢٣٢هـ :

وكان الواثق من أفاضل خلفاء العباسيين، وكان فطنا فصيحاً شاعراً، وكان يتشبه بالمأمون فى حركاته وسكناته. ولما ولى الخلافة أحسن الى بنى عمه العلويين وبرهم، وأفرج عن علماء السنة الذين لم يوافقوا جماعة المعتزلة فى أقوالهم ومنهم الامام أحمد بن حنبل. هذا ولم يقع فى أيامه من الحوادث المشهورة ما يؤثر، وتوفى سنة ٢٣٢هـ، وانقضت أيامه فى هدوء، وخلفه من بعده أخوه جعفر المتوكل.

وبنهاية عصر الواثق، ينتهى العصر العباسى الأول، وهو عهد الخلفاء الأقوياء، ليبدأ بعد ذلك العصر العباسى الثانى، وهو العصر الذى ضعف فيه نفوذ الخلفاء واستبد بهم فيه وبالنفوذ قواد الاتراك.

ورث العباسيون من مشاكل التاريخ الفارسى القديم خيره وشره، وورثوا نفس التيارات القديمة التى كانت مشكلة الساسانيين وديانتهم المجوسية (الزرادشتية)، وهى التيارات المانوية والمزدكية. فقد كنت تعاليم المذهبين المانوى والمزدكى، والتى استجابت لها الطبقتين الدنيا والوسطى أيام حكم الساسانيين، هى نفس التعاليم التى ظهرت فى العصر العباسى الأول وعملت على تقويض وهدم الدين الاسلامى. ولو حللنا الحركات الهدامة الفارسية التى ظهرت فى العصر العباسى الأول نجدها تتخذ تعاليمها من المانوية والمزدكية. وقد كانت هذه الحركات سافرة أول الأمر، وقد أدى سفورها الى سرعة فشلها والقضاء عليها، ثم بعد ذلك، تتخذ نزعات توفيقية بنشر تعاليم هى مزيج من المزدكية وتعاليم الشيعة المتطرفة، فظهرت فى شكل حركات دينية هدامة ظلت مشكلة العصر العباسى الأول حتى وفاة المعتصم سنة ٢٢٧هـ.

ومن المعروف أن جمهور الفرس قبل الاسلام كانوا مجوسا على دين زرادشت، الذى ظهر فى ديارهم حوالى منتصف القرن السابع قبل الميلاد، وما وضعه لهم من تعاليم حواها كتابه «الأفستا». وفى كتابه هذا زعم زرادشت أن للعالم الهين اله للنور هو «أهورا مزدا» وهو خالق لكل خير واله للظلمة «أهرمين» وهو خالق لكل شر وأن وراء الحياة الدنيا حياة أخرى يكون فيها حساب الشخص على أعماله فاما النعيم واما الجحيم، وأن اله الخير واله الشر

فى حرب دائمة ستنتهى بانتصار اله الخير، وان النار مقدسة طاهرة على أتباع أهورا مزدا أن يوقدوها قوية متأججة لتساعد اله الخير فى حربه ضد اله الشر.

وقد ظهر عند الفرس فى القرن الثالث الميلادى داع يسمى مانى، قام بمزج تعاليم الزرادشيته مع البوذية والمسيحية وخرج بتعاليم جديدة هى المانوية التى أخذت من المجوسية عقيدة الثنيوية (اله النور والظلمة) واستباحة الزواج بالبنات والاخوات، وأخذت من البوذية عقيدة التناسخ للأرواح وتحريم ذبح الحيوان والطير وأخذت من المسيحية الزهد والنسك. وقد فرض مانى على أتباعه صلوات وأدعية كثيرة.

وفى أواخر القرن الخامس الميلادى ظهر فى بلاد فارس داع جديد هو مزدك، وكان ثنيويا يؤمن بالهى النور والظلمة وبتقديس النار، وقد مضى يدعو دعوة صارخة الى العكوف على اللذات والشهوات والاستغراق فيها. وقد أحل مزدك النساء وأباح الاموال وجعلهما شركة للناس جميعا ونادى بشيوعية المال والنساء. وقد اعتنق هذا المذهب إعداد كبيرة من الفرس، وكان لهذه الدعوة، كما كان لاتباع المانوية، أتباع كثيرون.

وقد أعجب أصحاب الافكار المتطرفة من الشيعة بأفكار مزدك ومانى وحاولوا خلطها فأفكارهم المماثلة فظهرت نزعات هؤلاء المضللين الهدامة فى مجتمع الدولة العباسية فى العصر العباسى الأول.

وقد تمثلت هذه النزعات الهدامة فى حركات: الراوندية، والمقنعية،

والزندقة، والخرمية، وكلها حركات دعت الى التحلل من الدين والانغماس فى اللهو والفساد. ولقد لاقت هذه الدعوات بعض القبول لدى العامة والطبقة المترفة، وقد ساعد على انتشارها بينهم حالة الرخاء الاقتصادى والاسترخاء الاجتماعى التى عمت الدولة الاسلامية فى ذلك العصر العباسى الأول.

وقد بدأت هذه الحركات، أول ما بدأت، فى رفع شعار الثأر لمقتل أبى مسلم الخراسانى من الدولة العباسية وخلفائها. وكان مصرع أبى مسلم، على يد المنصور، من أكبر الصدمات التى تلقتها الجماعات الفارسية، وكان قتل المنصور له، برغم الأمان الذى منحه له، قد أثار عامة الفرس ودفعهم الى الثأر والانتقام من العباسيين قاتليه، وعملوا، تحت هذا الشعار، على تقويض دولة بنى العباس وهدم الدين الاسلامى، توطئة لاستعادة استقلال الفرس القديم ومجد دولتهم الساسانية، فقاموا بالثورة ضد الدولة.

وكانت أول ثورات الفرس، تلك التى قام بها رجل من اتباع أبى مسلم يسمى سنباذ فى منطقة ما وراء النهر.

وكان سنباذ رجلا مجوسيا، من بعض قرى نيسابور، وكان من قواد أبى مسلم، فلما قتل أبو مسلم أعلن سنباذ الثورة ضد العباسيين فى منطقة الجبال الواقعة جنوبى بحر قزوين (طبرستان). ونجح سنباذ فى ضم الكثير من الاتباع له وقام بضم كثير من بلاد خراسان اليه. ولقد أخبر سنباذ أتباعه بأن أبا مسلم لم يمت، وأنه تلا اسم الله قبل أن يقتل فتحول الى حمامة بيضاء وطار الى السماء

وسكنها، وقد قال سنباذ بنبوة أبى مسلم، ثم قال بألوهيته.

ولما بلغ المنصور خبر سنباذ، أرسل اليه جيشا تعداده عشرة آلاف مقاتل استطاع أن يوقع الهزيمة به فى مكان بين همذان والرى، وقد قتل من أتباع سنباذ حوالى ستون ألفا عند طبرستان، وقتل هو معهم.

وكان سنباذ قد أخذ معه عدد من النساء المسلمات اللاتى وقعن سبايا فى يد رجاله ووضعهن فوق جمال وأمر باخراجهن أمام عسكره، فأخرجت النساء وهن حاسرات فوق الجمال وهن يصحن صيحة واحدة: «وامحمداه»، فنفرت الجمال وكرت راجعة على عسكر سنباذ ففرقتهم فتبعهم عسكر المنصور ودخلوا خلف الجمال فوضعوا فيهم السيوف وأبادوا منهم هذا العدد الكبير.

حركة استاذ سيس:

كان أستاذ سيس قائدا من قواد الدولة على الجيوش الفارسية، وعقب مقتل أبى مسلم، انتفض لمقتله وثار فى خراسان سنة ١٥٠هـ، واستولى على مدن هراة وسجستان ومرو عاصمة خراسان، واجتمع له من الأنصار نحو ٣٠٠ ألف رجل. ولقد تصدى المنصور لهذه الثورة واختار ابنه المهدى وأعرق قواده خازم بن خزيمة التميمى للقضاء عليها على رأس جيش كبير خرج من بغداد متجها الى خراسان. وبالقرب من مدينةنيسابور وقعت معركة دامية قتل فيها سبعون الفا من رجال استاذ سيس وأسر منهم نحو أربعة عشر الفا. وعقب الهزيمة، هرب استاذ سيس الى منطقة الجبال مع عدد من جنده، فلحق بهم خازم

وحاصرهم مدة، حتى استلسم أستاذ سيس وقبض عليه، وأرسل مصفدا فى الاغلال الى بغداد حيث قتل هناك وصلب على شاطىء نهر دجلة. وقد عفى المنصور عن ثلاثين الف من رجال استاذ سيس استسلموا وأعلنوا توبتهم وقبل الخليفة توبتهم.

ولم تنته ثورة الفرس وحركاتهم الهدامة بموت استاذ سيس وفشل ثورته ولكن الحركات الهدامة تتابعت بعد ذلك فى بلاد فارس وظهرت خطورتها الكبرى على المجتمع الاسلامى، فظهرت حركة: الراوندية، ثم المقنعية، ثم الزنادقة. ثم الخرمية.

١ - الراوندية:

تنسب الراوندية الى قرية راوند التى ظهرت فيها وهى تقع قرب نيسابور، وكانت هذه الحركة أخطر الحركات الهدامة التى ظهرت فى العصر العباسى الأول، لأن أصحابها نادوا بتآليه أبى جعفر المنصور لا حبا فى ارضائه واعلاء شأنه وزيادة شرفه، اذ كانوا فى الواقع أشد اتباع أبى مسلم خصومة للمنصور وعداوة له، وانما كان هدفهم المستتر وراء هذه الدعوة هدم أبى جعفر المنصور فى نظر جمهور المسلمين واثارتهم ضده وهدم الدين الاسلامى عن طريق ادخال هذه الافكار الوثنية الهدامة.

ونشأت هذه الحركة فى خراسان، عقب مقتل أبى مسلم، ودعى اليها رجل يقال له الأبلق وزعم أن الروح التى كانت فى عيسى بن مريم صارت فى على بن

أبى طالب ثم فى الأئمة واحدا بعد الآخر الى ابراهيم بن محمد الامام العباسى، ومنه انتقلت فى نسله الى المنصور وأنهم جميعهم آلهة.

ولقد قالت هذه الجماعة بأن أبا جعفر هو الامام القادر الاله وأن نبيه هو أبو مسلم الذى حلت به روح آدم. وكانت هذه الفرقة تلتف حول المنصور وتقول له «أنت أنت» يعنون «أنت الله»، وكانوا يطوفون حول قصره ويقولون «هذا قصر ربنا»، وكانوا يصعدون الى قصر المنصور «الخضراء» ويلقون انفسهم منه كأنهم يطيرون فتضايق المنصور منهم وحبس مائتين من زعمائهم. فثار الباقون وأخرجوا أصحابهم من السجن وهجموا على قصر المنصور يريدون قتله، وشاء الا يكون آنذاك حرس كافى عند قصر المنصور يحميه ويزود عنه، فكادوا يقتلونه لولا أن أنقذه معن بن زائدة الشيبانى. أحد قواد الأمويين، الذى كان مختفيا حتى ذلك الوقت خوفاً من انتقام العباسيين. وكانت لهذه اليد البيضاء من معن أحسن الأثر فى نفس الخليفة الذى عفى عنه وأجزل له العطاء وقربه اليه وولاه اليمن.

وبرغم أن المنصور قتل عددا كبيرا من الراوندية الا أنه مع ذلك لم يستطع أن يقض تماما على دعوتهم وأفكارهم الهدامة التى انتقلت وظهرت فى حركات أخرى قامت بها شخصيات طموحة منهم استغلتها وتسترت ورائها.

٢ - المقنعية (١٥٩ - ١٦٣هـ) :

وهم اتباع «المقنع الخراسانى» واسمه هاشم بن حكيم، وقد ظهرت فى

خراسان فى منطقة مرو فى عهد خلافة المهدى بن المنصور (١٥٨ - ١٦٩هـ) واتخذ مدينة مرو مسقط رأسه مركزا لنشاطه وانتشر نفوذه بين سكان سمرقند وبخارى. وكان المقنع رجلا قبيح المنظر، أعورا اصلعاً قصيرا عمل لنفسه وجها من ذهب وركبه على وجهه حتى لا يرى وجهه القبيح. ولقد ادعى المقنع الالوهية بقوله: «ان الله خلق آدم فتحول فى صورته ثم فى صورة نوح ثم فى صورة ابراهيم ثم فى صورة الانبياء واحدا بعد الآخر ثم فى صورة محمد. ثم تحول بعده فى صورة على بن أبى طالب ثم انتقل فى صورة أولاده حتى حصل فى صورة أبى مسلم ثم زعم انه انتقل من أبى مسلم اليه. وقال: انى اتنقل فى الصور لأن عبادى لا يطيقون رؤيتى فى صورتى التى أنا عليها ومن رآنى احترق بنورى. وأسقط الصلاة والزكاة والصوم والحج واباح للناس الأموال والنساء. وأمر اتباعه بعبادته والسجود الى ناحيته أينما كانوا فى البلاد، وسمى المقنع نفسه هاشماً، فكان اتباعه يقولون فى الحرب: يا هاشم اعنا، وكان قد اجتمع اليه خلق كثير.

وقد قال اتباع المقنعية بتناسخ الارواح، واعتقدت طائفة منهم ان أبا مسلم صار الها بحلول روح الله فيه وانه حى لم يمت وهم ينتظرون رجعته. وقالوا ان المنصور لم يقتل أبا مسلم وانما الذى قتله المنصور كان شيطانا تصور للناس فى صورة أبى مسلم.

ونجحت دعوة المقنع فى خراسان اذ كان مقتل أبى مسلم لايزال ماثلا فى

الاذهان الخراسانية، ولذلك اهتم المهدى بمحاربته والقضاء على دعوته. وكان أمر المقنع قد قوى وكثر واعتصم بقلعة حصينة من قلاع خراسان، واستمر يناوئ الخلافة ثلاث عشرة عاما. وفى آخر الأمر أرسل اليه الخليفة المهدى جيشاً قوامه سبعين الف مقاتل، ولما شعر المقنع بقرب الهزيمة وهرب عنه أكثر اتباعه وطلبوا الامان من الخليفة لم يبق معه الا نفر يسير وهو فى القلعة محاصر. فأضرم نارا عظيمة وأحرق جميع ما بالقلعة من دواب وأثواب ومتاع. ثم جمع نساءه واولاده وقال لأصحابه: من أحب منكم الارتفاع معى الى السماء فليلق نفسه فى هذه النار ثم القى أولاده ونساءه فيها ثم القى نفسه خوفا من أن يظفر بجثته أو جثث احدى حريمه أو أولاده، وكان ذلك سنة ١٦٣هـ، فلما احترقوا فتحت أبواب القلعة فدخلها عسكر المهدى فوجدوها خاوية على عروشها.

ورغم موت المقنع الخراسانى الا أن أفكاره ظلت قائمة بين بقايا أتباعه الذين هربوا الى الجبال فى منطقة خراسان، وهم يؤمنون ببقاء المقنع حيا وارتفاعه الى السماء وبقدرته على التشكل فى كل زمان ومكان بصورة خاصة يظهر فيها، وهم ينتظرون عودته.

٣ - حركة الزندقة:

الزندقة كلمة ليست عربية، وهى تعريب لمصطلح كان يطلقه الفرس على صنيع من يؤلون كتاب الافستا، كتاب داعيتهم زرادشت تأويلا ينحرف عن ظاهر نصوصه. ومن أجل ذلك نعتوا به مانى وأتباعه. وقد أخذ مدلول الكلمة يتسع

فى العصر العباسى الأول ليشمل كل ما استظهر نحلة من نحل المجوس، واتسعت أكثر من ذلك فشملت كل الحاد بالدين الحنيف وكل مجاهرة بالفسق والاثم، وصارت تطلق على كل من اعتنق أفكارا تحررية لا تقيم وزنا للقيم الدينية وتدعو الى الاسراف فى التمتع بالحياة والانغماس فى ملذاتها.

ولقد استشرت الزندقة فى عهد الخليفة المهدى، ويرجع سر انتشار دعوى الزنادقة فى ذلك العهد الى النشاط التحررى الذى حدث فى المجتمع الاسلامى على يد الفرس اجتماعيا، وذلك عن طريق تقليد الفرس فى مآكلهم ومشاربهم وملابسهم ومجالسهم ولهوهم، ثم تطور الأمر الى اسقاط الفرائض والخروج عن تعاليم الاسلام. ولقد ازدادت دعوى الزنادقة انتشارا نتيجة لحالة الرخاء الاقتصادى والأمن الاجتماعى الذى ساد عصر المهدى، بعد أن ورث عن والده المنصور دولة موطدة الأكان وعامرة خزائنها بالأموال.

وقد جند المهدى نفسه لمحاربة الزنادقة فتعقبهم بنفسه، وأنشأ ديوانا لمطاردتهم اطلق عليه اسم «ديوان الزنادقة»، وعهد به الى رجل يُطلق عليه «صاحب الزنادقة»، وكانت مهمته القضاء عليهم ومحاربة تعاليمهم الهدامة. وصار المهدى يقتل على الظنة كل من رمى عنده بالزندقة، كذلك الف المهدى هيئة علمية من الفقهاء والعلماء لمناظرة الزنادقة ومحاربة أفكارهم بالحجة والبرهان ووضع الكتب للرد عليهم.

ولما ولى الهادى الخلافة سنة ١٦٩هـ اشتد على الزنادقة وقتل اعدادا كبيرة

منهم، كذلك فعل الرشيد فى خلافته وقام بتعيين رجل عرف بصاحب الزنادقة، كان يمتحن كل من يتهم بالزندقة ويعاقب كل من تثبت التهمة عليه بكل أنواع العقاب بما فى ذلك القتل والحرق.

وقد قتل أصحاب أسماء شهيرة بسبب اتهامهم بالزندقة، فلقد قتل المنصور ابن المقفع حين اتهم بالزندقة. وقتل المهدى صالح بن عبد القدوس، الذى كان يعتنق المذهب المانوى ويحاضر ويناظر فيه، وقام المهدى بصلب جثته على جسر دجلة ببغداد تنكيلا به وعظة للناس. كذلك قتل المهدى الشاعر بشار بن برد، وبلغ من تحمسه لقتله أن خرج بنفسه الى البصرة ليشهد مقتله. وقتل والى البصرة باذن من الخليفة المهدى الشاعر حماد عجرد وعبد الكريم بن أبى العوجاء، الذى كان يدس الاحاديث على رسول الله ويعترف بذلك. وقتل الهادى داود بن على ابن عمه لاتهامه بالزندقة، كذلك قتل يعقوب بن الفضل، كما قتل الرشيد يزيد بن الفيض ويونس بن أبى فروة لاتهامهما بالزندقة، وقتل المعتصم قائده الأفشين حيث ثبتت عليه الزندقة، وقد الفت محكمة لمحاكمته وكان من أعضائها محمد بن عبد الملك الزيات واحمد بن أبى دؤاد.

وقد نشأ علم الكلام آنذاك للرد أصلا على الزنادقة، وكان واصل بن عطاء، زعيم المعتزلة، أول من تصدى للرد عليهم، وقد كان له مناظرات مع الشاعر بشار بن برد، الذى كان يعتنق أفكار الزنادقة. كذلك كان للعالم المسلم أبى هذيل بن العلاف، رئيس الاعتزال فى عصره (توفى ٢٣٥هـ فى خلافة

المتوكل) وأقوى الشخصيات العلمية فى مدرسة البصرة، مناظرات طويلة مع الزنديق صالح بن عبد القدوس، وكان لمناظراته أثر كبير فى تحويل عدد كبير من المجوسية الى الاسلام ونبذ أفكار الزنادقة. وقد بذل رجال السنة وعلماؤها جهدا كبيرا فى محاربة الزندقة والزنادقة، وظهر جهد خلفاء العباسيين الواضح فى القضاء على الزندقة، هذا الجهد الذى لولاه لكان لهذه الحركة الخطيرة تأثيرا سيئا هداما على الاسلام وعلى الدولة الاسلامية آنذاك.

٤ - الخُرمية (البابكية) :

جاء اسم الخرمية، فى رأى بعض الباحثين، من خرم اسم احدى بلاد ميديا (فارس القديمة)، أو من كلمة خرم الفارسية بمعنى سعيد أو منتشى. لكن نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقى، يرى فى كتابه سياسة نامة أن خُرم هو اسم زوجة مزدك، صاحب الديانة المزدكية الفارسية القديمة التى انتشرت ايام الملك الفارسى قباذ الأول والد الملك كسرى أنو شروان. وأنها هربت بعد مقتل زوجها مع اثنين من أتباعه، من المدائن الى الرى واستمرت تبشر بمبادىء زوجها. ويقول المؤرخون أن المزدكية هى الخرمية الأولى، وأن الخرمية الثانية هى الخرمية التى نادى بها بابك الخرمى سنة ٢٠١هـ. فى عهد خلافة المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ) فى المنطقة الجبلية الواقعة بين أرمينية واذربيجان وشمال بلاد فارس. ولقد ادعى بابك الالوهية بقوله انه من نسل أبى مسلم الخراسانى الذى انتقلت اليه الالوهية بالتناسخ من الأئمة العلويين، ،أنه ثار فى وجه العباسيين لينتقم

لمقتل أبى مسلم وأن حركته استمرار لحركة المقنع الخراسانى والراوندية.

وتلخصت مبادىء الخرمية فى:

تحويل الملك من العرب المسلمين الى الفرس والمجوس، تأليه أبى مسلم الخراسانى والايمان بمبدأ الرجعة والتناسخ، اباحة النساء والملذات وشرب الخمر، ورفض الفرائض الدينية التى فرضها الاسلام على المسلمين.

وقد عكر بابك صفو الدولة العباسية فى عهد خلافة المأمون وتفاقم أمره وازداد خطره فى خلافة المعتصم. وقد نجح بابك فى الاستيلاء على منطقة أذربيجان وفرض نفوذه فيها، وقد حدث تحالف بينه وبين ملك أرمينية المسيحى وامبراطور الدولة البيزنطية وارسلوا اليه قوات من عندهم تساعده على حرب قوات الخليفة. وترجع مساعدة الأرمن وامبراطور الدولة البيزنطية لبابك الخرمى الى رغبتهم فى اشغال العباسيين بمحاربة بابك عن محاربتهم هم. ولذلك استفحل أمر بابك وأوقع الهزيمة بالجيوش التى وجهها له كل من المأمون والمعتصم، ولم ينجح المعتصم فى القضاء عليه الا سنة ٢٢١هـ بعد أن جرد ضده حملات كثيرة، وكان آخرها بقيادة قائده التركى الشجاع الأفشين، الذى نجح فى هزيمة بابك وقتله بعد معركة شرسة فى منطقة أذربيجان.

وأيما كان الامر فان الدولة العباسية فى عصرها الاول، برغم قضائها عسكريا على هذه الحركات الفارسية الهدامة، الا أنها لم تنجح فى استئصال هذه التعاليم لاستقرار جذورها فى نفوس بعض الفرس الذين لم يستقر الاسلام

فى قلوبهم بعد، ولما لهذه التعاليم من صلة بديانتهم القديمة، ولما لها من صلة بطموح الفرس فى التحرر من السيادة العربية وتحقيق الاستقلال القديم واستعادة امجاد آل ساسان.

حركة الشعوبية:

وفى العصر العباسى الأول ظهرت نزعتان واضحتان، احداهما تقول «بأن العرب ليسوا أفضل من غيرهم من الشعوب والناس كلهم من طينة واحدة ومن سلالة رجل واحد»، وكان أصحاب هذه النزعة يسمون بأهل التسوية، ويمثلهم أكثر المتحضرين من العرب والعجم، وكانوا يرفعون شعار المساواة وينادون بتطبيقه بين الشعوب المملوكة، خاصة وأنه نفس الشعار الذى رفعه دعاة العباسيين قبل وصولهم الى الحكم.

والنزعة الثانية كانت تميل الى التقليل من شأن العرب، ورفع غيرهم عليهم من الأمم، وهى التى عرفت بالشعوبية، وقال أصحابها بالشعوب. ويرى هؤلاء الشعوبيون أنه ليس هنالك ما يميز العرب اذا ما قورنوا بشعوب اليونان والرومان أو الهنود أو الفرس، واذا فخروا بالاسلام، فليس الاسلام دين العرب وحدهم، بل هو دين الناس كافة. وقد اعتنق الشعوبية ونادى بها أولئك الذين لم يدخلوا الاسلام وظلوا على دينهم القديم أو الذين أسلموا لكن الاسلام لم يستقر فى قلوبهم بعد، أو الذين غلبت عليهم النزعة الوطنية. وقد كان هؤلاء الشعوبيون اخلاطا مختلفة منهم الفرس والنبط والقبط والبربر.وقد الف بعض كتاب

الشعوبيين كتبا تبرز مناقبهم ، منها: كتاب سعيد بن حميد البختكان الذى جاء تحت عنون: «انتصاف العجم من العرب»، وكتابه الثانى: «فضل العجم على العرب وافتخارها». والف آخرون كتبا تبرز مثالب العرب مثل كتاب: المثالب الصغير والمثالب الكبير للهيثم بن عدى، وكتاب: الميدان فى المثالب لعلان الشعوبى، وكتاب: لصوص العرب، وأدعياء العرب، وفضائل الفرس لأبى عبيدة معمر بن المثنى.

وقد عمد هؤلاء الشعوبيون الى وضع قصص كثيرة فى الأدب العربى تؤيد حججهم من تفضيل العجم على العرب، ولونوا تاريخ الفرس القديم، وبخاصة العصر الساسانى، باللون الزاهى الجميل، ونسبوا الى ملوكهم الحكم الرائعة والبطولة والجرأة والشجاعة الفائقة.

وقد انبرى كتاب العرب بأقلامهم لهؤلاء الشعوبيين يردون على مزاعمهم ويدحضون أباطيلهم فى مساجلات طريفة حفظها لنا أدب القرنين الثانى والثالث الهجريين. ودفعت تلك الحركة العرب الى النظر فى تراثهم القديم وضرورة احيائه، فقام علماؤهم بكشف تاريخ العرب القديم وآدابه مثلما فعل الهمدانى، وقام البعض الآخر بالكتابة عن انساب العرب وعن آدابهم القديمة. كذلك قام علماء السنة ورجال علم الكلام بالدفاع عن دور العرب فى الاسلام، وأبرزوا تشريف الله للعرب باختياره آخر رسله وأحب أنبيائه منهم، وتشريف لغتهم بأن اختارها لتكون لغة كلامه المنزل فى القرآن الكريم. ولقد بذل خلفاء العصر

العباسى الأول قصارى جهدهم للقضاء على حركة الشعوبية وعلى كل تيار فكرى

دور رجالات الفرس البناء فى الدولة العباسية

فى العصر العباسى الأول

وبرغم الحركات الفارسية الهدامة التى قام بها رجال الفرس ضد الدولة العباسية وضد الدين الاسلامى، فان هنالك رجالات للفرس كانوا متعاونين مع الدولة، وكان لهم دورهم البارز الفعال فى شتى الميادين.

ففى الميدان الفكرى: كان أكثر حملة العلم فى العصر العباسى الأول من العجم، وبخاصة الفرس، وكانوا من دعامات حركة النهضة الثقافية والفكرية التى شهدها هذا العصر. ففى ميدان الأدب: احتل علماء الفرس الصدارة فى علوم النحو والفقه والتفسير والتاريخ، اضافة الى العلوم العملية مثل الكيمياء والطب والفلك والرياضيات. ومن الاسماء البارزة فى سماء تلك العلوم: الامام أبو حنيفة النعمان، وحماد الراوية الشاعر، وسيبويه والكسائى، اعلام النحو واللغة وعلم القراءات، والفراء، عالم الكوفة الشهير فى النحو واللغة والأدب، وأبو عبيدة معمر بن المثنى العارف باللغة والغريب من أخبار العرب وأيامهم، وأبو العتاهية الشاعر الزاهد، وابن قتيبة صاحب المعارف وعيون الاخبار، وابن اسحق صاحب أقدم كتاب للسيرة النبوية، وابن سينا الطبيب الحكيم والفيلسوف الشهير، وغيرهم..

ولقد كان للأدب الفارسى أثر فى شعر القرن الثالث بصفة خاصة عربى فى شكله ولفظه فارسى التعبير والفكر.

وقد اقبل الفرس على الأدب العربى يتمكنون منه وبرع كثيرون منهم فى قرض الشعر وكذلك قام اصحاب اللسانين منهم بالنقل من الفارسية الى العربية وكان امام هذه المدرسة ابن المقفع وبنو نوبخت.

كذلك اثر الفرس فيما عرف بالحكم الاسلامية أو علم الاخلاق عند المسلمين وبرغم تأثر هذا العلم بالقرآن والسنة وبالكتب المقدسة الا ان التأثير الفارسى كان فيه قويا ذلك لأن الفرس كانوا يصوغون فى هذا العلم حكما عربية اللفظ فارسية الموضوع. كذلك ظهرت الرسائل الديوانية وهى نحو جديد فى ميدان النثر والترسيل عند العرب واسلوب هذه الرسائل من مبالغات وتفخيم فهى اساليب فارسية ظهرت للمرة الأولى على يد عبد الحميد الكاتب ثم احتلت مكانها فى تاريخ النثر العربى.

وفى مجال الفنون ظهر تأثير الفرس واضحا فى الفن الاسلامى فى العصر العباسى الأول وأدى ذلك الى ظهور ما عرف بالطراز العباسى فى العمارة، وهذا الطراز تأثر الى حد بعيد بالأساليب الفارسية الساسانية فى المعمار.

وقد انتقل هذا الطراز الى مختلف ولايات الدولة فى القرن الثالث [illegible]رى. كذلك تأثرت الصناعات الاسلامية فى ذلك العهد بتقليد نماذج الصناعات الفارسية فى الخزف والصينى والسجاد والملبوسات المختلفة.

وأثر الفرس فى مجال الموسيقى والغناء، فانتقل النغم الفارسى وأساليبه الى الموسيقى العربية، ويظهر ذلك من دراستنا لكتاب الاغانى للاصفهانى. كذلك ظهر هذا التأثير فى نشأة مجالس الطرب والمنادمة التى شاعت فى هذا العصر فى قصور الارستقراطية العربية والفارسية.

٢ - فى الميدان الاقتصادى والاجتماعى:

أفاد الفرس من المكاسب الأولية التى حققتها الثورة العباسية من اعفاء من جزية أو تخفيف أعباء خراج أو اباحة ملكية الارض أو اطلاق الهجرة. وقد أسهم الفرس فى النهضة الزراعية وفى الانتاج الذى تضاعف فى العصر العباسى الأول والذى يعزى الى اطلاق القيود التى كانت تعوق الطبقات العاملة، كما افادوا ودعموا النهضة الصناعية وأفادوا أكثر من اتساع رقعة التجارة الدولية التى حملت التجارة الاسلامية الى أبعد الآفاق.

وقد أدى هذا التحول الى ظهور رأسمالية فارسية اقتنى أفرادها الضياع الواسعة واشتغلوا بالتجارة وفتحوا المصارف واقتنوا الملايين وعاشوا عيشة مترفة.

٣ - فى الميدان السياسى:

تقدمت هذه العناصر فى ميدان السياسة والقيادة تقدما كبيرا، ولقد درسنا كيف أن الفرس كانوا دعامة الدولة العباسية حتى أن المؤرخين قالوا أن الدولة العباسية قامت بأسياف الفرس وفى حضن فارس. ورأينا كيف استطاع

الخراسانيون بقيادة أبى مسلم القضاء على قوات الأمويين والجاح الثورة العباسية وكانوا جندها المخلصين فى زحفها نحو العراق واطاحتها بالدولة الأموية وتثبيت دعائم الحكم للعباسيين. يظهر ذلك فى الرسالة التى كتبها ابن المقفع بعنوان الصحابة.

وكان الخراسانيون عدة المنصور فى القضاء على أعدائه والمناوئين لحكمه. كذلك كان للخراسانيين دورهم فى الصراع بين الأمين والمأمون على الحكم والتمكين للمأمون وهزيمته لأخيه وكان يدين لهم بالوصول الى الحكم.

وقد ترتب على هذا أن ضوعف عطاؤهم وتولوا القيادة فى الدولة ووصلوا الى أعلى مراتب السلطة والقيادة وسيطروا على الجهاز الادارى والعسكرى وتولوا مناصب الولاة على البلدان ووصلوا الى منصب الوزارة منذ فجر الدولة وكانت بأيديهم مقاليد السياسة العباسية.

وكان الوزراء الظاهرون فى دولتهم من الفرس:

أبو سلمة الخلال، أبو أيوب المورياني (وزير المنصور)، يعقوب بن داود (وزير المهدى) البرامكة وزراء الرشيد، بنو سهل وزراء المأمون.

وتولوا وظائف الكتابة لوزراء ولولاة الاقاليم مثل:

حماد عجرد، كاتب يحيى بن محمد بن صول بالموصل، وابن المقفع لداود بن عمر والى كرمان، وعمرو بن مسعدة كاتب المأمون، والحسن بن عيسى كاتب

ليحيى بن خالد البرمكى.

وظهر من هؤلاء بيوتات وأسرات احتكرت الحكم والنفوذ مثل البرامكة وبنو سهل.

ولو تساءلنا عن موقف العباسيين من هذا المد السياسى الفارسى الكبير؟

نرى أن العباسيين كانوا يرسمون لأنفسهم سياسة محددة لم يتخلوا عن تطبيقها طوال عصر حكمهم الأول، وكانت تلك السياسة قائمة على ألا يشارك هؤلاء الفرس خلفاء العباسيين نفوذهم وسلطانهم، وأن ينالوا من السلطة الكثير لكن داخل اطار محدود لا يتجاوزوه أى فى حدود الطاعة المطلقة للخلفاء والاعتراف الذى لا شبهة فيه بسلطانهم، وتنفيذ كلمتهم، والحفاظ للخلافة بهيبتها، وتركيز السلطة فى أيديهم. وتطلبت هذه السياسة توخى الحذر من قادة الفرس والتخلص من هؤلاء القادة لو زاد خطرهم وتجاوزوا حدودهم وكان ثمن هذا التجاوز لقائهم حتفهم ونهايتهم.

وقد اتبع العباسيون سياسة ضرب العناصر ببعضها للقضاء عليهم جميعا، فضربوا الخراسانية جيل أبى مسلم بالبرامكة الفرس، وضربوا البرامكة الفرس ببقايا النفوذ العربى. وضربوا بقايا النفوذ العربى بالخراسانية من جيل بنى طاهر الفرس، ثم ضربوا الخراسانية بالأتراك فى عهد المعتصم، حتى اذا انتهى عهد الواثق (٢٣٢هـ) انقضى العصر العباسى الأول كانت التركية هى التى ضربت

الخلافة وسيطرت عليها.

وقد ظهر تطبيق هذه السياسة واضحا فى قضائهم على أبى مسلم والبرامكة وبني سهل.

وقد درسنا مصرع أبى مسلم وظروف صراعه مع المنصور، وكيف قضى المنصور عليه، أما البرامكة فقد قضي عليهم فيما عرف فى التاريخ باسم نكبة البرامكة.

نكبة البرامكة:

والبرامكة ينتسبون الى «برمك» وكان كاهنا لبيت النار في مدينة بلخ، مجوسيا. وقد كان فارسيا عريق النسب وكان لا يتولى العمل فى بيوت النار الا ذوى الأنساب.

وظهر من أبنائه برمك خالد، وكان يجمع الخراج والغنائم في جيش قحطبة إبن شبيب الطائى الزاحف علي العراق. وقد أظهر كفاية للقائد العباسى فزاده تقديرا. وحضر الى العراق وشهد مبايعة السفاح وتولي ديوان الخراج والجند فى العراق بعد مقتل أبى سلمة الخلال، ولقد قربه المنصور اليه وكان مساعدا له فى تثبيت دعائم حكمه والقضاء على الفتن ضده.

وولي الرشيد يحيى بن خالد بن برمك وزارة التفويض، وولى ابنه الفضل المشرق كله سنة ١٧٨هـ وهو منصب لم يكن يتولاه الا أبناء الخلفاء

الأمراء، وولي جعفر بن يحيى المغرب كله سنة ١٨٦هـ.

وعاش البرامكة عيشة البذخ والسلطان وناهزوا الخليفة في ذلك وقصد أبوابهم الشعراء والكتاب دون الخليفة.

قيل أن جعفر أنفق في بناء داره عشرين مليون درهم وفرشه بأحسن الفرش والأثاث وزوده بالجوارى والخدم. وفجأة حلت نقمة الرشيد علي البرامكة، وكانت نكبة البرامكة في آخر ليلة من المحرم سنة ١٨٧هـ فى العام السابع عشر من خلافة الرشيد بعد أن عاد الرشيد من حجه ووصل الأنبار دخل فراشه مبكرا على غير عادة، فلما انصرف جعفر من عنده أرسل وراءه مسرور كبير خدمه وأمره بضرب عنقه. وقبل أن تنقض تلك الليلة أمر الرشيد بالقبض علي يحيى وابنه الفضل وحبسهم ومصادرة أموالهم والقبض على أنصارهم ومواليهم وأعطى تحذيرات بعدم ايواء أحد منهم. ولم يصرح الرشيد لفرط دهائه بسبب نكبة البرامكة وترك الأمر ينحدر الى الأجيال من بعده لغزا غامضا. ومن جهة أخرى فان البرامكة لم يرتكبوا جرما واضحا ثابتاً عليهم يمكن ان يعتبر السبب المباشر فى نكبتهم.

اختلاف الآراء فى أسباب هذه النكبة:

لذلك اختلفت آراء المؤرخين فى محاولة معرفة السبب الحقيقى الذي دفع الرشيد الي هذا المسلك مع هؤلاء القوم الذين كانوا غير مقصرين له وكان يعتبرهم اخوانه ويعتبر والدهم والده وكان يناديه بقوله «يا أبت»؟

- بعضهم يلوم الرشيد وبخاصة كتاب الفرس ويتهمونه بالقسوة والعنف

والغدر.

- والبعض الآخر ينسب الأمر الى تدخل زوجته زبيدة التى كانت تكره البرامكة ووزيره الفضل بن الربيع الذى كان يتزعم الجانب العربي المنافس للفرس في الاستحواذ علي السلطة في بلاط الخليفة.

- والبعض يجعل ميل البرامكة للعلويين هو سبب الكارثة التي حلت بهم.

- والبعض الآخر ينسب النكبة لتصرف شخصي قام به جعفر مع العباسة أخت الرشيد.

وكان الفضل ورجاله من بطانة الرشيد يدسون للمغنيين شعرا يثير عامل المنافسة والحقد في نفس الرشيد ضد البرامكة.

- وكان العنصر العربي قوة ترجيح اعتمدت عليها الخلافة في احداث عملية التوازن وقد شارك العرب في الافادة من تغير الرشيد، أفاد من ذلك الفضل بن الربيع وزبيدة وأفلحا في تنصيب الأمين وليا للعهد وأفادت في احراز العناصر المتطلعة العربية الي المزيد من السلطة.

والذين قالوا بالرأى الأول استندوا علي غدر العباسيين برجالهم ومفاجأتهم بذلك ولهم فيما فعله المنصور مع عبد الله بن علي وأبى مسلم مثالا واضحا.

ويتبين من دراسة النصوص ان الرشيد كان يتصرف وفق خطة مرسومة بيتة

تظهر من مقتل جعفر ومصادرة الأموال والكتابة الي الاقاليم لضمان الا يتحرك أنصارهم الي الثورة. ولا يمكن ان يكون ذلك مفاجأة علي الاطلاق وأن السبب الحقيقي هو شعور الخلافة باختلال التوازن في قضية المشاركة في الحكم. وقد أدرك الرشيد هذا الاختلال في التوازن من تصرفات يحيى وأولاده. وتتحدث المراجع عن النفوذ الذى وصل اليه البرامكة والثروات التي جمعوها والحياة التي عاشوها أقرب الي السلاطين منهم الي الوزراء والي مدائح الشعراء لهم وقصدهم أبوابهم دون الخليفة.

فلم تكن دار البرامكة تقل بهاءً عن دار الخلافة منها وتحكموا في الأموال حتى أن الرشيد كان يطلب القليل من المال وكان يأتيه عن طريق البرامكة.

- **والذين يقولون بسعاية زبيدة زوج الرشيد والوزير الفضل بن الربيع ضد البرامكة** عند الخليفة، يرون أن زبيدة وهي العربية العباسية القرشية كانت تريد الخلافة لابنها محمد الأمين لما رأت ميل الرشيد بتأثير البرامكة أن تكون الخلافة من بعده لابنه عبد الله المأمون ابن الزوجة الفارسية (مراجل) (أم ولد) (التي ماتت في نفاسها به) ولا شك في أن الفضل بن الربيع كان يقود حركة المقاومة العربية ضد البرامكة الفرس.

وكان الرشيد يميل كثيرا ألي تولية الفضل بن الربيع بعض أمور الدولة. وكانت أمه الخيزران تحول دون ذلك وكان الفضل يظن ان الذي حملها علي ذلك هو جعفر البرمكي، فلما ماتت ولي الرشيد الفضل الخاتم وغيره مما كان في يد

جعفر وأتيحت له فرصة القرب من الخليفة والدس للبرامكة.

والذين يقولون بأن ميل البرامكة للعلويين هو سبب الكارثة، لا ينسون ميل الفرس الطبيعي الي تولي العلويين الخلافة ومحاولة تحويلها عن العباسيين الي العلويين. ومما أكد هذا الاتجاه موقف البرامكة من ثورة يحيى بن عبد الله بن الحسن العلوي ضد الرشيد في بلاد الديلم. فقد بعث الرشيد اليه الفضل بن يحيى البرمكي لقتاله علي رأس خمسين الف مقاتل، ونجح في جعل يحيى يميل الي الصلح مع الخليفة بعد أن أخذ له الأمان بخط الخليفة وكتب اليه الخليفة الأمان بخطه وشهد عليه القضاةوالفقهاء وكبار بني هاشم.

ولما قدم يحيى تلقاه الرشيد بالحفاوة والاكرام ولكنه لم يلبث ان حبسه واستفتي الفقهاء في نقض الأمان ثم سلمه لجعفر بن يحيى وقد قام جعفر باطلاق سراحه دون أخذ رأى الخليفة.

والذين جعلوا حادث جعفر مع العباسة أخت الرشيد هو سبب النكبة فقد جانبهم التوفيق في ذلك لأنهم يسيئون لشخص خليفة المسلمين ولأخته الشريفة النسب، ويميل المستشرقون لهذا الرأى للحط من تاريخ الاسلام عموما وتاريخ العباسيين خصوصا وهم يقولون ان الرشيد غضب حين علم بوجود علاقات بين جعفر وأخته العباسة وان الرشيد انتقم لشرفه من البرامكة فقام بنكبتهم.

والسبب المعقول والنهائي الذي نميل اليه هو ايقان الرشيد باختلال التوازن في العلاقة مع البرامكة وادراكه لخططهم في عزله والوصول الي السلطة

وتحويل الخلافة من العرب الي الفرس.

وليس أدل علي ذلك مما رواه الطبري من الشواهد التي تدل علي مبلغ حقد الرشيد علي البرامكة قبل نكبتهم وسعيه علي الحض من شأنهم، يقول الطبري: «حتي انه أمر غلمانه بالاعراض عنهم والاستهتار بهم اذا دخلوا قصره حتي أن يحيى بن خالد دخل مرة علي الرشيد فقام الغلمان اليه، فقال الرشيد لمسرور الخادم: مر الغلمان الا يقوموا ليحيى اذا دخل الدار، فقال: فدخل فلم يقم اليه أحد فاربد لونه، وكان الغلمان والحجاب اذا رأوه أعرضوا عنه فكان ربما استقي الشربة من الماء أو غيره فلا يسقونه وبالحري ان سقوه ان يكون ذلك بعد أن يدعو بها مرارا».

علي كل، فقد كانت نكبة البرامكة وصمة عار في جبين الرشيد والعباسيين أيا كان سببها، ولقد ظل الرشيد، بعد النكبة، حزينا نادما علي ما فعل حتي وفاته. فقد اشتد به الندم وتوبيخ الضمير وأخذت صحته تعتل وتضمحل وتملكه الأرق وغدا محتاجا الي من يسامره في جوف الليل ليبعد الوحشة عنه، كما كان محتاجا لمن يدخل السرور علي قلبه الوجل، وصار يحتاج الي الوعظ والزهد في الدنيا فيخشع قلبه وتفيض عيونه بالدمع.

علي أن أشد ما أبتلي به الرشيد، بعد ذهاب البرامكة، فتور العلاقة بينه وبين رعيته، فقد أصبح الناس يخافونه ويرهبونه بعد أن كانوا يجلونه ويحبونه، وصاروا يشبهونه بالدهر في غدره وتقلبه. وقد مات الرشيد سنة ١٩٣هـ، أى بعد

ستة أعوام من نكبة البرامكة، توفي بمدينة طوس بخراسان، ودفن فيها.

نكبة بنى سهل:

اذا كان الفرس قد خسروا البيت البرمكي في جولة من جولات الصراع علي الحكم فانهم قد كسبوا النصر للمأمون علي أخيه الأمين في الصراع علي الخلافة.

وقد لعبت أسرة بني سهل، الخراسانية الأصل، دورا هاما في وصول المأمون الي الحكم بعد ان نجحوا في تدبير أمره في خراسان وتدبير انتصاره علي أخيه الأمين وعلي العنصر العربي الموالي له وتوليته الخلافة. ولم تكن الفتنة بين الأمين والمأمون الا حلقة من سلسلة الصراع بين الفرس أنصار المأمون والعرب أنصار الأمين، وقد تجلي هذا الصراع واضحا فيها.

وقد بلغ بيت بني سهل الفارسي، المكانة العالية وصدارة الدولة في عهد الخليفة المأمون، ووصلوا الي ما وصل اليه البرامكة في خلافة الرشيد، فقد وصل الأخوان: الفضل بن سهل والحسن بن سهل الي رئاسة الوزارة وكان لهما من علو الشأن ما كان للبرامكة قبل نكبتهم.

وقد قاد الفضل بن سهل، وزير المأمون الفارسي، الصراع من جانب الفرس، وقاد الفضل بن الربيع، وزير الأمين العربي، الصراع من جانب العرب. وسرعان ما أحرزت قوات المأمون النصر علي قوات أخيه ووصلت الي بغداد

وحاصرتها ووضعت حدا لهذا النزاع بترجيح كفة المأمون وقتل الأمين وانهاء حكمه سنة ١٩٨هـ.

ويرجع أصل الصراع بين الأخوين، والذي استمر نحو خمس سنوات، الي تصرف الرشيد الأب، الذي قام بتفضيل ابنه الأمين، البالغ من العمر عشر سنوات في ولاية العهد، على أخيه الأكبر المأمون (١٤ سنة) وافراطه في أخذه العهود والمواثيق له سنة ١٧٥هـ.

كذلك ترجع جذور هذا الصراع الي رغبة العنصر العربي، الذي أحرز النصر في مأساة البرامكة، الي أحراز المزيد من الكسب وتأكيد النفوذ والسلطان في ظل خليفة كالأمين أمه عربية خالصة. فألقى لذلك الحزب العربي بكل ثقله خلف الأمين لأنه اعتقد أنها فرصته الوحيدة، بل فرصته الأخيرة لاحراز النفوذ علي العنصر الفارسي.

كذلك ترجع جذور هذا الصراع الي نضال العنصر الخراساني، الذي لم يرد أن يعيش في الظل بعد اختفاء رجالهم البرامكة. فكان طاهر بن الحسين، قائد المأمون الأول، هو أبو مسلم الجديد، وكان المأمون هو الامام الذي التفت الخراسانية الجديدة حوله، كما كان السفاح هو الامام الذي سارت الخراسانية القديمة خلفه من قبل.

ولذلك نستطيع أن نقول بكل طمأنينة أننا نضع هذه المأساة فى نفس الاطار الذى وضعنا فيه البرامكة وأحداثهم ومأساتهم، وهو اطار الحكومة

الحفيظة على تأكيد سلطانها والتى استعانت بالعرب لتقضى على البرامكة الفرس واذا بها تواجه تطلع العناصر الفارسية مرة أخرى الى مزيد من السلطان وتؤكد انتصار المأمون.

هو لقاء على نفس المستوى بين هذه العناصر الجديدة على نحو ما كان اللقاء بين المنصور وبين الرشيد وبين هذه العناصر وكيف كان المأمون أشد حرصا على السير فى نفس الخط الذى رسمه الخلفاء لأنفسهم منذ قيام الدولة.

لقد بدأ الأمين بالعدوان حين أرسل قائده على بن عيسى الى خراسان لاغتصابها من المأمون وكان يليها بأمر والده، لكن قوات المأمون هزمت قوات الأمين سنة ١٩٥هـ. ثم تقدمت قوات المأمون الى منطقة الجبل بقيادة طاهر بن الحسين، مثلما فعل أبو مسلم الخراسانى من قبل، وانهزمت الجيوش العراقية وتقدم طاهر حتى قارب من بغداد.

وتقدمت جيوش الأمين لوقف هذا الزحف ولكنها هزمت عند بغداد، وكانت الجولة الأخيرة حصار بغداد ثم مصرع الأمين فى (٢٥ المحرم سنة ١٩٨هـ). ونجحت القوات الخراسانية فى توصيل المأمون الى الحكم ولذلك تطلعت الى المكافأة بالنفوذ والسلطان مثلما فعلوا غداة قيام الدولة العباسية.

وتقرب الفضل بن سهل من المأمون بمثل ما تقرب به يحيى بن خالد البرمكى للرشيد، فكان كاتب المأمون حين كان وليا للعهد وألصق الناس به، وهو الذى أشار عليه بالذهاب الى خراسان ليلتمس فيها الأنصار وليبعد بنفسه

ورجاله عن سطوة الأمين ورجاله. وهو الذى مهد طريق الخلافة للمأمون ولعب دورا كبيرا فى ترجيح كفته على كفة أخيه الأمين.

ولما آلت الخلافة للمأمون واستقر به المقام فى بغداد واستوثق من مبايعة الناس له، وفّى المأمون للفضل كما سبق أن وفى الرشيد ليحيى البرمكى، وولاه وزارة التفويض والمشرق، ورتب له راتبا مقداره ثلاثة ملايين درهم فى العام، وأسبغ عليه بلقب ذى الرياستين (رياسة التدبير ورياسة الحرب)، ومنحه لقب أمير، وولى الحسن أخاه منطقة الجبال والحجاز واليمن.

وبلغ من شدة تأثير الفضل بن سهل على المأمون أن أغراه بتولية العهد من بعده للامام على الرضا بن موسى الكاظم، وهو الإمام الثامن عند طائفة الشيعة الامامية الاثنى عشرية. وقد امتثل المأمون لطلب الفضل فبايع على الرضا بولاية العهد بعده، وهو فى مرو حاضرة خراسان، وقد رمى المأمون من وراء ذلك استمرار ولاء الفرس الخراسانيين له لتشرب قلوبهم بحب آل البيت وأفكار الشيعة. وزيادة على ذلك فقد قام المأمون بتزويج ابنته لعلى الرضا، وأمر الناس بترك السواد ولبس الخضرة شعار الشيعة العلويين.

وما أن ثبت الفضل أقدامه فى الحكم واستوثق من مكانته عند المأمون، حتى أخذ يمكن لنفسه فى خراسان ليعيد دور أبى مسلم القديم، وأكثر من ذلك، فقد حاول أن يبسط سيادته على بغداد نفسها بل أراد أن يطيح بالمأمون وأخذ البيعة لإبراهيم بن المهدى دونه، ويعد ذلك الإطاحة بالخلافة العباسية نفسها.

ولقد أحس المأمون بالخطر وتأكد من انقلاب التوازن الذى حرصت الدولة على اقامته فى تعاملها مع الفرس، وخاف على ضياع حكمه. وبعد أن استتب الأمر للمأمون وعلم أن الخلافة له وتيقن من خطر الفرس وبنى سهل، صمم على أن يحسم الأمر لصالحه قبل مغادرته عاصمة خراسان الى بغداد، فتحرك كما تحرك الرشيد من قبل وعند مرو أرسل من يقتل الفضل وهو بالحمام (شعبان ٢٠٢هـ)، ومن يدس السم لعلى الرضا، فتخلص من الخصمين فى وقت واحد. وحتى يبرىء المأمون ذمته ويمسح من يده دم الفضل والرضا وحتى يضمن عدم ثورة الخراسانيين عليه، قام باظهار الحزن الشديد على مصرعهما، وأسند الوزارة الى الحسن بن سهل بعد عودته الى بغداد. وأظهر توطيد علاقته ببنى سهل بزواجه من بوران بنت الحسن بن سهل واقامة أكبر وأفخم عرس فى التاريخ الاسلامى لهما، بلغت تكاليفه خمسين مليون درهم.

وقد أمهر المأمون بوران، ليلة زفافها، ألف حصاة من الياقوت، واوقد مائة شمعة من العنبر وزن كل منها رطل وثلثان، كما جهز ابنته بأفخم جهاز وبسط لها حصيرا منسوجا من الذهب مكللا بالدر والياقوت، ولقد قال المأمون حين رآه: «قاتل الله أبا نواس كأنه أبصر هذا حيث يقول فى صفتة الخمر:

كأن صغرى وكبرى من فواقعها   حصباء دُر على أرض من الذهب

وهكذا كانت الخلافة فى العصر العباسى الأول تستفيد من العناصر الفارسية وتطلق لها من السلطان السياسى ما لا يخل بمبدأ التوازن فاذا أحست

بالاخلال بادرت الى الفتك والتنكيل. وانتهى هذا الصراع بين العرب والفرس بصدد احراز السيادة والصدارة فى الدولة فى أواخر عصر المأمون وانتهى بظهور عنصر ثالث أصبحت له السيادة والسلطة وهو عنصر الأتراك. وقد بدأت هذه السيادة للترك فى عهد المعتصم وعهد إبنه الواثق، الذى ما كاد عهده ينتهى حتى كان الأتراك قد سيطروا سيطرة تامة على الخلافة العباسية، وبدأ فى تاريخ الدولة العباسية العصر الذى أطلق عليه المؤرخون العصر العباسى الثانى الذى كانت السيادة فيه للترك دون الفرس والعرب.

العباسيون والعلويون

كانت معركة كربلاء، التى وقعت سنة ٦١هـ، واستشهد فيها الامام الحسين وعدد كبير من آل البيت، من أكبر المعارك التى حالت دون وصول العلويين للخلافة. الا أنه برغم فداحة ما تحمله العلويون فى هذه المعركة الا أنهم لم يعتورهم اليأس، بل واصلوا اصرارهم من أجل الوصول الى غرضهم مهما كان الثمن وكلما سنحت لهم فرصة لذلك. فلقد جعل العلويون الخلافة كل همهم وشغلهم الشاغل وثأرهم المطلوب.

ولقد ثاروا ثانية، بعد كربلاء، ضد الأمويين، فى عهد خلافة هشام بن عبد الملك (سنة ١٠٥هـ) قام بها زيد بن على بن الحسين، امام الزيدية، ويقول صاحب الفخرى عن زيد وثورته: «كان زيد من عظماء أهل البيت، عليهم السلام، علما وزهدا وورعا وشجاعة ودينا وكرما،وكان دائما يحدث نفسه بالخلافة ويرى أنه

أهل لذلك، ومازال هذا المعنى يتردد فى نفسه ويظهر على صفحات وجهه وفلتات لسانه، حتى كانت أيام هشام بن عبد الملك، فاتهمه بوديعة لخالد بن عبد الله القسرى أمير الكوفة، فحمله الى يوسف بن عمر أميرها فى ذلك العصر فاستحلفه أن مالخالد عنده مالا وخلى سبيله. فخرج زيد ليتوجه الى المدينة فتبعه أهل الكوفة وقالوا له: أين تذهب، يرحمك الله، ومعك مائة ألف سيف نضرب بها دونك، وليس عندنا من بنى أمية الا نفر قليل، لو أن قبيلة واحدة منا صمدت لهم لكفتهم باذن الله. ورغبوه بهذا وأمثاله، فقال لهم: يا قوم انى أخاف غدركم فانكم فعلتم بجدى الحسين، عليه السلام، ما فعلتم، وأبى عليهم. فقالوا: نناشدك الله الا ما رجعت، ونحن نبذل أنفسنا دونك ونعطيك من الايمان والعهود والمواثيق ما تثق به فانا نرجو أن تكون المنصور وأن يكون هذا الزمان الزمان الذى يهلك فيه بنو أمية. فلم يزالوا به حتى ردوه. فلما رجع الى الكوفة أقبلت الشيعة تختلف اليه يبايعونه، حتى أحصى ديوانه خمسة عشر الفا من أهل الكوفة سوى أهل المدائن والبصرة وواسط والموصل وأهل خراسان والرى وجرجان والجزيرة، وأقاموا بالكوفة شهورا. فلما اجتمع الناس مع زيد أظهر أمره ونابذ من خالفه، فجمع له يوسف بن عمر جموعا وبرز اليه، وعبأ كل منهما أصحابه والتقى الفريقان وجرى بينهما قتال شديد فتفرق أصحاب زيد عنه وخذلوه، فبقى فى شرذمة يسيرة فأبلى هو بلاءً حسنا وقاتل قتالا شديدا، فجاءه سهم فأصاب جبينه، فطلب حدادا فنزع السهم من جبينه فكانت فيه نفسه فمات من ساعته. فحفر له أصحابه فى ساقية ودفنوه فيها وأجروا الماء على قبره خوفا

من أن يمثلوا به. فلما استظهر يوسف بن عمر أمير الكوفة تطلب قبر زيد فلم يعرفه فدله عليه بعض العبيد فنبشه وأخرجه فصلبه فبقى مدة مصلوبا ثم أحرق وزرى رماده ».

وتظاهر العلويون بعد ذلك بالاستكانة والاشتغال بالتجارة والانصراف الى العبادة حتى تسنح لهم فرصة أخرى للثورة. ولما انتهى العهد الأموى، وظهرت الدعوة لآل البيت على يد دعاة العباسيين تركوا الأمور تسير فى مجراها الطبيعى، وكانت الدعوة للرضا من آل محمد، وظن العلويون أن العباسيين يعملون لحسابهم وأن الخلافة حق لهم دون منازع. ولكن سرعان ما تطورت الأمور، كما سبق أن رأينا، ووصل العباسيون الى الخلافة دون أبناء عمومتهم، وأقاموا دولتهم على أنقاض دولة بنى أمية.

وقد أغضب هذا التطور العلويين وأكد لهم خيانة العباسيين لهم ولحقهم فى الخلافة، فنابذوهم العداء، ونظروا اليهم، نظرتهم للأمويين من قبل، وظلوا يناضلون ويكافحون ابتغاء الوصول الى حقهم الضائع فى الخلافة.

لكن العباسيين لم يشفعوا للعلويين قرابتهم لهم، بل قابلوا عنفهم بعنف أشد، وكانوا فى حربهم ضد العلويين أشد من حرب الأمويين لهم. فوقع فى العهد العباسى على العلويين من القتل والتشريد والسجن والتعذيب أضعاف ما وقع عليهم فى عهد الأمويين. واستمر النزاع بين العباسيين والعلويين طوال العصر العباسى الأول حتى أصبحنا لا نقرأ عن تاريخ خليفة منهم الا ونعثر على

وقائعه مع العلويين. وكان العباسيون قد أظهروا التودد الى العلويين، فى بادىء الأمر، وعملوا على رفع شأنهم وذلك لاصطناعهم وكسبهم الى جانبهم وصرفهم عن أمر المطالبة بالخلافة، لكنهم حين وجدوا التفاف الناس حولهم وتبجيلهم لهم وزائد حبهم، خافوا على أنفسهم، فغيروا سياستهم معهم وتصدوا لأطماعهم بكل قوتهم وقابلوا ثوراتهم بالضرب عليها بيد من حديد، ومن ثورات العلويين التى قامت فى العصر العباسى الأول:

١ - ثورة محمد النفس الزكية سنة ١٤٥هـ:

وهو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب، وهو من الفرع الحسنى، وكان أول الثائرين من العلويين على العباسيين، وشاركه فى ثورته أخ يقال له ابراهيم. وكان يعاصرهما فى ذلك الوقت من الفرع الحسينى جعفر الصادق بن محمد الباقر، الامام السادس عند الشيعة الامامية الإثنى عشرية. هذا ولم يشارك جعفر الصادق النفس الزكية وأخاه ابراهيم فى ثورتهما ضد العباسيين بحجة عدم مواتاة الظروف للثورة.

وقد عرف محمد بالنفس الزكية لدماثة خلقه وحسن شمائله وشجاعته، وكان بنو هاشم قد أجمعوا، لخلاله هذه، على مبايعته فى أواخر أيام بنى أمية، كذلك لفضله وشرفه وعلمه. ولقد امتنع النفس الزكية عن مبايعة السفاح حين قدم أخوه المنصور الى الحجازلأخذ بيعة الحجازيين له. كذلك تخلف هو وأخوه ابراهيم عن مبايعة المنصور بالخلافة حين بويع بها. وقد رأى المنصور، حين ولى

الخلافة، الخطر كل الخطر على دولته فى بقاء النفس الزكية وأخيه ابراهيم دون التخلص منهما كما سبق له أن تخلص من منافسيه من قبل.

ولقد كلف المنصور رجلا قاسيا لمراقبة النفس الزكية فى الحجاز، هو والى المدينة رياح بن عثمان بن حيان، فقام بالتضييق عليه وقبض على الكثيرين من أتباعه وأقربائه وسجنهم. وكان محمد فى ذلك الوقت مستخفيا فى المدينة، الاأنه أظهر نفسه سنة ١٤٥هـ وأعلن عن نواياه ودعى الناس فى مكة والمدينة للاعتراف بامامته، فاعترفوا بها، وتلقب بأمير المؤمنين. فذاع صيته وعظم احترام الناس له. وازدادت أعداد النفس الزكية، وساعده على ذلك فتوى الامام مالك بن أنس، فقيه الحجاز وأحد أئمة المذاهب السنية الأربعة، بنقض بيعتهم للمنصور حيث قال لأهل المدينة: «انما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين».

وأرسل محمد النفس الزكية أخاه ابراهيم الى البصرة لنشر الدعوة وأخذ البيعة له بالعراق. وخرج محمد فى مائتين وخمسين رجلا من أتباعه وتوجه بهم الى سجن المدينة وأخرج من كان فيه من المساجين وحبس فيه عامل المنصور على المدينة، ثم صعد منبر رسول الله وخطب الناس ودعى لاسقاط خلافة العباسيين. أما ابراهيم فقد استولى على دار الامرة بالبصرة، وحارب قوات الخليفة بمساندة من فقهاء البصرة وغيرهم من ذوى الرأى والجاه وانتصر عليها. ووقف الى جانب ابراهيم الامام أبو حنيفة النعمان، أحد أئمة المذهب السنى الأربعة، كما وقف الامام مالك الى جانب أخيه، وبذلك نجح ابراهيم فى ضم واسط والأهواز وفارس

اليه. ولم يزل ابراهيم يوالى انتصاراته حتى أتاه خبر مقتل أخيه محمد النفس الزكية فى أواخر شهر رمضان سنة ١٤٥هـ، فبايعه الناس على امامتهم.

وكان المنصور قد تحرك للقضاء على ثورة النفس الزكية ولجأ أول الأمر الى الحيلة مع محمد واستخدام سياسة اللين والمسالمة قبل اللجوء الى الحرب والقتال الذى لم يكن يضمن نتائجه. واتخذ الأمر بينهما صفة المساجلة والمفاضلة بين العلويين والعباسيين وتعدد تبادل المكاتبات بينهما. وفى أحد هذه المكاتبات وعد المنصور النفس الزكية وأغراه بالكثير من المال والنفوذ لكن هذا الكتاب لم يؤثر فيه ولم يجعله يحيد عن هدفه. فرد النفس الزكية على هذا الكتاب بكتاب شديد اللهجة يدعم حقه فى الخلافة ويندد بالمنصور وبتنكيله بآل البيت، ويسخر فيه بأمان المنصور الذى لم يحترمه مع قواده ابن هبيرة وعبد الله بن على وأبى مسلم الخراسانى.

ضرب المنصور الامام مالك بالسياط بسبب فتواه للنفس الزكية، كذلك استقدم الامام أبى حنيفة من الكوفة الى بغداد وحدد اقامته بها مدة خمس عشرة يوما ثم أرسل من دس له السم فمات بسببه.

وواصل محمد النفس الزكية ثورته، لكن هذه الثورة لم يكتب لها النجاح لعدة أسباب، أهمها: أن محمداً وأخاه ابراهيم أخطأ فى الخروج على المنصور بعد أن بايعه عامة المسلمين بالخلافة، وأنهما اعتمدا على هذا العدد القليل من الأنصار الذى لا يقارن أمام قوة دولة الخلافة.

ثانى هذه الأسباب هو خطأ محمد فى توقيت خروجه وثورته على الخلافة، فلقد تسرع فى الاعلان عنها قبل أن تكتمل قوته ويتم استعداداته للمواجهة، وقد دفعه الى ذلك رغبته فى تخليص آل بيته مما نالهم من عسف وأذى والى المدينة.

كذلك لم تكن الفرصة متاحة لاتحاد ثورة محمد مع ثورة أخيه فى ذلك الوقت، الأمر الذى أتاح للمنصور أن يجهز أولا على النفس الزكية، ثم بعد ذلك بثائر البصرة.

ومن أهم أسباب الهزيمة أن محمدا النفس الزكية وقع فى نفس الخطأ الذى سبق أن وقع فيه عبد الله بن الزبير فى ثورته ضد عبد الملك بن مروان باتخاذه المدينة مركزا لدعوته وعاصمة لخلافته. فبلاد الحجاز أصبحت لا تصلح حربياً واقتصاديا فى العهد العباسى لتكون مركزا لحكومة اسلامية جديدة وذلك بعد أن اتسعت رقعة الدولة الاسلامية وفتحت الامصار التى تتميز عن بلاد الحجاز بالغنى والثروة. وكان يكفى المنصور أن يقوم بعملية حصار للمدينة يستطيع بها أن ينهى هذه المقاومة ويخمد هذه الثورة وهذا ما تم بالفعل.

وبعد الحصار الذى فرضه المنصور على المدينة، ندب المنصور لحرب النفس الزكية وأخيه ابراهيم ولى عهده عيسى بن موسى. وقد كان المنصور يريد الخلاص من عيسى وفى نفس الوقت يريد الخلاص من الأخوين العلويين الثائرين، فأراد ضربهما ببعضهما، وسياسة ضرب العدو بعدو، هى سياسة كان يتبعها المنصور

فى محاربة أعدائه.

ولما قاربت قوات عيسى بن موسى الى المدينة ساد الإضطراب وروح الانهزام فى عسكر النفس الزكية، وأخذ رجاله ينفضون من حوله حين شاهدوا كثافة عسكر الخليفة. وقد اضطر النفس الزكية الى الفرار من المدينة الى مكة فتبعه اليها عيسى بن موسى وفرض عليه الحصار فيها مثلما فعل الحجاج مع ابن الزبير، وانتهى الأمر بأن قاتل النفس الزكية بالقليل ممن بقى حوله من رجاله، فانهزم وقتل واحتزت رأسه، وكان ذلك فى أواخر شهر رمضان سنة ١٤٥هـ. وكان مقتل محمد النفس الزكية بموضع قريب من المدينة يعرف بأحجار الزيت، ولذلك سمى: محمد النفس الزكية قتيل أحجار الزيت.

وبعد الخلاص من النفس الزكية توجهت قوات عيسى بن موسى الى العراق فى عدد كبير للاجهاز على ثورة ابراهيم هناك. ودارت رحى الحرب بين الفريقين فى معركة غير متكافئة فى منطقة تعرف باسم باخمرى، بين الكوفة وواسط. وحلت الهزيمة بابراهيم وقواته، وقد قتل ابراهيم فى المعركة (أواخر ذى القعدة ١٤٥هـ). ولذلك عرف ابراهيم بقتيل باخمرى. وقد قتل فى معارك النفس الزكية وأخيه ابراهيم عدد كبير من أفراد البيت العلوى، وقبض على الكثير منهم أيضا وأودعوا فى سجون الكوفة.

٢ - ثورة الحسين بن على سنة ١٦٩هـ:

ضعف أمر العلويين بعد مقتل محمد النفس الزكية وأخيه ابراهيم، غير

أنهم مافتئوا يتطلعون للخلافة رغم ضعفهم ويتحينون الفرص لمحاربة الخلفاء من جديد والثورة ضدهم. ولم يعد العباسيون يتخوفون من ثورات العلويين لعلمهم بضعف شأنهم بعد الهزائم التى حلت بهم، واكتفوا بوضع زعمائهم تحت أنظارهم ببغداد وبمراقبة ولاة المدينة لما قد يقوم به شيعتهم من نشاط. وقد دأب العباسيون وعمالهم على التشهير بالعلويين والحط من قدرهم والتشكيك فى أخلاقهم وسلوكهم، فاتهموهم بالإنحلال الخلقى ومعاقرة الخمر ورموهم بأسوأ النعوت مما جعل سخطهم يزداد على العباسيين وجعلهم يثورون ضدهم الحين بعد الحين.

وفى عام ١٦٩هـ، فى عهد خلافة الهادى، ثار العلويون بمكة والمدينة بزعامة الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب، وقد دعى الحسين لنفسه بالخلافة فى المدينة فى هذا العام خروجا منه على العباسيين. ويعزو المؤرخون خروج الحسين وثورته الى سوء معاملة عامل الخليفة على المدينة للعلويين، وانتهاز العلويين هذه الفرصة لاثارة شعور أهل المدينة ضد بنى العباس.

وبدأ الحسين نشاطه بمهاجمته دار الامارة فى المدينة، وكسر أصحابه السجون وأخرجوا من فيها من آل البيت، ثم توجه الحسين من المدينة الى مكة وتحصن بها. وبادر الهادى بالقضاء على ثورة الحسين فوجه اليه حملة بقيادة القائد محمد بن سليمان، والتقى جيش الخليفة مع قوات العلويين وأشياعهم عند وادى فخ، وهو واد بين مكة والمدينة ويبعد عن مكة نحو ستة أميال، ودارت

هناك معركة رهيبة تحدد فيها مصير العلويين حيث قتل الحسين بعد أن أبلى بلاء شديدا، وقتل معه عدد كبير من أهل بيته يفوق عدد من قتل منهم فى معركة كربلاء. وقد كانت هذه المعركة من الشدة على العلويين بحيث قيل عنها: «لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجع من فخ».

وروى المسعودى وابن طباطبا أن الخليفة الهادى استاء من قائده محمد بن سليمان لقتله الحسين دون أخذ رأيه، وعاقبه على ذلك بمصادرة أمواله. كذلك قام الخليفة بتعنيف من أحضروا له رأس الحسين حين أظهروا له سرورهم بذلك، وبكى وهو يقول: «أتيتمونى مستبشرين كأنكم أتيتمونى برأس طاغوت من الطواغيت ان أقل ما أجزيكم به حرمانكم»، ولم يطلق لهم شيئا.

قال أحد شعراء الشيعة فى رثاء الحسين فى فخ:

فلأبكين على الحسين	بعولة على والحسن
وعلى ابن عاتكة الذى	واروه ليس بذى كفن
تركوا بفخ غدوة	فى غير منزلة الوطن
كانوا كراما هيجوا	لا طائشين ولا جبن
غسلوا المذلة عنهم	غسل الثياب من الدرن
هدى العباد بجدهم	فلهم على الناس المنن

وكانت موقعة فخ بعيدة الأثر بالنسبة للعلويين وللعباسيين، فقد هرب من العلويين رجلان ظلا شوكة لمدة طويلة بعد ذلك فى حلق العباسيين وهما: يحيى

إبن عبد الله وأخوه ادريس بن عبد الله وهما أخوين لمحمد النفس الزكية. فهرب يحيى سنة ١٧٦هـ الى بلاد الديلم الفرس جنوبى بحر قزوين، بينما هرب ادريس الى بلاد المغرب، ونجح الاثنان حيث هربا فى تهيئة الظروف التى مكنتهما من الخروج والثورة على العباسيين فى عهد خلافة الرشيد.

٣ - ثورة يحيى وادريس ابنى عبد الله:

أراد الرشيد أن يستميل العلويين اليه، فبدأ حكمه بالافراج عن كثير منهم سنة ١٧٠هـ، لكن أفراد البيت العلوى استمروا فى اعتقادهم الراسخ بأحقيتهم فى الخلافة وضرورة نضال العباسيين للوصول اليها. وقد فر يحيى وادريس ابنى عبد الله الى بلاد الديلم والمغرب لمواصلة نضالهما هناك فى بلاد بعيدة عن قبضة الخلافة وأعين ولاة العباسيين.

مضى يحيى الى الديلم الفرس فاعتقدوا فيه استحقاقه الامامة وبايعوه، واجتمع اليه الناس من الامصار وقويت شوكته، فاغتنم الرشيد ذلك، وندب اليه الفضل بن يحيى البرمكى فى خمسين الفا وولاه مناطق جرجان وطبرستان والرى من بلاد الديلم، فتوجه الفضل بالجنود لمقاتلة يحيى. الا أن الفضل آثر استخدام السياسة فى ترغيب يحيى بالعدول عن ثورته ومصالحة الخليفة على أن يأخذ له الأمان من الرشيد. فمال يحيى الى الصلح وطلب أمانا بخط الرشيد وأن يشهد عليه فيه القضاة والفقهاء وجلة بنى هاشم. فأجابه الرشيد الى ذلك وسر به وكتب له أماناً بليغا بخطه وشهد عليه فيه القضاة ومشايخ بنى هاشم، وسير الأمان مع

هدايا وتحف، فتقدم يحيى مع الفضل فلقيه الرشيد فى أول الأمر بكل ما يحب، ثم حبسه عنده، واستفتى الفقهاء فى نقض الأمان فمنهم من أفتى بصحته فحاجه ومنهم من أفتى ببطلانه فأبطله.

وقد نقض الرشيد الأمان الذى اعطاه ليحيى بعد حصوله من بعض الفقهاء على فتاوى تجيز له ذلك، فقام بحبسه فى داره وأمر جعفر بن يحيى البرمكى بالاشراف عليه فى حبسه. وقد نجح يحيى ذات ليلة فى التوسل الى جعفر البرمكى لاطلاق سراحه وتدبير أمر فراره، ففعل، وكان ذلك من الأمور االتى ادان بها الرشيد البرامكة حين نكبهم واتهمهم بالتشيع للعلويين. وهرب يحيى ثانية الى بلاد الديلم لكن سرعان ما وافته المنية وهو فى الطريق.

أما ادريس، فقد هرب الى مصر سنة ١٧٢هـ، ومنها توجه الى بلاد المغرب الاقصى حيث التف حوله سكانها من قبائل البربر مستغلا فيهم ميلهم الطبيعى وحبهم لآل البيت وسخطهم العام على الحكم العربى الذى تعصب للعرب دون غيرهم من الاجناس فى عهد حكم دولة الأمويين. وفى المغرب الاقصى اتسعت الدولة التى اقامها ادريس وعرفت بدولة الادارسة وهى أول دولة علوية يقيمها العلويون فى التاريخ. وقد فكر ادريس فى ضم كل بلاد المغرب الى دولته والانطلاق الى المشرق لاستخلاص الخلافة من يد العباسيين ولاستعادة حق العلويين المزعوم فيها.

ولم يستطع الرشيد ان يقاوم هذه الدولة الفتية نظرا لبعد مقرها عن عاصمة

الخلافة، فضلا عن امتناع البربر فى جبالهم الوعرة. لذلك آثر الرشيد استعمال الحيلة فى الخلاص من ادريس فارسل اليهم رجلا عرف بالدهاء والخبث يدعى سليمان بن جرير الشماخ سنة ١٧٥هـ، وأمره بأن يتقرب من ادريس وأن يجاهر بعدائه للعباسيين وينتهز فرصة يدس فيها السم لادريس ونجح الشماخ فى ذلك ومات ادريس بسبب هذا السم سنة ١٧٧هـ دون أن يترك ولدا ذكرا يتولى الحكم من بعده. فانتظر اتباعه ان تضع جارية له كانت حاملا، فوضعت ولدا اسموه ادريس أيضا، وبايعوه بالخلافة وعرف بادريس الثانى، الذى يعد المؤسس الحقيقى لدولة الادارسة بالمغرب التى حكمت البلاد قرابة القرن ونصف (حتى سنة ٣١٣هـ).

ولما ازداد خطر الادارسة فى المغرب، خاف الرشيد من استفحال هذا الخطر وابتلاع دولتهم لكل بلاد شمال افريقيا، فأقطع أحد قواده ويدعى ابراهيم بن الاغلب بلاد افريقية (تونس الحالية) ليقيم فيها دولة تكون مستقلة استقلالا ذاتيا وهى دولة الاغالبة سنة ١٨٤هـ، وقامت هذه الدولة وكانت بمثابة دولة حاجزة بين الدولة العباسية وأعدائهم الادارسة العلويين، وقد ظلت دولة الاغالبة قائمة فى افريقية حتى قضى عليها الفاطميون سنة ٢٩٦هـ، أثناء زحفهم نحو مصر.

وكان الرشيد قد نجح فى التخلص من الامام موسى الكاظم بن جعفر الصادق من الفرع الحسينى بدس السم له سنة ١٨٣هـ، وهو الامام السابع من جماعة الشيعة الامامية الاثنى عشرية. وبموته آلت الامامة فى البيت العلوى

لابنه على الرضا الامام الثامن.

٤ - المأمون والامام على الرضا:

اتفق جمهور المؤرخين، من الشيعيين والسنيين، على ثلاث نقاط اساسية ليس هنالك شك فى صحتها، وهى ان المأمون جعل ولاية العهد من بعده للامام العلوى على الرضا، الامام الثامن عند الشيعة الاثنى عشرية، وانه لبس الخضرة شعار العلويين وابطل السواد شعار العباسيين، وانه زوج ابنته ام حبيب سنه ٢٠٢هـ من على الرضا. وتقول بعض المصادر ان المأمون كان مخلصا فى تودده للعلويين وتقربه اليهم، جادا فى ولاية العهد من بعده لعلى الرضا، وبذلك يعيد الحق للعلويين، كما يدعون.

وقد حدث ان عقد مجمعاً حافلاً ضم الاشراف وكبار رجال الدولة، اعلن فيه الفضل بن سهل، وزير المأمون، نيابة عن الخليفة، البيعة بولاية العهد من بعده لعلى الرضا بن موسى الكاظم. وبعد اسبوع من ذلك المجمع اقيم احتفال كبير أقر فيه المأمون وابنه العباس البيعة لعلى الرضا، ثم وزعت الهدايا والخلع على كبار رجال الدولة وعلى الشعراء الذين حضروا الاحتفال واشادوا بفضائل على الرضا وامتدحوا الخليفة المأمون.

لكن المأمون يبدو أنه ندم على ما فعل حين رأى إلتفاف الناس حول العلويين وثورة العباسيين لما فعله واختيارهم عمه ابراهيم بن المهدى ومبايعته بالخلافة دونه. وقد نسبت المصادر الى المأمون تدبيره اغتيال الفضل بن سهل بدس من

قتله فى الحمام ووضع السم فى العنب لعلى الرضا مما أدى الى نهايته سنة ٢٠٢هـ، وقد اتفق المؤرخون على ان المأمون اظهر الحزن الشديد على وفاة على الرضا وقام بدفنه فى احتفال دينى مهيب فى قرية سناباذ من أعمال طوس، وهى المدينة التى سبق ان مات ودفن فيها الرشيد.

٥ - ثورة محمد (الجواد) بن جعفر الصادق، الامام التاسع

ثار محمد الجواد بمكة ضد الخليفة المأمون، وبويع بالخلافة وسموه امير المؤمنين. وكان بعض أهله قد حسن له ذلك حين رأى كثرة الاختلاف ببغداد وما بها من الفتن وخروج الخوارج. وكان محمد بن جعفر شيخا من شيوخ آل أبى طالب يُقرأ عليه العلم، وكان روى عن أبيه علما جما، فمكث بمكة مدة. وأرسل المأمون عسكراً كثيفاً لقتاله، وكان الغلبة لجيش المأمون الذى انتصر عليه وقام بأسره. لكن المأمون عفى عنه لكبر سنه، وكان المأمون يحب العفو.

وهكذا قُدر للحركات الثورية العلوية ضد العباسيين ان تجهض فى العصر العباسى الأول، الأمر الذى أدى بالعلويين الى العودة للاستتار والتخفى، لذا اتخذت دعوتهم طابع السرية من جديد فى بلاد الأمصار. وبفضل سياسة التخفى هذه نجح العلويون أخيرا فى اقامة خلافة لهم فى المغرب هى الخلافة الفاطمية. ومن المغرب يقتربوا نحو مصر والشام والحجاز ووسعوا دولتهم بضم هذه البلاد اليها. وقاموا بمناوءة الخلافة العباسية ومحاولة القضاء عليها، لكنهم فشلوا فى ذلك فقد قضى على دولتهم الفاطمية بعد قرنين من الزمان من اقامتها لتظل

الخلافة العباسية باقية بمفردها تحكم العالم الاسلامى سياسياً وروحياً حتى منتصف القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى.

العباسيون والعلاقات الدولية

١ - مع البيزنطيين :

استمرت الحرب بين العرب والروم (البيزنطيين) منذ ظهور الاسلام، وقد حاول العرب الاستيلاء على القسطنيطنية عاصمة بيزنطة ثلاث مرات: فى عهد الخليفة عثمان بن عفان وعهد الخليفةمعاوية بن أبى سفيان وعهد الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك. وكان الأمويون قد استطاعوا، منذ أن اتخذوا الشام قاعدة لهم ودمشق حاضرة لحكمهم، أن يستفيدوا من الموقع البحرى لبلاد الشام ومن خبرة أهلها وخبرة أقباط مصر فى انشاء البحرية الاسلامية لتقف فى وجه الأسطول البيزنطى الذى كان يتسيد البحر المتوسط آنذاك. وسرعان ما تحولت هذه السيادة للبحرية الاسلامية فى العهد الأموى فتحول المسلمون من موقف المدافعين عن شواطئهم الى المهاجمين للقواعد البحرية البيزنطية فى شرقى البحر المتوسط، تلك القواعد التى كان يثب منها البيزنطيون على سواحل مصر والشام.

وتأتى جزيرة قبرص فى مقدمة هذه القواعد وهى لا تبعد عن سواحل الشام سوى اميال قليلة.

ولقد نجح معاوية بن أبى سفيان سنة ٢٨هـ فى غزو قبرص. واتجه بعد ذلك، الى محاولة فتح القسطنيطنية بحرا، وقام بعد ذلك باعداد حملتين منيتا بالفشل. كذلك منيت بالفشل المحاولة التى قام بها الخليفة سليمان بن عبد الملك بعد ذلك بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك. ويرجع فشل هذه الحملات الى حصانة موقع القسطنطنية واستبسال الروم فى الدفاع عنها، واستخدامهم للنار الاغريقية فى القتال ضد المسلمين فى عهد حكم البيت الأيسورى وكان العرب يجهلون آنذلك أمرها، فضلا عن البرد القارس الذى تعرض له المحاصرون للعاصمة وهو برد لم يعتادوا على مواجهته.

ولقد أدى فشل المحاولات البرية فى فتح القسطنطينية من جانب المسلمين الى التفكير فى فتحها بحريا، الأمر الذى دفعهم الى الاهتمام ببحريتهم واسطولهم. ولقد استفاد المسلمون فى حربهم ضد البيزنطيين من الاضطراب الذى وقع فى بيزنطة بسبب ما عرف باسم الحرب اللاأيقونية (حركة تحريم عبادة الصور الدينية والتماثيل)، والأيقونة هى لفظ يونانى من Icons بمعنى الصور أو الرسم التى تمثل السيد المسيح والعذراء والقديسين، وقد شغلت هذه المشكلة المجتمع البيزنطى مدة تزيد على قرن من الزمان وحمل لواءها الامبراطور ليو الثالث (٩٩ - ٧١٧/١٢٤ - ٧٤١م) حينما صمم على وضع حد لهذه العادات الوثنية بعد أن أصبحت ظاهرة متفشية بين رعاياه، فقام بشن حملة على أنصارها. وقد أشتد الجدل والنزاع حول مسألة الأيقونات واتهم خصوم ليو الامبراطوروعدائه للأيقونة بتأثره بمؤثرات اسلامية وحزوه حزو الخليفة الأموى يزيد

إبن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥هـ) الذى أمر بازالة الأيقونات المقدسة من جميع الكنائس الموجودة فى الدولة الاسلامية. واصدر الامبراطور ليو سنة ١٠٨هـ يطلب فيه رفع الصور المقدسة وتدميرها. وأدى هذا المرسوم الى معارضة الرهبان وبطريرك القسطنطينية وبابا روما له، وأدى ذلك الى زيادة الفوضى فى الدولة. وزادت الهوة بين روما والقسطنطينية حين أصدر البابا سنة ٧٣١م قرار الحرمان ضد ليو وضد كل من يحارب الأيقونات. وترتب على كل هذا أن سادت الفوضى فى البلاد فاستغل المسلمون حالة الفوضى هذه فى الدولة البيزنطية وزادوا من هجماتهم عليها وحاولوا أكثر من مرة اسقاط عاصمتهم القسطنطينية.

وعلى جانب آخر فلقد استفاد الروم، كذلك، من الاضطرابات التى وقعت فى الدولة الاسلامية فى أواخر العهد الأموى، الأمر الذى أضعف المسلمين أمام البيزنطيين وصرفهم عن الجهاد ضدهم الى مقاومة الفوضى التى سادت بلادهم. فنجد الامبراطور البيزنطى قنسطنطين الرابع يجد فى هذه الاضطرابات فرصة سانحة لشن الغارات على البلاد الاسلامية المتاخمة لحدوده وفى العهد العباسى الأول تغيرت الأحوال فى العلاقة بين المسلمين والبيزنطيين نتيجة لانتقال الخلافة الى بيت حاكم جديد وما ترتب على ذلك من قلة اهتمام العباسيين بالبحرية الاسلامية فى شرقى البحر المتوسط وازدياد اهتمامهم بها فى الخليج العربى مع تركيزهم على القوة البرية عموما دون القوة البحرية. فضلا عن عدم ثقة العباسيين بأهل الشام ثقة الأمويين بهم، ومن ثم فقد قل اهتمام العباسيين عن الأمويين بالبحرية الاسلامية فى حوض البحر المتوسط، مثلما قل اعتمادهم

على أهل الشام فى دفاعهم عن دولتهم.

وقد ترتب على هذه العوامل الجديدة أن أصبح النزاع بين العرب والبيزنطيين ينحصر فى اغارات حدودية الغرض منها الهدم والتخريب، أى انحصرت فى تلك الغارات التى كانت تقع عبر المنطقة الفاصلة بينهما، التى عرفت عند المسلمين باسم الثغور أو العواصم، وهى تشمل الخط الممتد من جبال طوروس الى قبادوقيا، والثغور جمع ثغر، وهى تعنى خط الحصون الخارجى الممتد برا وبحرا من ملطية على الفرات الأعلى الى طرسوس على ساحل البحر المتوسط، وقد سميت كذلك لمواجهتها للثغور والمنافذ التى فى أرض العدو وهى مقام يقيم فيه الجند لدفع العدو أو لغزو بلاده.

وكانت الغارات الحدودية بين العباسيين والبيزنطيين تحدث فى اغلب الأحيان فى فصل الصيف نظرا للطبيعة الجبلية لهذه المنطقة التى يصعب التحرك فيها شتاءً لتغطية الثلوج لقمم جبالها، ولذلك عرفت هذه الغارات باسم الصوائف. كما كانت هناك غارات تتم فى الشتاء لكنها قليلة عرفت بالشواتى وكان خروج الصوائف يتم ما بين منتصف شهر مايو ولمدة شهر والشواتى فى منتصف شهر مارس ولا تزيد عن عشرين يوما.

وقد لجأ العباسيون الى تقوية الحاميات الموجودة فى منطقة الثغور فنقلوا اليها كثيرا من القبائل العربية للاقامة فيها وهم على أهبة الاستعداد للجهاد ورد غارات البيزنطيين، وكانوا فى رباط دائم لذا عرفوا بالمرابطين. ووجه الرشيد

عنايته الخاصة بهذه المنطقة بأن هيأ لها وسائل الحكم الذاتى ووسائل الدفاع الخاصة بها دون الرجوع الى عاصمة الخلافة. فقام باصلاح ادارى عام وذلك بفصلها عن ولاية الجزيرة وقنسرين وجعلها ولاية مستقلة، عرفت بولاية الثغور، وجعل عاصمتها طرسوس .

وتواصلت الهجمات بين الطرفين، وكان البيزنطيون يسارعون، بمجرد تدخل القوات الاسلامية فى منطقة حدودهم، الى طلب الصلح مع المسلمين ويرتضون دفع الجزية، وحين تتاح لهم فرصة الانقضاض ونقض الصلح كانوا يعودون الى ذلك ويمتنعون عن أرسال الجزية مما يضطر الدولة الاسلامية الى معاودة مهاجمة الحدود.

وفضلا عن طابع التخريب الذى اتسمت به هذه الحملات فقد ترتب عليها أيضا كثرة الأسرى من الجانبين الأمر الذى أدى الى تفكير كل من الدولتين فى تبادل الأسرى أو فداءهم. وقد حدث أول فداء للأسرى بين العباسيين والبيزنطيين سنة ١٨٩هـ فى عهد خلافة الرشيد، ثم تتابع الفداء بعد ذلك. ولقد ورد فى كتاب تاريخ الرسل والملوك للطبرى وكتاب التنبيه والاشراف للمسعودى وصفا للأفدية بين المسلمين والروم فى العهد العباسى، ويتضح لنا من هذا الوصف الطريقة التى أتبعت فى فداء الأسرى وأعداد هؤلاء الأسرى من الجانبين. ويروى الطبرى أنه فى المحرم من سنة ٢٣١هـ جرى الفداء بين المسلمين والروم، وكان عدد الأسرى الذين مع الروم أكثر من الأسرى الذين مع المسلمين، فرأى الخليفة

الواثق أن يكمل النقص بشراء رقيق الروم من الأسواق، كما أخرج من قصره كثيرا من الجوارى الروميات حتى تكافأ عدد الروم مع عدد أسرى المسلمين. واستمر هذا الفداء أربعة أيام، وبلغ عدد من أفتدى أثناءها من المسلمين أربعة آلاف وأربعمائة أسيرا من الرجال والنساء. وقد تمت عملية تبادل الأسرى على نهر صغير غربى مدينة طرسوس بآسيا الصغرى، ويقال له نهر اللامس. وأضاف الطبرى أن المسلمين أقاموا على هذا النهر جسرا وكذلك الروم، فكان المسلمون يطلقون أسرى الروم على جسرهم وكذلك كان يفعل الروم بأسرى المسلمين.

واذا ما تتبعنا تاريخ الاغارات بين المسلمين والبيزنطيين فى العهد العباسى الأول نرى أن البيزنطيين بدأوا بشن غارتهم على أراضى الدولة العباسية فى عهد أبى جعفر المنصور سنة ١٣٧هـ، فهاجم قنسطنطين الخامس بعض أراضى الشام فى هذا العام واستولى على مدينة ملطية وخربها، الا ان المسلمين تمكنوا من استردادها من أيديهم فى العام التالى وقاموا بترميم حصونها وأودعوا فيها حامية كبيرة للدفاع عنها.

وفى سنة ١٥٥هـ نرى الامبراطور قنسطنطين الرابع يطلب الصلح مع العباسيين مقابل دفعه جزية سنوية. ونقرأ فى الطبرى عن الصوائف التى قام بها المسلمون ضد الروم فى سنوات ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨هـ على التوالى وذلك فى أواخر عهد خلافة المنصور. وفى سنة ١٥٩هـ خرج الخليفة المهدى بنفسه على رأس جيش كبير لغزو بلاد الروم. كذلك نسمع عن حملات على بلاد الروم فى

سنوات ١٦٠ و١٦١هـ، كان النصر فيها يتأرجح بين المسلمين والروم.

وفى سنة ١٦٣هـ أغار الروم على حدود الدولة العباسية واستولوا على مدينة مرعش، وأحرقوها، فأرسل المهدى لهم جيشا، غير أن الروم عادوا الى بلادهم، ثم أغاروا مرة أخرى على الحدود، فخرج المهدى على رأس جيش يبلغ مائة وخمسين ألفا فهزم الروم الذين تعهدوا بدفع الجزية .

وفى سنة ١٦٥هـ أغار المهدى ثانية، على بلاد الدولة البيزنطية على رأس جيش كبير، ووصل هذا الجيش الى سواحل البسفور، وأرغم الامبراطورة ايرين، أرملة الامبراطور ليو الرابع، وقد كانت هذه الامبراطورة وصية على ابنها قنسطنطين السادس بعد وفاة زوجها سنة ١٦٤هـ، أن تدفع للمسلمين تسعين ألف دينار جزية سنويتوأن تسلم أسرى المسلمين. وقد تميز عهد المهدى بكثرة حروبه مع البيزنطيين وكثرة انتصاراته عليهم، الأمر الذى جعل ملوك الروم يخافونه ويهابونه.

وفى خلافة الرشيد أرسل الامبراطور نقفور الأول، الذى اعتلى العرش بعد ايرين (سنة ١٨٦هـ)، أرسل فى سنة ١٨٧هـ كتابا ينقض فيه الهدنة ويلح فى استعادة الجزية التى كانت قد دفعتها الامبراطورة ايرين للمسلمين وقد جاء فى خطاب نقفور للرشيد قوله: «من نقفور ملك الروم الى هارون ملك العرب، أما بعد، فان الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق فحملت اليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل أمثاله اليها، لكن ذلك

ضعف النساء، وحمقهن، فاذا قرأت كتابى فأردد ما حصل قبلك من أموالها والا فالسيف بينى وبينك».فغضب الرشيد من هذا الخطاب ورد على ظهره قائلا: «بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين الى نقفور كلب الروم، أما بعد فقد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه دون أن تسمعه، والسلام». وخرج الرشيد على رأس جيشه الى آسيا الصغرى لمحاربة نقفور، وبالفعل اوقع الهزيمة به واضطره الى عقد الصلح ومواصلة دفع الجزية.

ولم تقتصر حروب الرشيد مع الروم على آسيا الصغرى، بل تعدتها الى البحر المتوسط، ففى سنة ١٩٠هـ غزا العباسيون جزيرة قبرص وأسروا منها ستة عشر ألفا، وكان من بينهم أسقف الجزيرة.

وفى عهد خلافة الأمين، لم تقع حروب بين العباسيين والروم لانشغال الأمين بأمر الصراع مع أخيه المأمون على الخلافة.

وفى عهد المأمون عاد الصراع ثانية بين الجانبين، فقد شجع المأمون الثائر توماس الصقلى الذى ثار فى آسيا الصغرى على الامبراطور ثيوفيل وأمده بالمال والرجال وعمل على تتويجه امبراطورا على الدولة البيزنطية ولكن خطته بصدد ذلك لم تتم. واتبع الامبراطور البيزنطى نفس هذه السياسة مع الخليفة العباسى فجعل بلاده موئلا لجماعة الخرمية الثائرين ضد المأمون، والذين اتخذوا من مدينة حران قاعدة لهم واستطاعوا بفضل مساعدة البيزنطيين اجهاد الخلافة العباسية مدة اثنتين وعشرين سنة. الا أن امبراطور الروم استسلم فى النهاية وعرض

الصلح على المأمون، ولكن المأمون رفض الصلح معه لأنه كان يستهدف فتح القسطنطينية، ولذلك خرج فى سنة ٢١٨هـ لقتال الروم، لكن الأجل وافاه وهو فى طرسوس فمات ودفن بها.

وفى عهد خلافة المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ) ازدادت العلاقة سوءا بين الروم والمسلمين. وقد نجح المعتصم، بفضل قائده الشجاع الأفشين، فى القضاء على جماعة الخرمية وقتل بابك الخرمى وصلبه وتفرق أشياعه سنة ٢٢٣هـ. ولقد انتهز الامبراطور البيزنطى فرصة انشغال المعتصم بذلك فأغار على مدينة زبطرة وأحرقها وأسر من فيها من المسلمين وأوقع بهم أشد أنواع التعذيب. ولما بلغ الخبر المعتصم كبر الأمر عنده، وبلغه أن امرأة هاشمية صاحت وهى أسيرة فى أيدى الروم: «وامعتصماه»، فأجابها، وهو جالس على سريره: «لبيك.. لبيك»، ونهض من ساعته وصاح فى قصره: «النفير.. النفير».

فسار المعتصم، من فوره، على رأس جيشه الى أنقرة، وهزم الامبراطور البيزنطى سنة ٢٢٤هـ، واستولى على أنقرة، ثم قام بتخريب عمورية، بعد استيلائه عليها؛ تنكيلا بالامبراطور البيزنطى تيوفيل الذى ولد فى هذه المدينة، وتركها المعتصم للنهب والتدمير والاحراق مدة أربعة أيام كاملة انتقاما مما فعله الروم فى زبطرة. ولما عاد المعتصم الى عاصمته سامرا احتفل باستقباله احتفالا هائلا بعد هذا النصر المؤزر، ولقد مدحه الشاعر العربى المشهور أبو تمام الطائى بقصيدته البائية، التى قال فى مطلعها:

وقرر المعتصم، بعد هذه المعركة،أن يعد العدة للتوجه لفتح القسطنطينية، آخر ما تبقى للدولة البيزنطية من مدن كبرى، وقد أعاد بذلك الخطط الطموحة التى رسمها خلفاء الأمويين من قبل، لكن الذى أجل خطته، هو عودته سريعا الى بلاد الشام لاكتشافه مؤامرة دبرها الجند لصالح ابن أخيه العباس بن المأمون بتأييد من الجانب العربى ضد الجانب التركى، فعاد وقضى على هذه المحاولة، وبعد ذلك وافاه الأجل. فلم يقم بتنفيذ فتح القسطنطينية، ولم يفكر ابنه الواثق من بعده، فى فتح هذه المدينة واكتفى بالخطط الدفاعية مؤجلا بذلك اسقاط هذه المدينة فى يد المسلمين مدة ستة قرون (١٤٣٢م) حين سقطت على يد السلطان العثمانى محمد الفاتح.

ولقد ظلت العلاقة بين المسلمين والبيزنطيين تسير من حالة الهجوم الى الهجوم المضاد حتى نجح السلاجقة الأتراك الذين آلت اليهم السلطة فى الدولة العباسية فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى، فى فتح آسيا الصغرى، بلاد الروم ونشر الاسلام فيها.

٢ - مع الأمويين فى الأندلس ودولة الفرنجة:

أخذ سلطان العباسيين يضعف فى بلاد الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية فى دمشق، ذلك بسبب النزاع القائم هناك بين العرب والبربر من ناحية، وبين العرب وبعضهم البعض: اليمانية ضد المضرية (القيسية). ولقد استمر هذا

الصراع قائما بين الطرفين شديدا ومتأججا الى ان نجح أحد أمراء البيت الأموى وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، المعروف بعبد الرحمن الداخل، من النجاة سنة ١٣٨هـ بنفسه من مذابح العباسيين ونجاحه فى الهرب الى الأندلس عبر مصر وبلاد المغرب، وهنالك نجح فى اقامة دولة أموية مستقلة تماما عن الخلافة العباسية ليعيد بذلك ملك الأمويين فى المغرب بعد أن انتهى ملكهم فى المشرق.

ولكن خلفاء العباسيين لم يرتاحوا لهذا النجاح الذى حققه الأمويون فى الاندلس، ولم يهدأ بال للمنصور من ناحية عبد الرحمن الداخل فوضع فى سياسته ضرورة القضاء عليه وعلى دولته واعادة بلاد الاندلس، كما كانت، الى حظيرة الخلافة العباسية. فاتجه أول ما أتجه، المنصور الى استغلال الصراع القبلى بين القبائل العربية فى اثارة المتاعب والفتن ضد عبد الرحمن. لكن عبد الرحمن تنبه لهذا المخطط ونجح فى حل مشاكله الداخلية وفى تسكين العصبية القبلية العربية فى بلاده.

ولما لم تنجح خطة المنصور فى إثارة العصبية القبلية بالاندلس، لجأ الى استخدام القوة، فأرسل فى سنة ١٤٦هـ، قوات له من افريقية الى الاندلس للقضاء على قوة عبد الرحمن الداخل، وكانت هذه القوات تحت قيادة العلاء بن المغيث اليحصبى. والتقت قوات اليحصبى بقوات عبد الرحمن بنواحى أشبيلية، ودارت معركة بينهما لعدة أيام انتهت بهزيمة اليحصبى وقواته وقتل اليحصبى

نفسه وارسال رأسه مع بعض التجار، الى المنصور أثناء أدائه فريضة الحج. ولما رأى المنصور رأس قائده أمامه مضرجة فى دمائها أصابه الذعر وقال: جملته المشهورة شاهداً فيها على قوة بأس عبدالرحمن «الحمد لله الذى جعل بيننا وبينه بحرا».

ولما فشلت خطة المنصور الحربية مع عبد الرحمن الداخل، عمل على استمالته، باظهار اعجابه بقدرته وعزيمته التى جعلته وهو شريد طريد يخترق المغاور ويتغلب على الصعاب وينجح فى تأسيس هذا الملك الواسع فى تلك البلاد البعيدة، ومن ثم أطلق عليه المنصور لقب «صقر قريش».

ولما لم يظفر المنصور كذلك بشىء من وراء سياسة المسالمة هذه، طرق باب التحالف مع الفرنجة الكارولنجيين فى بلاد غاليا (فرنسا الحالية) للاطباق على عبد الرحمن الداخل بقوات الفرنجة وقوات العباسيين من الشمال والجنوب ووضعه بين كفى الرحى. وكان العداء بين المسلمين بالاندلس وبين الفرنج فى غاليا قد اشتد، وزاد ضغط الفرنج على مسلمى الاندلس عقب انتصارهم عليهم فى معركة بلاط الشهداء (توربواتييه) ونجاحهم فى طرد العرب من جنوب فرنسا بعد تلك المعركة الى ما وراء جبال البرانس.

ولقد أدت وحدة الهدف والعداء المشترك بين العباسيين والفرنج من جهة ضد الأمويين فى الاندلس الى قيام اتفاق بينهما على ارسال حملتين فرنجية وعباسية فى وقت واحد من الشمال والجنوب للاطباق على عبد الرحمن الداخل.

وكان ذلك بمثابة انقلاب فى مفاهيم العصر بأن غدت السياسة، لا الدين، تحدد علاقات الدول بعضها ببعض.

وكانت تتنازع العالم المسيحى آنذاك ثلاث قوى: البابوية والامبراطورية ودولة الفرنجة. وقد نجح شارلمان ملك الفرنجة فى كسب البابوية الى جانبه وأن يتوجه امبراطورا سنة ٨٠٠م فى كنيسة القديس بطرس بروما. وبذلك أعتبر شارلمان نفسه حاميا لحمى العالم المسيحى كله شرقه وغربه، الأمر الذى أغضب أباطرة بيزنطة وأوقع العداء السياسى بين امبراطور بيزنطة ودولة الفرنجة، فضلا عن العداء المذهبى بينهما. من أجل ذلك جاء التقارب بين العباسيين والفرنجة معادلا لعدائهما المشترك للبيزنطيين ولأمويى الأندلس، ومن هنا كان التقارب بين الفرنجة فى عهد شارلمان والعباسيين فى خلافة الرشيد.

ولقد فشلت خطة كل من العباسيين والفرنجة في مداهمة عبد الرحمن الداخل في وقت واحد، فلقد سبق مجيء الحملة العباسية الحملة الفرنجية، وقد منيت بالهزيمة كما سبق أن أوضحنا، ولما جاءت القوات الفرنجية بلاد الاندلس لقتال عبد الرحمن وجدت العباسيين وقد انهزموا فما كان منها الا أن تتقهقر الي بلادها مغادرة الاندلس دون قتال بعد تأكدها من فشل الخطة التي وضعها كل من شارلمان والرشيد للقضاء علي عبد الرحمن الداخل.

وعلي الرغم من فشل هذا المخطط الفرنجي العباسي العسكري، فقد ظلت العلاقات الودية قائمة بين الجانبين العباسي والفرنجي في عهد الرشيد. وقد

اتسمت هذه العلاقة بتبادل السفارات بينهما وتبادل الهدايا ولقد أشارت المصادر الفرنجية إلى قيام ثلاث سفارات بين الحاكمين الفرنسي والعباسي في الفترة ما بين سنوات ١٨١ - ١٨٥هـ/٧٩٧ - ٨٠١م. ويظهر كتاب تاريخ مملكة الفرنجة وكتاب سيرة الامبراطور شارلمان لاينهارت مزيدا من التفصيلات حول هذا الموضوع فيما جري من علاقات بين الرشيد وشارلمان، في الوقت الذي لاذت فيه المصادر الاسلامية بالصمت الأمر الذي جعل بعض الدارسين المحدثين يتشككون في صحة تلك السفارات ويعتبرونها نوعا من الوهم التاريخي.

وحقيقة فان المعلومات المتواترة عن علاقات شارلمان بالرشيد تحمل طابع المبالغة، ذلك لأن معظمها مستمد من كتاب اينهارت عن سيرة شارلمان، وقد اسرف اينهارت في تصوير مدي ما تمتع به سيده شارلمان من نفوذ في العالم الاسلامي. كذلك أسرف في ذكر الهدايا التي أرسلها الرشيد الي شارلمان وقد ذكر أنه جاء من بينها فيل وساعة مائية، عدها شارلمان ورجاله ضربا من ضروب السحر. الا أن أهم ما ذكره اينهارت أن الرشيد أرسل الي شارلمان مفاتيح بيت المقدس ومفاتيح كنيسة القيامة بالقدس، كما منحه حق حماية الحجاج المسيحيين الي الأراضي المقدسة المسيحية بفلسطين. الا أن الدراسات الحديثة أثبتت عدم صحة هذا الرأي الأخير. وربما كان أقرب الي الصدق تلك الرواية التي تقول بأن الرشيد قال لسفراء الفرنجة حين قدموا الي بلاطه: «سأجعل له (أى لشارلمان) الأرض المقدسة وأكون نائبه فيها وسأجعله يرسل الي مبعوثين كلما أراد وسوف يجدني نائباً أميناً. ذلك لأنه لم يكن من حق شارلمان أن يزعم لنفسه حق

السيادة، ولا حتي السيادة الاسمية علي كل المسيحيين في الدولة الاسلامية.
ولقد حدث أن توسط شارلمان أيضا، لدي صديقه الخليفة الرشيد لصالح المسيحيين في الشرق، واستجاب الرشيد لمسعاه بالسماح لكنائس بيت المقدس والاسكندرية وقرطاجة وسائر الكنائس بالمشرق بأن تتمتع بقدر من الحرية، وبذلك أصبح شارلمان، في نظر كتاب الغرب، حامي حمي المسيحيين الذين يفدون الي البلاد الاسلامية لأداء فريضة الحج، وان كانت هذه الحماية، في حقيقتها حماية شرفية.

ولقد اقتصر هذا التحالف بين العباسيين والفرنجة علي تبادل السفارات والهدايا دون أن يؤدى الي تحقيق الغرض المنشود من قيامه، وهو القضاء علي الأمويين بالأندلس الأمر الذي يحقق حلم العباسيين والقضاء علي الامبراطورية البيزنطية وتحقيق سيادة شارلمان علي كل الامبراطورية الرومانية الشرقية والغربيةبعد توحيدهما، الأمر الذي يحقق طموحات امبراطور الفرنجة شارلمان. وقد رد كل من الأمويين بالأندلس والبيزنطيين علي هذا التحالف ضدهما بتبادل السفارات وتوطيد أواصر الصداقة بينهما وان لم يؤد هذا التقارب بينهما، بدوره، الي القيام بأى عمل عسكري مشترك ضد العباسيين أو ضد دولة الفرنجة.

٣ - علاقة العباسيين مع بلاد التركستان ووسط آسيا:

كانت سنة ٨٦هـ/٧٠٥م بداية تحول جديد فى تاريخ العلاقات العربية التركية، اذ بدأ الفتح الحقيقى لأقليم ما وراء النهر وبدأ الاقتحام الحقيقى لقلب المقارمة التركية. ثم تتابعت الجهود الأموية، من بعد هذا العام، تلح على هذا الاقليم وتتدافع اليه، حتى أصبح للأمويين دور مرسوم فى تاريخ التركستان، وهو دور التغلب على مقاومة الامارات التركية فى البلاد وتثبيت النفوذ العربى فيها، ثم التمكين للاسلام من أن ينتشر بين أهلها.

وكان عصر الوليد بن عبد الملك هو عصر استئناف الفتوح العربية فى كل مكان تقريباً ففى ذلك الوقت كانت قوات موسى بن نصير تدخل المغرب، كما كانت القوات العربية تستعد لغزو اقليم السند. ولقد استطاعت الدولة الأموية ان تجهز جيشاً فى خراسان قوامه سبعين ألفاً لفتح التركستان بقيادة القائد العربى الشهير قتيبة بن مسلم الباهلى الذي اقترن اسمه بالفتوح في اقليم التركستان. وقد استخدم قتيبة عدداً من أهالى البلاد الترك فى حملاته اضافة الى من وفد اليه من المتطوعين من بخارى وخوارزم وغيرها من المدن.

ولقد استغرقت حملات قتيبة بن مسلم فى بلاد ما وراء النهر نحو عشر سنوات حافلة بالتوفيق والنصر وصلت فيها قواته حتى مدينة كاشغر على حدود الصين سنة ٩٦هـ/٨٠٤.

وقد دخل الاسلام على يد قتيبة مئات الألوف من الترك لما رأوا من فضائل

الاسلام واخلاص رجاله وتفانيهم، ولما رأوه يحطم أصنامهم ويحرقها دون ان تدافع عن نفسها ويقول المؤرخون انه دخل فى الاسلام فى ساعة واحدة ما يزيد على مائتى الف رجل.

ولما كان قتيبة يستعد لفتح بلاد الصين جاء الخبر بوفاة الخليفة الوليد وتولى أخيه سليمان بن عبد الملك الخلافة، وقد قام سليمان بعزل قتيبة من ولاية خراسان وبلاد ما وراء النهر بسبب ما كان بينهما من عداء، وأمر بالقبض عليه وارساله اليه مقيداً بالسلاسل الى واسط حيث أودع السجن حتى مات هنالك بعد قليل سنة ٩٦هـ.

على أن جهود الأمويين بعد قتيبة، أى فى الفترة من سنة ٩٦ الى سقوط الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ، كانت منصرفة الى خوض معركة السيادة العربية. والدفاع عن المكاسب التى أحرزها العرب والتمكين للنفوذ الاسلامى من أن ينتشر انتشاراً طبيعياً.

ولقد أفاد العباسيون من الجهود التى بذلها الأمويون لنشر الاسلام فى بلاد ما وراء النهر واستطاعوا أن يجتذبوا جماهير المسلمين هناك لمبادئ الدعوة القائمة على العدل والاصلاح والامامة للرضا من آل محمد. وكانت الصين قد انتهزت فترة التحول بين الدولة الأموية والدولة العباسية وانشغال العباسيين بتوطيد أركان دولتهم الناشئة، فقامت ببسط نفوذها على الأتراك شرقى نهر سيحون، وقامت بالاستيلاء على طرق القوافل التى تعبرها متاجر الشرق

الأقصى الى ما وراء النهر والشرق الأوسط وأوربا. ولما فرغ القائد العباسي زياد إبن صالح من اخماد الفتن الداخلية والثورات فى خراسان، تقدم نحو بلاد ما وراء النهر وتصدى لقوات الجيش الصينى وأنزل به هزيمة ساحقة سنة ١٣٤ هـ فى معركة على نهر طراز، وقد ذكرت الروايات العربية انه قتل من الصينيين خمسين الفاً وأسر عشرين الفاً منهم.

وكان من أثر ذلك النصر أن خرجت الصين من المعركة مع المسلمين وبقى الأتراك الشرقيون وحدهم فى مواجهة قوات المسلمين فى غرب بلاد ما وراء النهر، وكانت وحدة هؤلاء الأتراك الشرقيين قد تفتت وتقسمت بلادهم الى إمارات صغرى متناثرة حول حدود اقليم ما وراء النهر ولم تعد جموع الاتراك الشرقيين تشكل خطراً كبيراً على اقليم ما وراء النهر.

وقد عمد العباسيون الى بناء الأسوار والقلاع قرب بخارى وفي بلاد الشاش لحمايتها ضد غارات قبائل الأتراك الشرقيين فى جميع بلاد التركستان ووسط آسيا، ونجحوا فى احراز النصر على أمراء هذه البلاد.

ففى عهد المنصور، هاجمت القوات الاسلامية إمارة فرغانة واضطرت أميرها الى طلب الصلح ودفع الجزية. وتابع المهدي سياسة المنصور بارسال حملة بقيادة أحمد بن أسد الى اقليم الصغد وفرغانة، ونجحت هذه الحملة فى تحقيق أغراضها واعلان أمراء هذه الولايات بالخضوع لطاعة الدولة العباسية.

وفى عهد الرشيد أرسلت حملة أخضعت ملك أشروسنة لنفوذ المسلمين.

وقد وضحت ثمار هذه الانتصارات العباسية فى عهد الخليفة المأمون، فقد أرسلت بلاد الصغد وأشروسنة وفرغانة سفرائها الى بلاط المأمون لتقديم فروض الطاعة، وبذلك أمتد وتثبت النفوذ الاسلامى بالفعل فى هذه البلاد الى حدود سور الصين العظيم.

ولقد صحب هذا الغزو الاسلامى لبلاد ما وراء النهر حركة نشر الاسلام بين أهالى هذه البلاد وتحويلهم عن الوثنية التى كانوا فيها الى اعتناق الدين الحنيف. وقد أقبل هولاء الأتراك على الاسلام اقبالاً كبيراً وتحولت كل بلاد ما وراء النهر تقريباً، الى الاسلام، وخرّجت هذه البلاد أعلاماً من أشهر اعلام الحضارة الاسلامية فى شتى العلوم والفنون.

ولقد ساعد على انتشار الاسلام بين الأتراك فى ذلك العهد، استخدام العباسيين للأتراك فى الجيش وفى وظائف الدولة وتوسعهم فى ذلك. وأنشأ الفضل بن يحيى البرمكي فرقة كبيرة من الأتراك الغربيين، بلغ عددهم خمسين ألفاً أطلق عليهم اسم الفرقة العباسية، أرسل الى بغداد عشرين ألف منها، وأبقى فى خراسان الثلاثين ألف الباقية. وقد ضم جيش طاهر بن الحسين الذى حارب مع المأمون حوالى سبعمائة رجل من الخوارزمية الشجعان.

ولقد إستن المأمون سُنةً جديدة حينما دعا كثيرين من زعماء الأتراك الى الدخول فى خدمته ودعا زعمائهم الى بغداد وأغدق عليهم، وأشرك المأمون فرسان الترك فى الحرس الخليفي لأول مرة. واستمر هذا التقليد قائماً فى عهد

المعتصم، الذى كان يميل الى الترك لأن أمه كانت جارية تركية، فكان في حرسه قواد من أقاليم الصغد وفرغانة وأشروسنة والشاش، وكلها من أقاليم بلاد ما وراء النهر وكانوا دعامة جيش الخلافة فى عهده.

وفى عهد المعتصم رسخت قدم الاسلام فى بلاد ما وراء النهر، وبدأ الأتراك، أنفسهم ، يتبنون حركة الجهاد بين جيرانهم الأتراك الشرقيين ونشر االاسلام بينهم. يقول البلاذري فى ذلك: (كان جل عسكر المعتصم من ترك ما وراء النهر من الصغد الفراغنة وأهل الشاش وغيرهم، ولقد حضر ملوكهم إلى بابه وغلب الإسلام على ما كان هناك وصار أهل تلك البلاد يغزون ما وراءهم من الترك ففتح مواضع لم يصل إليها أحد من قبله).

وقد تبع انتشار الاسلام، على ذلك النحو فى بلاد ما وراء النهر ووسط آسيا، سير الثقافة العربية الاسلامية فى طريقها المرسوم، فلم تعد هذه الثقافة ثقافة الوافدين من العرب، إنما صارت ثقافة أهل البلاد الذين توطن الاسلام والعربية بينهم، والذين بدأوا، بعد تعلمهم العربية، يضيفون الكثير الى النتاج الحضارى الاسلامى.

واذا كانت مدارس ما وراء النهر قد ازدهرت فى عهد الطاهريين والسامانيين، حينما برزت بخارى وسمر قند كمراكز للعلم والثقافة الاسلامية، فليس من شك أن الخطوات الأولى التى أدت الى هذا التطور قد تمت فى القرنين الثانى والثالث الهجريين أيام تبعية هذه البلاد للخلافة العباسية.

ومن الممكن أن نكشف عن الجهود التى بذلها أعلام الاسلام والحضارة الاسلامية من أهالى بلاد ما وراء النهر اذا درسنا، بتعمق، كتب الطبقات المختلفة كطبقات الحفاظ والفقهاء والقراء واللغويين والنحاة والمفسرين والأطباء، فلا شك فى أننا نجد مادة غزيرة فى هذه الكتب تلقى ضوءاً على هذه الجهود المشكورة التى بذلها علماء هذه البلاد المسلمين. ومما لا شك فيه أن بروز علماء أهل تلك البلاد، معلمة للدين والثقافة لا متعلمة لم يكن مقصوراً على بلاد ما وراء النهر بل شمل العالم الاسلامى كله مثل: الامامين البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه وأبو داود والفراء والفارابى والشيخ الرئيس ابن سينا، والطبري والخوارزمي والبيروني وغيرهم، أمر لم يتم بين عشية وضحاها، بل لابد وأن يكون قد سبق هذا الجيل جيل آخر مهد لظهور هؤلاء الأعلام العظام من أعلام الحضارة الاسلامية الخالدين.

العصر العباسي الثاني
(٢٣٢ - ٦٥٦هـ)

كما سبق أن أوضحنا، فإن المؤرخين اصطلحوا على تقسيم تاريخ الدولة العباسية إلى عصرين: العصر العباسى الأول والعصر العباسى الثاني، وقد أقاموا هذا التقسيم على أساس مدة قوة هذه الدولة وقوة نفوذ خلفائها. وقد اعتبروا عام ٢٣٢هـ، وهو عام وفاة الخليفة الواثق بالله، هو نهاية العصر الأول، وبداية العصر الثانى الذى جعلوا عام ٦٥٦هـ، عام نهاية العصر الثانى ونهاية الدولة العباسية فى العراق، بسبب سقوطها وسقوط عاصمتها بغداد فى ذلك التاريخ على يد المغول.

وقد بلغ عدد خلفاء العباسيين جميعاً سبع وثلاثون خليفة، منهم تسع خلفاء حكموا فى العهد الأول، وحكم فى العهد الثانى ثمان وعشرون خليفة.

وفى العصر العباسى الثانى، تدهور نفوذ الخلفاء العباسيين وضاعت هيبتهم وتعرضوا للاهانة والتعذيب، وفى بعض الأحيان للقتل، وتجرد معظمهم من كل السلطان ولم يبق لهم إلا السيادة الشكلية والزعامة الروحية وانتقلت سلطة الحكم الفعلية فى عاصمة الخلافة، على التوالى الى عناصر: قادة الأتراك، ثم الفرس البويهيين، ثم الأتراك السلاجقة. ولهذا فإن العصر العباسى الثانى ينقسم بدوره من ناحية تاريخ الخلافة العباسية فى بغداد الى ثلاث فترات هى:

الأولى: فترة عهد نفوذ قواد الأتراك وعهد امرة الأمراء، وهي الفترة

الممتدة من سنة ٢٣٢هـ الى سنة ٣٣٤هـ،

والثانية: فترة حكم بنى بويه (البويهيين) الفرس، وهى الفترة الممتدة من سنة ٣٣٤هـ الى سنة ٤٤٧ هـ،

والثالثة: فترة حكم الأتراك السلجوقيين (السلاجقة)، وهى الفترة الممتدة من سنة ٤٤٧هـ الى سنة ٦٥٦هـ.

ولم يقتصر تدهور نفوذ خلفاء بنى العباس على دار الخلافة فحسب، بل تعداها الى سائر أرجاء الدولة العباسية، فتقلص نفوذهم فى الولايات، واستقل ولاة وحكام هذه الولايات بها وأقاموا لهم دولاً مستقلة فى الشرق والغرب، استقلالاً شبه كامل. ولم يبق حكام هذه الولايات من مظاهر التبعية الرسمية لدولة الخلافة، سوى رابطة الولاء الديني والتبعية الروحية المذهبية، التى تمثلت فى الدعاء للخليفة من فوق منابر الولاية فى خطبة الجمعة، ونقش اسم الخليفة على السكة الى جانب اسم الوالى، مقابل ارسال الخليفة للحكام المستقلين بولاياتهم كتاب التقليد بالولاية. ولقد حرص حكام هذه الدويلات المستقلة عن دولة الخلافة على هذه المظاهر الشكلية والصورية ليصبغوا حكمهم في ولاياتهم التي استقلوا بها، بالصبغة الشرعية للسيطرة على جماهير شعوبهم التي كانت لا تعترف بشرعية حكم لا يقره خليفة المسلمين.

وليس أدل على ذلك، من أن البويهيين، وهم شيعة زيديين، آثروا الابقاء على التبعية المذهبية للخلافة العباسية وترددوا في أمر تحويل الخلافة الى

العلويين، مع امكانهم تنفيذ ذلك حين كانت لهم السلطة الفعلية في دولة الخلافة.

ولذلك يعرف العصر العباسى الثاني أيضاً بعصر تفكك الخلافة وتناثر أجزائها، ولو أن هذا التفكك وقيام الدويلات المستقلة عن الخلافة قد بدأت أعراضه فى العصر العباسي الأول، وفى عصر الرشيد والمأمون بالذات، إلا أنه لم يُصبح ظاهرة متفشية واضحة إلا فى العصر الثاني. ولقد قامت دولة الأدارسة العلويين فى المغرب الأقصى، سنة ١٧٢هـ في عهد الرشيد، وقامت دولة الأغالبة في افريقية سنة ١٨٤هـ، في عهد حكم الرشيد، أيضاً، وقامت دولة الطاهريين في خراسان سنة ٢٠٥هـ، في عهد خلافة المأمون. ورغم ذلك، فقد كان الخلفاء العباسيون في العصر العباسي الأول من القوة والنفوذ، الأمر الذى، جعل هؤلاء الأمراء المستقلين يحرصون بدورهم، على طاعة الخلفاء واحترام الخلافة، والخوف من عقابهم على ما فعلوا، لكنهم سرعان ما استأثروا بالنفوذ والسلطان وأستأسدوا وتمتعوا بالاستقلال شبه الكامل في ولاياتهم فى العصر العباسي الثاني، لما رأوا ضعف خلفاء هذا العصر، وتيقنوا من ضياع نفوذهم وهيبتهم بسبب سيطرة كبار قواد الأتراك على زمام الأمور وعلى الخلفاء في بغداد. وقد تتابع، في العصر الثاني، تفكك دولة الخلافة وقيام الدويلات المستقلة في المشرق والمغرب، حتى أنه لم يبق للخلفاء العباسيين من نفوذ إلا في منطقة العراق الأوسط فحسب.

ولقد شهد العصر العباسي الثاني، أيضاً، تدهور النفوذ والهيمنة الدينية

والروحية للخلفاء العباسيين في العالم الاسلامي، ذلك لأنهم لم يصبحوا الخلفاء الوحيدين لزعامة هذا العالم روحياً، بل كان هنالك من شاركهم في هذه الزعامة. نقد شهد هذا العصر قيام خلافتين أخريين في بلاد المغرب ومصر والأندلس، وهما الخلافة الفاطمية والخلافة الأموية الأندلسية. ولقد أصبح هنالك، في هذا العهد، ثلاث خلافات تتصارع الزعامة على العالم الاسلامي وتتنافس فيما بينهم لكي تنفرد إحداهم بالسيادة الروحية على هذا العالم، الأمر الذي أضعف من هيبة خلفاء العباسيين على عالم الاسلام آنذاك. ولقد أدى انقسام الزعامة الروحية في العالم الاسلامي والعداء المذهبي بين هذه الخلافات الى تفكك الدولة الاسلامية، والى ضعف المسلمين بصفة عامة، الأمر الذي أطمع فيهم أعداءهم في المشرق والمغرب من صليبيين ومغول.

ظهور العنصر التركي وسيطرته على الخلافة العباسية:

ظهر عنصر الأتراك، الجديد، الى جانب عنصري العرب والفرس اللذين كانت تتكون منهما الدولة الاسلامية ويتكون منهما المجتمع الاسلامي في العهد العباسي. وكان لهذا العنصر دور وأثر كبير في الحياة السياسية والاجتماعية للدولة العباسية. وكان مقر هؤلاء الأتراك الأول منطقة التركستان الروسية، (في المنطقة المحصورة بين هضبة البامير وبحر الخزر وبحر أورال وخراسان)، في البلاد التي عرفها المسلمون ببلاد ما وراء النهر (نهر سيحون).

ولقد بُدىء في فتح بلاد الأتراك في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك

الأموي، على يد الفاتح والقائد العربي الشهير قتيبة بن مسلم الباهلي، وقد عرف العرب في هؤلاء الأتراك عنصراً قوياً خشناً ومحارباً من الطراز الأول. ولقد عامل الأمويون وولاتهم على بلاد الترك، هذا الشعب معاملة طيبة، ولم يعتبروهم شعباً مغلوباً يستحق معاملة الشعوب المغلوبة، بل رفعوا من شأنهم وأشركوهم معهم في الحكم والجندية، وأشركوهم معهم في غزو ما وراء بلادهم من قبائل الترك التي كانت لا تزال على الوثنية. كذلك أبقوا على ملوكهم وحكامهم في حكم ولاياتهم، كما أبقوا على نظمهم في الحكم. وكان كل ما على الأتراك أن يتحالفوا مع الدولة الاسلامية وأن يخلصوا الطاعة والولاء لولاتها، أصحاب السلطة العليا في البلاد، والذين يستندون على حاميات عربية قوية وُضعت في المدن الهامة من بلادهم مثل مدن بخارى وسمر قند.

ولقد انتشر الاسلام بين القبائل التركية التى تواجدت في القرن الثاني الهجري داخل بلاد ما وراء النهر، بين قبائل الكارلوك في أعالي نهر سيحون، وقبائل الغز وقبائل القراخانية. ولقد كان القتال فاشياً بين هذه القبائل، ومن كان يُهزم منها يخضع أبناؤه وبناته للاسترقاق. فكان أبناء وبنات الأتراك يباعون في أسواق النخاسة، كما تُباع الدواب، وكانت مدينة سمرقند، أكبر أسواق تجارة الرقيق في العالم آنذاك. وكان تجار الرقيق يخطفون أطفال الأتراك ويبيعونهم فى أسواق النخاسةمن أجل ذلك تواجدت أعداد كبيرة منهم في بلاد الدولة العباسية، وبخاصة في العراق. وقد نجح هؤلاء الرقيق الأتراك في الوصول الى قصر الخلافة ببغداد، فنجد عدداً كبيراً منهم يعملون في وظائف الخدم والغلمان

والحرس الخاص في عهد الخليفة المأمون. وأخذوا بذلك يتسللون تباعاً الى المجتمع الاسلامي ويتزايد عددهم باضطراد.

ولما ظهرت للخليفة المأمون قوة العنصر التركي وامكانية استخدام هذا العنصر في الجيش والجندية، سارع واستخدمهم في هذا الغرض. وكان المأمون قد أراد أن يوجد نوعاً من التوازن بين المحاربين من الفرس والعرب باستخدام محاربين أتراك على نطاق ضيق. ولم يكن المأمون يأمن على نفسه، آنذاك، من الفرس أو من العرب، فقد رأى العرب يقفون خلف أخيه الأمين، ورأى الفرس يطمعون في السلطة بعد ما رأى محاولات بني سهل في تحويل الحكم الى العلويين دون العباسيين. من أجل ذلك أخذ المأمون يعد له قوة عسكرية من جند الأتراك، فألحق فتيانهم، الذين يرسلهم ولاة الأقاليم الشرقية للدولة، بفرق جيشه.

وتلقف خلفاء المأمون هذه العصبية الجديدة النامية، وأرادوا الاستفادة من مواهبها العسكرية للحفاظ على دولتهم واستمرار خلافتهم. فكان أن أقدم الخليفة المعتصم على استخدام الأتراك في الجيش على نطاق واسع. فاستقدم، في سنة ٢٢٠هـ، قوماً منهم من مدن: بخارى وسمر قند وفرغانة وأشروسنة وغيرها من منطقة التركستان. وكما يقول المسعودي في ذلك: «اشتراهم وبذل فيهم الأموال وألبسهم أنواع الديباج ومناطق الذهب، وأمعن في شرائهم حتى بلغ عدتهم ثمانية عشر ألفاً» . وأضاف المؤرخون بأن المعتصم واصل الشراء

منهم حتى وصل عددهم الى سبعين ألفاً.

وكان المعتصم متأثراً في قراره بالاعتماد على جند الأتراك لأن أمه كانت جارية تركية من اقليم الصغد تسمى ماردة، كذلك إعجابه بشجاعتهم وقوة بنيانهم مثله، وجمال أشكالهم وحسن هندامهم. لذلك أحب أن يتخذ منهم حرسه الخاص، فأختار أربعة آلاف من خيرة وأنضر شبابهم وجعلهم حرساً خاصاً له. وحرص المعتصم على تعلم هؤلاء الأتراك العربية فيسر المعلمين لهم يعلمونهم أصول وقواعد هذه اللغة. كذلك حرص المعتصم على أن تظل دماء هؤلاء الأتراك نقية ولا تختلط بدماء أخرى حتى يحتفظوا بمميزات جنسهم، فجلب لهم نساء تركيات من جنسهم وزوجهن بهم، ومنعهم من ان يتزوجوا من غيرهن.

وقد قيل أيضاً، أن من سبب ميل المعتصم للترك، أنه فقد الثقة في جند العرب وفي جند الفرس أيضاً، ذلك لأن العرب كان قد ضعف شأنهم وتفرقت قواتهم مع نهاية الدولة الأموية، والفرس كان هواهم مع العباس بن المأمون وضد تولي المعتصم، أخي المأمون للخلافة. وكان مقاتلو الفرس قد شغبوا على المعتصم، في بداية حكمه، ونادوا بالخلافة للعباس بن المأمون إلا أن المعتصم تصدى لهم وأخمد تمردهم، وقبض على العباس وسجنه وسجن أبناء المأمون جميعهم، وظلوا في حبسهم حتى الموت.

ولقد استفاد المعتصم من هذه القوة التركية العسكرية الجديدة في القضاء على الأخطار التي تعرضت لها دولته في الداخل وفي الخارج، فقد قضى بهم

على ثورة الخرمية، التي كانت من أخطر الحركات الهدامة التي هددت حكمه وهددت الاسلام ذاته. كذلك استفاد منهم في محاربة البيزنطيين وكف أذاهم عن دولته وتأمين حدودهم بهم من غاراتهم المتتالية وما كان يصحبها من تخريب وتدمير. فكانت له اليد الطولى، بسببهم، على البيزنطيين المتربعين على الحدود.

ويرغم ما استفاده المأمون من تكوين الجيش التركي إلا أن خطر هذا الجيش سرعان ما ظهر على المجتمع الاسلامى آنذاك. فلقد زاد سخط أهالى بغداد عى المعتصم بسبب استهتار الجند الأتراك بأهالي العاصمة وما كانوا يسببونه لهم من مضايقات وأذى لأطفالهم ونسائهم وشيوخهم، ولم يصبر أهل بغداد على ذلك بل جأروا بالشكوى للمعتصم من هؤلاء الأتراك المستهترين بهم وبأرواحهم. ذكر صاحب الفخرى، كما سبق أن أشرنا أن المعتصم ركب يوماً فلقيه رجل شيخ فقال للمعتصم : يا أبا إسحق لا جزاك الله خيراً عن الجوار، جاورتنا مدة فرأيناك شر جار، جئتنا بهؤلاء العلوج من غلمانك الأتراك فأسكنتهم بيننا فأيتمت بهم صبياننا وأرملت نساءنا، والله لنقاتلك بسهام السَّحَر ...، فسأل عن سهام السحر فأبلغوه بأنه الدعاء عليه وقت صلاة السحر، فخاف من قوله وسار إلى موضع سامرا فبناها».

ولقد قام المعتصم ببناء مدينة جديدة، تبعد ستين ميلاً شرقي بغداد سنة ٢٢١هـ، عرفت بسرمن رأى ثم اختصرت الى سامرا، وانتقل اليها ومعه جنده الذين شيد لهم فيها الثكنات العسكرية والاصطبلات اللازمة لاستيعابهم

واستيعاب خيولهم، واتخذها عاصمة له بدلاً من بغداد.

وزاد تمكين المعتصم للأتراك حين أسقط الجند العرب من الديوان (ديوان الجند) سنة ٢١٨ هـ، وقطع عن الجنود العرب اعطياتهم هم وأسرهم، وأحل الترك مكانهم، واعتمد عليهم كل الاعتماد. وقد أخذ نفوذ الأتراك في التزايد في عهد المعتصم بما كان يرد على البلاد منهم وبما تزاوجوا وتناسلوا، وما كاد عصر هذا الخليفة ينقض حتى كان عماد الدولة عسكرياً عليهم، وناصية الأمور في البلاد في يد قوادهم. وقد برز من هؤلاء القواد أسماء شهيرة استطاعت أن تسيطر على مقاليد الحكم، فكان لها الأثر الكبير في الحياة العامة في عهد المعتصم وعهد من جاء بعده من الخلفاء في هذا العصر الثاني. ومن أبرز هذه الشخصيات التركية القيادية: إيتاخ، وأشناس، ووصيف. وكان هؤلاء غلماناً من الترك ومماليكاً، فاشتراهم المعتصم وقربهم اليه ورفع من أقدارهم وأعلى من مكانتهم. وقد جاء على رأس هؤلاء المقربين: حيدر بن كاوس، الملقب بالأفشين، وهو لقب كان يلقب به ملوك أشروسنة من بلاد ما وراء النهر.

وكان والد حيدر ملكاً على أشروسنة، وقد ارتحل حيدر في عهد خلافة المأمون، فقربه المأمون إليه لما رأى من شجاعته وذكائه وقوة شخصيته، وأعطاه المأمون ما كان لأبيه على أشروسنة وجعله ملكاً عليها، كما جعله من كبار قواده، ومنحه لقب الأفشين. وقد خدم الأفشين الدولة في عهد المعتصم، وكان وجنوده الأتراك سند الدولة في الثورات التي اندلعت في أجزائها، وفي القضاء على

ثورة بابك الخرمي بعد هزيمته وأسره، وفي الانتصار على الروم في غزوة عمورية. وقد رفع ذلك من مكانة الأفشين عند المعتصم ورفع منزلته وجعله يخلع عليه الخلع الكثيرة.

ولقد استغل الأفشين المكانة التي وصل اليها في عهد المعتصم ودفعه طموحه وغروره للاستئثار الكامل بشئون الحكم دون الخليفة وقد تمت مراسلات بينه وبين قوات أشروسنة وصاحب اقليم طبرستان والجبل للقيام بانقلاب في عاصمة الخلافة ضد المعتصم. لكن المعتصم كان يتتبع تحركات الأفشين، وكان رجاله يرسلون تقريراتهم عنه أولاً بأول فقبض عليه قبل أن ينجز مهامه وينفذ مخططه، فحاكمه وأدانه بعد أن أثبت عليه تهمة الخيانة، وحبسه حتى الموت في السجن.

ولقد أدرك المعتصم خطورة مطامع الأتراك، وتيقن بأن التوازن بين سلطة الخلافة وهذا العنصر العسكري الجديد بدأ يختل مما ينذر بخطر ضياع الخلافة وسلطتها. ولهذا لم يتوانى في أن يوجه للأتراك، وعلى رأسهم قائدهم الأفشين، ضربة مشابهة لتلك الضربة التى وجهها المنصور لأبي مسلم الخراساني، والرشيد للبرامكة، والمأمون لبني سهل، فبطش بطشاً شديداً بالأفشين ورجاله حتى يكونوا عبرة لمن تحدثه نفسه بالتمرد على الدولة مهما كانت قوته وسلطته، وحتى يوقف تيار هذا الطموح التركي ويكبح جماحه.

ورغم بطش المعتصم بالأفشين ورجاله، إلا أنه لم يتخل عن سياسة

الاعتماد على الجند الأتراك، ويبدو أنه لم يكن فى استطاعته غير ذلك، فقد تعملق الأتراك وصاروا قوة عسكرية ليس من السهل الخلاص منها، كذلك فانه لم تكن أمامه من قوة يستطيع الاعتماد عليها غيرهم بعد أن فسدت علاقته مع كل من العرب والفرس. فلقد انقطع الود بينه وبين العرب حين اسقط جندهم من الديوان وأحل جند الترك مكانهم، وكذلك انقطع الود بينه وبين الفرس حين قضى على ثورة بابك الخرمى، التي كانت فارسية لحماً ودماً. وبعد اقصائه لهاتين العصبيتين اعتمد المعتصم على العصبية التركية التي استفحل أمرها في البلاد، وتركزت في سامرا، العاصمة الجديدة، وأحاطت بالخليفة الذي ارتمى فى احضانها، واستحوذت على أكبر مناصب الدولة.

ورث الخليفة الواثق بن المعتصم (٢٢٧ - ٢٣٢هـ) عن أبيه تركة الأتراك، كما ورث عنه العرش. ويعتبر المؤرخون خلافة الواثق فترة انتقال بين عهدين: الأول منهما هو عهد تمكين قواد الأتراك مع بقاء هيبة الخليفة، والثانى ويبتدىء بخلافة المتوكل أخي الواثق، وهو عهد تمكن قواد الأتراك مع ضياع هيبة الخليفة وانتقاص مكانته

وفي عهد خلافة الواثق بالله، تمكن قواد الأتراك، الذين إصطنعهم المعتصم، من توطيد نفوذهم وتثبيت سلطانهم، وقد نال هؤلاء القواد والرؤساء منزلة عظيمة ونفوذاً كبيراً حتى أننا نجد الخليفة يستخلف أشناس على السلطنة ويتوجه بتاج مرصع ويسوره بسوارين ذهب، فكان الواثق بذلك أول خليفة يستخلف

سلطاناً مكانه، اضافة الى ذلك فقد اسند اليه حكم اقليم الجزيرة وبلاد الشام ومصر. كما عهد الى زميله إيتاخ بولاية خراسان واقليم السند وكور دجلة. وقد ظل ايتاخ يتقدم في منزلته وتعلو مكانته حتى بلغ في عهد المتوكل ذروة المنزلة وازداد نفوذه داخل العراق وخارجه.

وكان هؤلاء القواد لا يذهبون الى ولاياتهم وأنابوا عنهم عمالاً يحكمون هذه الولايات نيابة عنهم ويرسلون اليهم دخلها وخراجها، وقد فضل هؤلاء القواد البقاء فى سامرا، الى جوار الخليفة، وفي مركز الاحداث. فأناب أشناس عنه: محمد بن ابراهيم بن الأغلب في ادارة أعمال غرب الدولة، وأناب ايتاخ عنه: عنبسة بن اسحق الضبى فى ادارة ولاية خراسان. فأستن هؤلاء القواد الأتراك بذلك سنة جديدة لم تكن معروفة من قبل، وقد كانت هذه السنة ذات تأثير سيء على وحدة الخلافة، فإن كثيراً من هؤلاء العمال الوكلاء طمعوا في ولاياتهم واستقلوا بها، منتهزين ضعف السلطة المركزية وعدم اكتراث القواد الأتراك الذين أنابوهم عنهم في ولاياتهم، وعدم معرفة الخليفة بمجريات الأمور فى الولايات. وكان لإزدياد نفوذ قواد الأتراك وبقائهم في سامرا، الى جوار بلاط الخليفة، على هذه الصورة أثره المباشر على منصب الخلافة نفسه وتعيين من يصلح له. فقد تدخل هؤلاء القواد في اختيار الخلفاء وفى توليتهم، وصاروا هم بالفعل أصحاب الحل والعقد. وكان الخليفة الواثق هو آخر الخلفاء العباسيين الذى جرت توليته على السنة التي كانت متبعة من قبل. ولما مات الواثق، دون أن يعهد لابنه محمد بالخلافة من بعده، ولم يعين ولياً للعهد بعده، وجد قواد الأتراك

الفرصة لفرض سيطرتهم السياسية في موضوع اختيار الخليفة. وهنا برزت القوة التركية الجديدة بكامل نفوذها. وتصدى هؤلاء القواد لعملية الاختيار والتعيين، وقد وضعوا في خطتهم أن يختاروا خلفاء ضعاف لتستمر سيطرتهم عليهم ويظل الحكم الفعلي في ايديهم وحدهم. ولم يوافقوا على تعيين محمد بن الواثق بحجة أن أباه لم يعينه ولياً لعهده وبالتالي لا يرضى على خلافته، واختاروا جعفراً، ابن المعتصم، ولي نعمتهم، خليفة، ولقبوه بالمتوكل على الله، وكان ذلك سنة ٢٣٢هـ.

وكان لنجاح قواد الأتراك في تولية المتوكل الخلافة اثر كبير في تولية من جاء بعده من الخلفاء، وأصبح سابقة جرت عليها الأمور من بعد، وأصبح قواد الأتراك هم أصحاب الاختيار ولا أحد دونهم ولا تتم الخلافة لأحد الا بموافقتهم ورضاهم.

ولم يقتصر نفوذ قواد الأتراك على اختيار الخليفة فحسب، بل تعداه الى منصب الوزارة، فضعفت الى جانبهم شخصيات الوزراء وكثر عزلهم ومصادرتهم وحبسهم. واستتبع ذلك انحطاط شخصيات من تولى الوزارة اذ لجأ الكثيرون الى الرشوة وبذل المال للوصول الى منصب الوزير. وبذلك وصلت الى كرسى الوزارة شخصيات هلامية، كان كل همها جمع ما انفقوا من أموال للوصول الى الكرسى والزيادة عليه بقدر ما يستطيعون وبشتى الوسائل والطرق.

وبذلك ضاعت هيبة الوزير وتناقصت قيمته شيئاً فشيئاً حتى لم يصبح، في آخر الأمر، إلا مجرد كاتب للخليفة وأصبحت حقيقة السلطان في يد قواد

الأتراك.

ومن المعلوم تاريخياً أن خلفاء العباسيين لم يخضعوا للنفوذ التركي ويستسلموا له في يسر وسهولة، بل صارعوه مصارعة شديدة، ولم يجبرهم على الخضوع له إلا بسبب افتقارهم للقوة العسكرية التي يستطيعون بها صد هذه القوة العسكرية التركية الفتية وخاصة أثناء تواجدهم في سامرا قاعدة النفوذ التركي الحصينة. ولم يستطع هؤلاء الخلفاء التصدي لهذه القوة إلا بعد أن عادوا الى بغداد واستعانوا بالعناصر العربية والفارسية الموجودة فيها، وخاصة حين ظهرت قوة الفرس الديالمة، الذين أخذوا في التوافد آنذاك على العراق وشاركوا في أحداثه. وظلت هذه القوة الجديدة تنمو وتنمو حتى استطاعت، في آخر الأمر ، ان تقهر النفوذ التركي وتحتل مكانه في الفترة ما بين سنوات ٣٣٤ و٤٤٧هـ.

والخلفاء الذين تولوا الخلافة العباسية فى عهد نفوذ قواد الأتراك حتى العصر البويهي (٢٣٢ - ٣٣٤)، يأتي ترتيبهم وسنى حكمهم كالتالي:

١ - المتوكل على الله (٢٣٢ - ٢٤٧).

٢ - المنتصر بالله (٢٤٧ - ٢٤٨هـ)،

٣ - المستعين بالله (٢٤٨ - ٢٥٢هـ)،

٤ - المعتز بالله (٢٥٢ - ٢٥٥هـ)

٥ - المهتدى بالله (٢٥٥ - ٢٥٦هـ)،

٦ - المعتمد على الله (٢٥٦ - ٢٧٩هـ)،

٧ - المعتضد بالله (٢٧٩ - ٢٨٩هـ)

٨ - المكتفى بالله (٢٨٩ - ٢٩٥هـ)،

٩ - المقتدر بالله (٢٩٥ - ٣٢٠هـ)،

١٠ - القاهر بأمر الله (٣٢٠ - ٣٢٢هـ)

١١ - الراضي بالله (٣٢٢ - ٣٢٩هـ)،

١٢ - المتقى لله (٣٢٩ - ٣٣٣هـ)،

١٣ - المستكفى بالله (٣٣٣ - ٣٣٤هـ)

وكان عهد الخلفاء الخمسة الأول منهم، عهد التفوق التركي الكامل على الخلفاء، أما عهد الثلاثة الذين جاءوا بعدهم فقد كان عهداً انتعشت فيه الخلافة واسترد الخلفاء العباسيون نفوذهم، بعض الشيء. ثم عاد نفوذ الخلفاء للانتكاس ثانية في عهد المقتدر والقاهر، اللذين كثرت في عهدهما الفتن والدسائس وتناقصت موارد الدولة المالية حتى عجزت الخلافة عن تسيير دفة الأمور. حتى اذا جاء عهد الراضي ظهر منصب أمير الأمراء الذي انتقلت لصاحبه كل سلطات الخليفة وكل اختصاصات الوزير، ولم يبق للخليفة من منصب الخلافة الا الاسم وقد قنع فقط من السلطة بأن يدعى له من فوق المنابر وأن تُضرب السكة باسمه. ولم تستطع الخلافة أن تسترد سلطتها ونفوذها، بعد ذلك، حتى نهاية عصر قواد الأتراك على يد الفرس الديالمة الذين ورثوا سلطة أمير الأمراء في عهد بني بويه.

عهد التفوق الكامل لنفوذ القواد الأتراك
من المتوكل حتى المهتدي ٢٣٢ - ٢٥٦هـ):

تولى المتوكل على الله الخلافة بقوة النفوذ التركي، كما سبق أن رأينا، وقوى مركز القائد ايتاخ عند الخليفة فعهد اليه بكثير من المناصب وأحرز النفوذ الكبير في دولة الخلافة. وحين أحس المتوكل باستبداد ايتاخ واستهانته به، حاول التخلص منه، فدبر له مكيدة أبعده بها عن سامرا ثم استدرجه وحبسه وقتله سنة ٢٣٥هـ، بمساعدة القائد وصيف التركي. وكانت حيلة المتوكل التى تخلص بها من ايتاخ انه انتظر فرصة خروج ايتاخ للحج فأحل وصيف محله في الحجابة، ولما عاد ايتاخ أو عز القائد وصيف الى عامل بغداد بالقبض عليه وحبسه ثم قتله.

وبعد أن تخلص المتوكل من ايتاخ، زاد العداء بينه وبين وصيف وبقية قواد الأتراك، وبلغ هذا العداء حداً كان لابد من أن يتخلص أحدهما من الآخر. وعزم المتوكل على أن يتخلص نهائياً من نفوذ قواد الأتراك إلا أن ابنه المنتصر أفسد خطة أبيه في الخلاص منهم بمشايعته لهم. وكان العداء قد وقع بين المتوكل وابنه الأكبر المنتصر، لأن المنتصر كان ينقم على ابيه قسوته الزائدة على العلويين وتنكيله الشديد بالشيعة وبالمعتز له. وبسبب هذا التعارض في الرأي فسدت العلاقات بين الإبن وأبيه، فعزم المتوكل على عزل المنتصر من ولاية العهد

واحلال المعتز بالله، إبنه الثاني، مكانه. وقد زاد ذلك من سخط المنتصر على أبيه وشجعه على الانضمام لقواد الأتراك ضد أبيه. واستقر رأي المتوكل على الفتك بابنه المنتصر وبقواد الأتراك وبخاصة وصيف وبغا، وفي نفس الوقت عزم حزب الأتراك والمنتصر على الخلاص من المتوكل.

وكان ذلك بمثابة مفترق طرق في حياة الخلافة العباسية، فان نجح المتوكل في مخططه زال نفوذ الأتراك وتلاشت دولتهم واستعادت الخلافة قوتها الأولى التي كانت لها في عهد الرشيد والمأمون والمعتصم، وان نجح الأترك في مخططهم تدعم سلطانهم وضاعت نهائياً هيبة الخلافة. وشاء الله ان ينجح مخطط الأتراك، الذين سبقوا المتوكل في التدبير والتنفيذ، فباغتته جماعة منهم بقيادة بغا الصغير، وباغر، حارس الخليفة وقاموا بقتله سنة ٢٤٧هـ، وشاركهم في القتل المنتصر ابن الخيفة، وقتلوا مع الخليفة وزيره الفتح بن خاقان.وقد شرح صاحب الفخري مقتل المتوكل ووزيره قائلا: «كانت بينه (المتوكل) وبين ابنه المنتصر مباينة، وكان كل منهما يكره الآخر ويؤذيه، فاتفق المنتصر مع جماعة من الأمراء (الأتراك) على قتله وقتل الفتح بن خاقان، وكان أكبر أمرائه وأفضلهم، فهجموا عليه وهو يشرب فخطفوه بالسيف فقتلوه وقتلوا الفتح معه، وأشاعوا أن الفتح قتله فقتلناه به، وجلس إبنه (المنتصر) على السرير بعده وذلك سنة ٢٤٧هـ).

وبعد قتل الخليفة، أقبل قواد الأتراك ومن ضمنهم القتلة، على ابنه المنتصر وبايعوه بالخلافة، وأخذوا له البيعة من وجوه الدولة ومن بقية القواد

الأتراك، وأجبروا أخويه المعتز والمؤيد على مبايعته. وكان قتل المتوكل أول حادثة اعتداء على خلفاء بنى العباس، فلم يحدث ان قُتل خليفة منهم من قبل سوى الأمين، الذى قُتل في الحرب بينه وبين أخيه المأمون. ولم يكن قتل الخليفة المتوكل اعتداء على شخص المتوكل وحده، بل كان قتلاً لسلطان كل خليفة بعده. وكان فى قتله تثبيت لسلطان الأتراك ونفوذهم، وانذار للبيت العباسي كله مفاده انه من أراد منهم أن يلي الخلافة فليذعن اذاعاناً تاماً لرغبة وأوامر القواد الأتراك وإلا فعليه أن يوطد نفسه على القتل.

وهكذا كان مصرع الخليفة المتوكل مصرعاً لسلطان الخلافة، وفي نفس الوقت مجداً لقواد الأتراك ونصراً. فلم يعد بعد ذلك، للخليفة معهم شىء إلا المظهر الاسمي للسلطة الذي اقتصر على الخطبة والسكة وصار يُضرب ذلك مثلاً لمن له ظاهر الأمر وليس له من باطنه شيء، فيقال: «قنع فلان من الأمر بالسكة والخطبة»، يعني قنع بالاسم دون الفعل.

من الطبيعي، أن يخضع المنتصر بن المتوكل لنفوذ قواد الأتراك، الذين قتلوا أباه بمساعدته ولطخ يده معهم بدمه، وأجلسوه على عرش الخلافة تحت ظلال سيوفهم. ولما قتل المنتصر أباه تحدث الناس بأنه لا يطول له العمر بعده وشبهوه بشيرويه بن كسرى حين قتل أباه ولم يستمتع بالملك بعده سوى ستة أشهر، وفعلاً مات المنتصر بعد مقتل والده بستة أشهر.

ولقد بلغ سلطان قواد الأتراك ذروته فى عهد حكم المنتصر، القصير الأمد

(٢٤٧ - ٢٤٨هـ)، وقاموا بارغام الخليفة على خلع أخويه المعتز والمؤيد عن ولاية العهد حتى يحولوا بينهما والوصول الى كرسى الخلافة، وحتي يتركوا لأنفسهم الحرية في اختيار من يرون مصلحتهم في استخلافه. فأذعن لأمرهم رغماً عنه، ولم يكن أمامه إلا الرضوخ لأوامرهم. ولقد اشتدت، بعد ذلك، كراهية المنتصر للأتراك، وندم على تحالفه معهم وتوريطهم له فى قتل والده. فعزم على التخلص منهم ومن زعمائهم. وكان كثيراً ما يبدى تبرمه بهم وبغضه لهم وعزمه على قتلهم. وكان يسميهم: قتلة الخلفاء، ويسبهم فى مجالسه، ويقطع الشموع بسيفه ويقول: «هذه رقاب قواد الأتراك.. قتلنى الله ان لم أقتلهم». وقد نبههم هذا الجهر بالعداء لنواياه تجاههم ، فقرروا الخلاص منه قبل أن يتخلص منهم وبالفعل تخلصوا منه بوضع السم له فى مشرط حجمه به الطبيب ابن طيفور ، فمات بالسم، بعد ستة أشهر فقط من توليه الخلافة دون أن يعهد لأحد بالخلافة من بعده .

فلما مات المنتصر ، شكل قواد الأتراك مجلساً من كبرائهم لأختيار خليفة بعده ، وتشكل هذا المجلس من القواد : بغا الكبير ، وبغا الصغير ، وأتامش ، وأجمعوا على ألا يتولى الخلافة أحد من ولد المتوكل حتى لايثأر لمقتل أبيه ، كما أجمعوا على إختيار أحمد بن محمد بن المعتصم، وهو حفيد الخليفة المعتصم ، ولقبوه بالمستعين بالله ، وأخذوا له البيعة من سائر الناس ، وكان ذلك سنة ٢٤٨هـ. يقول صاحب الفخرى فى اختيار المستعين للخلافة مانصه:«لماً مات المنتصر إجتمع الأمراء، وأكابر المماليك وقالوا : متى ولينا أحداً من ولد المتوكل

طالبنا بدمه وأهلكنا.فاجمعوا على مبايعة المستعين ، وقالوا : هو ابن ابن مولانا المعتصم ، فإذا بايعناه لم تخرج الخلافة من ولد المعتصم ، فبايعوه فى سنة ثمان وأربعين ومائتين» .

وقام المستعين بتوزيع المناصب العليا على قواد الأتراك ، فاتخذ أتامش وزيراً وعقد له ولاية مصر والمغرب ، وجعل شاهك الخادم على داره وحرسه وخاص أموره . ولقد بدأ عهد المستعين (٢٤٨-٢٥٢ هـ) بالاضطرابات والصراع والتطاحن على السلطة بين قواد الأتراك بعضهم ببعض. وقد وجد الخليفة الفرصة فى هذه الخلافات كى يستعيد سلطته فبدأ بنفى أحمد بن الخصيب واستصفى أمواله ، ثم قتل أتامش بمساعدة القائدين وصيف وبُغا . وأراد ، فى ذلك الوقت ، باغر ، أحد قتلة المتوكل أن يستولى على السلطة وجمع حوله الأنصار فاتفق الخليفة مع وصيف وبُغا على التخلص منه ، وانتهى الأمر باستدراجهما لباغر وقتله ، فثار أصحاب باغر وهاجموا قصر الخليفة ورموه بالنشاب ، فهرب الخليفة المستعين من سامرا إلى بغداد حتى يستعين بمن فيها من جند العرب والفرس ضد الجند الأتراك .لكن قواد الأتراك طلبوا من الخليفة العودة لسامرا لتصفية الخلافات بينهما ، لكنه خاف من غدرهم ولم يذعن لهم . عندئذٍ جاهر الأتراك الخليفة بعدائهم له ، واعلنوا خلعه عن الخلافة سنة ٢٥٢ هـ وبايعوا المعتز بن المتوكل بالخلافة ، وكان بسامرا وتكتلوا حوله . وصار هنالك خليفتان ، أحدهما فى سامرا والآخر فى بغداد ، ووقعت الحرب بين الخليفتين وأنصاركل منهما ، وانتهت هذه الحرب فى النهاية بانتصار حلف الأتراك .

وتحت هذه الظروف ، خلع المستعين نفسه عن الخلافة ، وبايع للمعتز ، وقام قواد الأتراك بالقبض على المستعين ونفوه إلى البصرة ، وأرسلوا وراءه قوة تركية لتقتله ، فأدركته هذه القوة فى مدينة واسط ، وقامت بقتله هناك . وكان قتل قواد الأتراك للمستعين خطوة أخرى فى سبيل إحكام قبضتهم وإظهار سيادتهم .

ولم تكن ظروف الخلافة فى عهد حكم المعتز (٢٥٢-٢٥٥هـ) ، خيراً من سابقتها، فلقد عاد الخليفة إلى سامرا ، وهنالك أحكمت حوله قبضة قواد الأتراك . وازداد استبدادهم وتصرفهم فى أمور الدولة دون الخليفة حتى أن صاحب الفخرى يقول عن مدة هذا الخليفة مانصه «استولى الأتراك منذ قتل المتوكل على المملكة واستضعفوا الخلفاء ، فكان الخليفة فى يدهم كالأسير إن شاءوا أبقوه وإن شاءوا خلعوه وإن شاءوا قتلوه . ولما جلس المعتز على سرير الخلافة قعد خواصه واحضروا المنجمين وقالوا لهم : أنظروا كم يعيش وكم يبقى فى الخلافة ؟ وكان بالمجلس بعض الظرفاء ، فقال : أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته . فقالوا له . فكم تقول إنه يعيش ؟ قال . مهما أراد الأتراك . فلم يبق فى المجلس إلا من ضحك»

وقد حاول المعتز التخلص من القائدين وصيف وبغا . وقد واتته الفرصة حين ثار الجند مطالبين بأرزاقهم ، ولما أغلظ وصيف فى الرد على الجند ، وثبوا عليه فقتلوه ، وبذلك تخلص المعتز من أحد القائدين كذلك نجح المعتز فى التخلص من بغا بمساعدة قائد آخر منافس له وهو بايكباك، وانتهى الأمر بقتل

بغا . وبقتل وصيف وبغا تخلص المعتز من اكبر أعدائه . لكن الأتراك سرعان ما اكتشفوا محاولات المعتز للوقيعة بينهم للتخلص من نفوذهم ، فقبضوا عليه وضربوه وأرغموه على خلع نفسه . قال صاحب الفخرى عما فعله الأتراك به : «أنهم هجموا على بيته وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه وأقاموه فى الشمس فكان يرفع رجلاً ويضع أخرى لشدة الحر ، وكان بعضهم يلطمه وهو يتقى بيده ، ثم جعلوه فى بيت وسدوا بابه حتى مات بعد أن أشهدوا عليه أن خلع نفسه أذ ذاك فى سنة ٢٥٥ هـ».

ثم جاء قواد الأتراك . بعد ذلك . بمحمد بن الواثق ، وكان ببغداد واسندوا الخلافة إليه ولقبوه المهتدى بالله . وكان المهتدى (٢٥٥ -٢٥٦ ه) رجلاً تقياً ورعاً ، وكان شديد الرغبة فى الاصلاح ورأى أن يبدأ الاصلاح من البيت الخلافى نفسه . فجرد نفسه من مظاهر الترف وزخرف الحياة ولبس الخشن من الثياب ، مقتدياً فى ذلك بالخليفة الأموى الورع عمر بن العزيز ، خامس الخلفاء الراشدين وكان دائماً يقول : « إنى أستحيى أن يكون فى بنى أميه مثلهُ ولا يكون مثله فى بنى العباس» . وكان من الممكن أن تؤتى سياسة الاصلاح . التى بدأها هذا الخليفة ، ثمارها لولا أن الأحوال العامة جميعها من حوله كانت ضده ففى مستهل خلافته ثار العامة فى بغداد . وأعقبتها ثورة للجند من أجل الرواتب كذلك ثار العلويون ضده ، ثم بدأت ثورة الزنج التى هددت الخلافة العباسية زهاء أربعة عشر عاماً (من ٢٥٥ - ٢٧٠ هـ) . كذلك ثار عليه الخوارج فى الموصل

وقد نجح المهتدى فى الخلاص من القائد بايباك فثار الأتراك لمقتله بقيادة القائد موسى بن بغا ، واشتبكوا مع جند الخليفة وهزموهم بعد قتال شديد ، وطلبوا منه أن يخلع نفسه عن الخلافة فرفض ، فلما رفض إحتالوا فى القبض عليه وقتلوه سنة ٢٥٦ هـ ، وبايعوا من بعده بالخلافة لأحمد بن المتوكل لقبوه بالمعتمد على الله . وبرغم أن الأتراك نجحوا فى القضاء على الخليفة المهتدى ، إلا أنه كان لحركته الاصلاحية أثر فى استرداد البيت العباسى لبعض سلطانه . ولم يكن الأمر ، بالنسبة لهم ، يتطلب بعد ذلك إلا الوقوع على الرجل القوى الحازم من بينهم ، والذى يستطيع أن يمسك بيده أزمة الأمور ، والخروج من دائرة النفوذ التركى ، من سامرا حصنهم المنيع .

وقد وُجد هذا الرجل فى شخص أخى الخليفة المعتمد ، وفى شخص إبنه المعتضد وابن إبنه المكتفى ، وفى عهد خلافة هؤلاء الخلفاء ينجح العباسيون على مدى أربعين سنة فى استعادة نفوذ الخلافة وفى حماية الخلافة من عدوان قواد الأتراك عليها ، ويجعلوهم فى أيامهم خداماً للدولة ، كما كانوا من قبل ، فى عهد المأمون والمعتصم .

فترة انتعاش الخلافة العباسية
(من المعتمد إلى المكتفى ٢٥٦-٢٩٥ هـ)

يبدأهذا الانتعاش بعهد خلافة المعتمد على الله بن المتوكل (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ) ، بفضل مجهودات أخيه أبى أحمد الموفق طلحة ، صاحب السلطة الفعلية فى البلاد ، ويقول صاحب الفخرى فى ذلك : «كانت دولة المعتمد دولة عجيبة الوضع ، كان هو وأخوه الموفق طلحة كالشريكين فى الخلافة للمعتمد الخطبة والسكة والتسمى بإمرة المؤمنين ولأخيه طلحة الأمر والنهى وقود العساكر ومحاربة الأعداء ومرابطة الثغور وترتيب الوزراء والأمراء»

ومن أهم الأعمال التى قام بها الموفق طلحة قضائه على ثورة الزنج ، تلك الثورة التى أقلقت الخلافة مدة أربع عشرة عاماً (٢٥٥-٢٧٠هـ) ، وكادت أن تقضى عليها . وكان مسرح هذه الثورة المنطقة الممتدة بين البصرة وواسط ، وقد قام بها الزنوج الأفارقة الذين جلبوا إلى هذه البلاد من افريقيا بواسطة تجار الرقيق ، وكانوا يعملون سخرة فى إصلاح الأرض الملحة حول مدينة البصرة ويكسحون طبقات الملح المتراكمة فوق هذه الأراضى بفعل مد الخليج . ولقد كانت أوضاع هؤلاء الزنج غاية فى السوء والامتهان ، الأمر الذى دفعهم بالثورة على دولة الخلافة رُجل يدُعى على بن محمد ، إدعى أنه ينتسب إلى على بن أبى طالب ، وأنه من ولد زين العابدين بن على ، وينتسب هذا الرجل إلى مدينة الطالقان الفارسية .

والتف الزنج حول هذا الرجل الذى نادى بالرغبة فى اصلاح أحوالهم الاجتماعية ، واستهوت هذه الدعوة كل الزنوج العاملين فى منطقة جنوب العراق ، وبذلك ازداد عددهم وقويت شوكتهم . وتجمع الزنج حول صاحبهم وابتنوا لهم مدينة اتخذوها قاعدة لهم وأسموها المختارة . وقد قامت قوات الزنج بالتوسع فى منطقة جنوب العراق واقليم خوزستان وبلاد البحرين ، وتملكوا مدن الأبلة وعبدان والأهواز ، إضافة إلى البصرة وواسط . وأشاعت قوات الزنج الرعب فى قلوب الناس وقتلوا الكثير منهم واسترقوا عدداً كبيراً من الأحرار وباعوا الفرد منهم بدراهم معدودة . واقترب زحف قوات الزنج من العاصمة بغداد ، فأرسلت الخلافة قواتها بقيادة بعض قواد الأتراك لوقف هذا الزحف والقضاء على ثورة الزنج فى عهد خلافة المهتدى ، لكن هذه القوات الحكومية لم تستطع الثبات أمام مقاتلى الزنج . ولما ولى المعتمد الخلافة ، كانت مشكلة الزنج أول المشاكل الكبيرة التى استفتح بها خلافته ، فأرسل لقتالهم جيوشه بقيادة كبار قواده الأتراك وعلى رأسهم قائده الكبير موسى بن بغا ، ولكنهم لم يفلحوا فى هزيمة الزنج . وأظهرت انتصارات الزنج عجز هؤلاء القواد الأتراك فى الدفاع عن دولة الخلافة وبذلك انكسرت شوكتهم ، وأتيح للخلافة أن تتخذ زمام المبادرة بعدها وتدافع عن نفسها بعد أن عجز قواد الأتراك فى الدفاع عنها .

ولقد تأثرت الحياة الاقتصادية فى دولة الخلافة نتيجة استيلاء الزنج على موانى العراق والخليج ومنعهم قدوم سفن التجارة العالمية التى كانت ترد إلى بلاد العراق من الهند والصين . فاستدعى المعتمد أخاه الموفق طلحة ، وكان بالحجاز ،

وجعل إليه أمرالمشرق كله . كما جعله ولى عهده الثانى بعد إبنه جعفر ، الذى كان قد اختاره ولى عهده الأول وعقد له بحكم المغرب كله .

وينجح الموفق طلحة فى قيادة قوات الدولة بنفسه وفى الحاق الهزيمة بالزنج . وذلك حين خرج من بغداد إلى واسط سنة ٢٦٧ هـ ، ونجح فى هزيمة الزنج فى أول معركة له معهم ، واستطاع أن يجليهم عن منطقة الأهواز ، وتابع سيره إلى المنصورة ، قاعدة الزنج ، فحاصرها ، وبذل الأمان لكل من يأتيه مستسلماً من رجال صاحب الزنج ، فتخلى الكثير من أتباع صاحب الزنج عنه وانضموا للموفق . وظل الموفق يشدد الحصار على المختارة حتى سقطت فى يده ، فدخلها وقتل صاحب الزنج ، فى صفر سنة ٢٧٠ هـ ، بعد ثلاث سنوات من القتال الشديد . فقضى الموفق طلحة بذلك على هذه الثورة التى كانت تشكل خطراً كبيراً على دولة الخلافة وتقضى على رجالها الذين أرعبوا الناس وروعوهم وعاثوا فى الأرض مفسدين لأكثر من أربعة عشر عاماً . ولقد أعطت حرب الزنج الفرصة الكاملة للخلافة العباسية فى أن تستعيد قوتها وتؤكد قدرتها على مجابهة الخطر ، وتثبت ضعف الأتراك الذين رسبوا فى ميدان القتال وأثبتوا فشلهم ، فحدت هذه الحرب من استبدادهم وتعاليهم الأجوف .

وقد توفى الموفق طلحة سنة ٢٧٨ هـ . بعد الأعمال الجليلة التى أداها للدولة فى ظل خلافة أخيه المعتمد . فأحل الخليفة المعتمد ابن أخيه ، أبا العباس أحمد بن الموفق طلحة مكان أبيه فى ولاية العهد الثانية . وتحولت بذلك

لأبى العباس سلطات أبيه ، وكان على طراز أبيه ، وسار على دربه ، وتفوق ذكره على شخص الخليفة عمه الذى كان قد وصل إلى درجة كبيرة من الضعف آنذاك . ولقد اضطر الخليفة المعتمد ، نظراً لقوة أبن أخيه وعلو مكانته ، أن يخلع إبنه جعفر من ولاية العهد الأولى ويجعلها لابن أخيه أبى العباس . ثم مالبث أن توفى الخليفة المعتمد فجأة ، بعد شهور من ذلك ، سنة ٢٧٩هـ ، فبايع الناس ، بعد وفاته ، ابن أخيه أبا العباس أحمد خليفة باسم المعتضد بالله .

ولقد حكم الخليفة المعتضد فى الفترة مابين سنوات ٢٧٩ - ٢٨٩ هـ ، أى عشر سنوات ، استطاع خلالها هذا الخليفة أن يعيد للخلافة هيبتها وقوتها وأن يقضى على الاضطرابات التى واجهته وأن يصلح الخراب الذى أحدثته ثورة الزنج وأن يحد من نفوذ قوا د الأتراك ، يقول فى ذلك صاحب الفخرى : «كان المعتضد شهماً عاقلاً فاضلاً حُمدت سيرتُه ، ولى والدنيا خراب والثغور مهملة فقام قياماً مرضياً حتى عمرت مملكته وكثرت الأموال وضبطت الثغور . وكان قوى السياسة شديداً على أهل الفساد وحاسماً لمراد أطماع عساكره عن أذى الرعية ، محسناً إلى بنى عمه من آل أبى طالب وكانت أيامه أيام فتوق وخوارج كثيرين منهم عمرو بن الليث الصفار وقد قام المعتضد فى اصلاح المتشعب من مملكته والعدل فى رعيته حتى مات »

وفى أيام المعتضد استقل عمرو بن الليث الصفار فى بلاد فارس ، وقام بتوسيع دولته هناك . كذلك ظهر القرامطة أيامه فى الكوفة على يد حمدان

قرمط ، وفى البحرين على يد أبى سعيد الجنابى . كما ظهر الداعية الفاطمى ابن حوشب فى بلاد اليمن حيث كان يدعو للمهدى الفاطمى ، كما ظهر الداعية أبو عبد الله الشيعى ، الذى كان يدعو للفاطمين الاسماعيلية فى المغرب . وكان على المعتضد أن يواجه كل هذه الثورات وأن يقضى على كل هؤلاء الثائرين ، وقد استمر المعتضد فى محاولاته للقضاء على الأخطار التى تعرضت لها الخلافة فى عهده حتى وفاته سنة ٢٨٩ هـ .

وخلف المعتضد فى الخلافة إبنه ، أبو محمد على ، الذى لُقب بالمكتفى بالله ، وقد حكم هذا الخليفة مدة ست سنوات (٢٨٩-٢٩٥ هـ) ، وقد سار على نهج أبيه فى محاولة الاصلاح والقضاء على الفتن والثورات التى تعرضت لها الدولة فى عهد والده وورثها عنه ، لكن مدة خلافته القصيرة لم تتح له الفرصة الكافية للقضاء على كل هذه الفتن الكثيرة وهذا الكم الهائل من الثورات التى قام بها الاسماعيليون والقرامطة والخوارج ، فبذل جهده للقضاء على هذه الفتن . ونجح فى هزيمة القرامطة الذين كانوا قد قطعوا الدرب على الحُجاج إلى بيت الله الحرام وقتلوا منهم عدداً عظيماً فى داخل الحرم المكى الشريف وأغرقوا أعداداً كبيرة منهم فى بئر زمزم واستولوا على الحجر الأسود ، الذى نقلوه إلى عاصمتهم هجر بالبحرين ، وظل هنالك فى أيديهم لأكثر من عشرين عاماً ، ولم يردوه إلا بعد تدخل الشريف يحيى بن الحسين بن زيد العلوى . وتتبع المكتفى القرامطة فى بلاد الشام التى كانوا قد ظهروا فيها وعاثوا فيها الفساد ، ونجح فى طردهم منها واعادة سلطان الخلافة على الشام كله . كذلك نجح هذا الخليفة

فى إزالة دولة الطولونيين ، التى كانت قد استقلت بمصر عن دولة الخلافة على يد أول حكامها أحمد بن طولون الذى نسبت الدولة إليه ، وأعاد الخليفة المكتفى بذلك مصر ولاية تابعة لدولة الخلافة وخاضعة لها خضوعاً مباشراً . وتوفى المكتفى سنة ٢٩٥ هـ ، وهو فى سن الثالثة والثلاثين ، على أثر مرض أصابه أذهب عقله .

وبموت الخليفة المكتفى ، عادت الخلافة إلى ضعفها ، وتنفس قواد الأتراك الصعداء واستعادوا ثانية قوتهم . ولقد أحس قواد الأتراك الطامعون فى السلطة أن الأمر لا يستقيم لهم مع خلفاء أقوياء ، أمثال المعتضد والمكتفى ، فعملوا على اختيار الخلفاء من أمراء البيت العباسى الضعاف حتى يضمنوا استعادة سلطتهم وسلطانهم . ولذلك طال اجتماع هؤلاء القواد وتفكيرهم ، عقب وفاة المكتفى ، وكان من أول المرشحين للخلافة عبد الله بن المعتز ، وكان رجلاً كفء وقادراً ، ولكنهم انصرفوا عنه إلى صبى لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره ، هو جعفر بن المعتضد ، أخ الخليفة المكتفى ، وولوه الخلافة باسم المقتدر بالله ، وقاموا بالوصاية عليه .

وقام قواد الأتراك : مؤنس الخادم ومؤنس الخازن بقتل عبد الله بن المعتز حتى يتخلصوا من تآمره عليهم ومحاولاته للوصول إلى الحكم . ولم يستطع الخليفة المقتدر العودة بالخلافة إلى حزمها السابق لغلبة القواد الترك عليه ، ولتسلط أمه ، السيدة شغب وقهرمانتها ثومال عليه وجوارى القصر. وفى عهد

هذا الخليفة قامت الدولة الفاطمية الشيعية فى المغرب ونافست خلافتها ، منذ ذلك الوقت ، خلافة العباسيين . ولقد ساء حال ادارة الدولة فى عهد المقتدر ، وبلغ هذا السوء حداً أن وزرلهذا الخليفة مدة خلافته (٢٩٥-٣٢٠ هـ) ، إثنا عشر وزيراً ، فيهم من وزر له المرتين والثلاث . وقد دفعت هذه الحالة قواد الأتراك إلى إحكام سيطرتهم ونفوذهم على الدولة ، كما أدت إلى انتشار الفتن والثورات فى الداخل والخارج ، وفى آخر الأمر ، ثار عليه رجال الجيش وقام مؤنس الخادم وقواد الأتراك سنة ٣٢٠ هـ بخلعه وقتله ، وقيل أن قوات مؤنس الخادم لما قتلت الخليفة المقتدر قُطعت رأسه وحُملت إلى بين يدى مؤنس ، ومكثت جثته ملقاة مدةً على قارعة الطريق . وقد قام مؤنس الخادم وكبار قواد الأتراك ، بعد قتل المقتدر ، بمبايعة أخيه محمد بن المعتضد بالخلافة ، ولقبوه بالقاهر بالله .

ولم يبق القاهر فى الخلافة سوى عامين (٣٢٠ -٣٢٢ هـ) ، ولم تكن الأحوال فى عهده خيراً مما كانت عليه زمن المقتدر خلال مدة خلافته القصيرة . فقد استمر شغب الجند ، وتصدى قواد الأتراك لأى إصلاح يقوم به ، وساءت العلاقة بينه وبينهم ، وايقنوا فى النهاية ضرورة التخلص منه . وبالفعل قبضوا عليه وخلعوه من الخلافة وسملوا عينيه حتى سالت على خديه ، وكان أول خليفة تُسمل عيناه ، ثم حبسوه فى دار السلطنة ومكث فى الحبس مدة أُخرج منه عند تقلب الأحوال . وكان مرة يحبس ومرة يُفرج عنه ، فخرج يوماً ووقف بجامع المنصور ماداً يده يطلب الصدقة من الناس ، قصد بذلك التشنيع على الخليفة

المستكفى الذى كان يلى الخلافة وقتها ، فرآه بعض الهاشميين وهو يشحذ ، فمنعه من ذلك وأعطاه خمسمائة درهم .

وبعد عزل القاهر عن الخلافة ، قام قواد الأتراك باختيار ابن أخ القاهر ، أحمد بن المقتدر ، وبايعوه خليفة باسم الراضى بالله سنة ٣٢٢ هـ .

عصر إمرة الأمراء (٣٢٤-٣٣٤ هـ) :

تولى الخليفة الراضى الخلافة بعد عزل القاهر ، سنة ٣٢٢هـ ، وفى عهده تجلى عجز الوزراء عن إدارة شئون الدولة لضعفهم وقلة كفايتهم ، من ناحية ، ولازدياد نفوذ قواد الأتراك وتدخلهم فى شئونهم ، من ناحية أخرى وكان يلى أمر الوزارة ، أول عهد حكم الراضى ، الوزير محمد بن القاسم الكرخى ، الذى عجز تماماً عن إدارة مصالح الدولة ، فثار الناس فى وجهه ، واضطر للاختفاء حتى لا يلحق به أذاهم . فاستوزر بعده الخليفة الراضى الوزير سليمان الحسن بن مُخلد ، فعجز هو الآخر كعجز سابقه ، وبدا واضحاً للخليفة أن الوزراء لم يعودوا يقدرون على ضبط الأمور فى البلاد وتسيير مصالحها . فرأى الراضى أن ينشئ وظيفة جديدة تعلو سلطة صاحبها سلطة الوزير ، ويكون صاحب هذه الوظيفة رجلاً قوياً حازماً يستطيع ضبط أمور الدولة وحفظ ميزانها . وقد وجد الراضى فى قائده التركى ، محمد بن رائق ، أمير واسط والبصرة ، الرجل المناسب . فاستقدمه إليه ووكل اليه الأمر وسلمه مقاليد الأمور فى الدولة وأسبغ عليه لقب : أمير الأمراء ، وأمر بأن يخطب له من فوق المنابر بعده ، وأن يسك إسمه على عملة الدولة إلى

جوار إسمه . فصار أمير الأمرا" محمد بن رائق ، منذ ذلك الوقت صاحب السلطة الفعلية فى دولة الخلافة ، حتى أن السيوطى المؤرخ قال عنه مانصه :« حكم البلاد وأبطل أمر الوزارة والدواوين وتولى هو الجميع وكاتبه ، وصارت الأموال تُحمل إليه وبُطلت بيوت المال ، وبقى الراضى معه صورة وليس له من الخلافة إلا الأسم» .

كذلك فقد الوزير سلطانه ، ولم يعد له من الوزارة إلا الاسم ، واقتصر عمله على الحضور إلى دار الخلافة فى أيام الأعياد والمناسبات مرتدياً شعار السواد . وبقيام هذا المنصب تسلط القواد الأتراك على كل شئ وعُرفت هذه الفترة من سنة ٣٢٤ حتى سنة ٣٣٤ هـ ، وهى نفس السنة التى دخل فيها البويهيون بغداد ، بعصر إمرة الأمراء .

ولم يستمر استحواذ ابن رائق على السلطة سوى عامين ، ذلك لأنه بدأ فى فقد هذه السلطة سنة ٣٢٦ هـ ، وذلك بسبب حسد قواد الأتراك له على تولى هذا المنصب ، ومنافستهم له فى الحصول عليه وإقصائهم عنه .فتصدى له أبو عبد الله البريدى وكان رجلاً طموحاً وصل إلى درجة عالية من وظائف الديوان بعد أن تدرج من الوظائف الصغرى إلى الوظائف الكبرى بسبب دهائه وحنكته ، وتطلع أخيراً إلى إمرة الأمراء . كذلك نافس ابن رائق فى منصبه القائد بجكم التركى ، وكان من كبار قواد الأتراك ، وقام بمحاربة ابن رائق بعد أن اتفق مع البريدى ضده ، وأوقع الهزيمة بقوات ابن رائق وعزله عن امرة الأمراء وحل مكانه

فيها واتخذ البريدى وزيراً له ، وأقره الخليفة الراضى على ذلك .

توفى الراضى سنة ٣٢٩ هـ ، وخلفه فى الخلافة أخوه ابراهيم بن المقتدر ، ولُقب بالمتقى لله (٣٢٩-٣٣٣ هـ) . هذا ولم يغير المتقى من الأمور شيئاً ، فأقر بجكم على إمرة الأمراء وأقر البريدى فى الوزارة وترك لهما تدبير أمور البلاد واكتفى من السلطة بالاسم .

إلا أن بجكم أغتيل على يد جماعة من الأكراد ، كان قد انتهب أموالهم ، فولى المتقى إمرة الأمراء بعده لقائد من قواد الفرس الديالمة يُعرف باسم كورتكين الديلمى . وكان نفوذ الفرس الديالمة قد أخذ فى الاتساع فى البلاد آنذاك ، لكن هذا النفوذ الفارسى الجديد أحدث رد فعل قوى عند الأتراك لتهديده لكيانهم ، فنهضت العصبية التركية تبحث لنفسها عن رئيس قوى منهم يستطع أن يحسم الأمور لصالحهم ويُبعد خطر النفوذ الفارسى الديلمى عنها ، فاستدعوا ابن رائق ، زعيم الحزب التركى ، للمرة الثانية وكان متواجداً بالشام . فاستقدموه من الشام إلى بغداد وولوه إمرة الأمراء ، دون مقاومة من أحد ، للمرة الثانية ، وتصدى عند وصوله بغداد لمحاربة كورتكين وقواته الفارسية ونجح فى هزيمتهم .

لكن ابن رائق لم يهنأ بامرة الأمراء الثانية ، لوقت طويل ، فسرعان ماتصدى البريديون له وحاربوه وهزموه ، فاضطر إلى الهرب ، ومعه الخليفة المتقى ، إلى الموصل مستنجداً بالحمدانيين حكامها .

وكان أمراء العرب من بنى حمدان يحكمون فى الموصل والجزيرة ويقومون

بمجاهدة الروم البيزنطيين ، وكان يهمهم بطبيعة الحال استقرار الأمور فى باقى العراق حتى يكون العراق سنداً قوياً لظهورهم لأن اضطراب الأحوال فيه تعود بالضرر عليهم لا محالة . كذلك كان الحمدانيون يطمعون فى حكم العراق ، شأنهم فى ذلك شأن أية عصبية قوية .

لما استنجد الخليفة بالحسن بن عبد الله بن حمدان ، أمير الموصل ، طمع ابن حمدان فى تولى إمرة الأمراء والسيطرة من خلالها على دولة الخلافة . وتقدم ابن حمدان بقواته إلى بغداد لمحاربة البريديين ، بعد أن نجح فى التخلص من ابن رائق باغتياله . وسار ابن حمدان إلى بغداد ومعه الخليفة ولما رأى البريدى أن لا قبل له بمواجهة قوات الحمدانيين ، خرج هارباً من بغداد دون قتال . فدخل ابن حمدان بغداد ومعه الخليفة ، الذى أسند إمرة الأمراء إليه وأسبغ عليه بلقب ناصر الدولة، كما خلع على أخيه أبى الحسن لقب سيف الدولة . وجعل شرطة بغداد لأمير من أمراء الديالمة يُدعى توزون .

وسرعان ماساءت العلاقة بين الحمدانيين والخليفة ، بسبب اشتدادهم عليه نفس اشتداد قواد الأتراك ، ولما أحس ناصر الدولة الحمدانى بكراهية أهل بغداد له غادر بغداد ، بعد عام واحد من دخولها ، إلى مقر امارته عائداً إلى الموصل . فانتهز توزون الفرصة وبسط سلطانه سنة ٣٣١هـ على بغداد ، بعد أن هزم البريديين فى واسط ، فخلع عليه الخليفة المتقى وولاه إمرة الأمراء .

وسرعان ما ساءت أيضاً العلاقة بين الخليفة وتوزون ، فاستنجد المتقى ،

بناصر الدولة الحمدانى ، وذهب اليه فى الموصل طالباً الحماية منه ، لكن
ين ، فى هذه المرة ، تصرفوا على خلاف تصرفهم المرة الأولى ولم يسيروا
ليفة إلى بغداد ، بل طلبوا منه البقاء عندهم. وكان المتقى قد كاتب فى
الوقت أمير مصر ، محمد بن طغج الأخشيد طالباً النجدة منه ، إلا أن
خشيد طلب من الخليفة المجئ إلى مصر ليلقى فيها الحماية والعون . لكن
تقى ، بعد ذلك ، مال إلى مصالحة توزون ، الذى احتال عليه ومناه بالأمانى
أقسم له بالطاعة والاخلاص لو عاد إلى بغداد . وانخدع الخليفة بأمانى توزون ،
وخاف فى نفس الوقت إذا هو لم يستجيب لندائه فإنه من المحتمل أن يقوم بعزله
عن الخلافة ويعين خليفةآخراً مكانه فعاد إلى بغداد . وبمجرد وصول الخليفة إلى
بغداد قام توزون بالقبض عليه وسمل عينيه وحبسه بعد أن خلعه عن الخلافه ،
وبايع بعده أحد أفراد البيت الخلافى الضعاف ، وهو عبد الله ابن المكتفى بن
المعتضد ، باسم الخليفة المستكفى بالله ، وكان ذلك سنة ٣٣٣ هـ. وقد ظل
المتقى فى حبسه حتى وفاته سنة ٣٥٠ هـ .

تولى المستكفى الخلافة (٣٣٣ - ٣٣٨ هـ) ، وأقر توزون على إمرة
الأمراء التى ظل بها حتى وفاته فى العام التالى ، فخلف توزون فى إمرة الأمراء
كاتبه أبو جعفر شيرزاد . ولم يقل شيرزاد فى تعسفه مع الخليفة عن سابقه ممن
تولوا إمرة الأمراء . واضطربت أحوال البلاد فى عهد هذا الأمير الذى عجز عن
الاصلاح . وقد اضطر ابن شيرزاد ، من جراء المشاكل التى واجهته ، إلى الهرب
والاختفاء من البلاد ، خوفاً من القتل ، بعد ثلاثة وعشرين يوماً فقط من توليه

منصبه .

ولما هرب أبو جعفر شيرزاد وتخلى عن إمرة الأمراء ، دعا أعيان بغداد الأمير أحمد بن بويه ، الذى كان آنذاك فى منطقة الأهواز ، وطلبوا منه المجئ لانقاذ البلاد من حالة الفوضى التى عمت بها على أثر فرار شيرزاد وخلو منصب أمير الأمراء . فاستجاب أحمد بن بويه لدعوة أهل بغداد له ، وتوجه من الأهواز إلى بغداد فدخلها يوم الحادى عشر من شهر جمادى الأولى سنة ٣٣٤ هـ ، حيث استقبله أعيان بغداد بالحفاوة ومعهم الخليفة المستكفى ، الذى خلع عليه وقلده إمرة الأمراء ، وأسبغ عليه بلقب معز الدولة . وبايع معز الدولة البويهى ، بدوره ، المستكفى بالخلافة . كذلك أسبغ الخليفة على إخوة أحمد بن بويه بالألقاب الفخمة ، فمنح علياً بن بويه لقب عماد الدولة ، والحسن بن بويه لقب ركن الدولة

وكان ذلك فاتحة عهد جديد فى التاريخ العباسى ، فى عصره الثانى ، وقد عُرف هذا العهد : بالعصر البويهى ، أو عصر سيطرة البويهيين عل دولة الخلافة فى بغداد ، وهو عصر امتد من عام ٣٣٤ هـ حتى عام ٤٤٧ هـ . ولقد أنهى هذا العهد عصر نفوذ الأتراك ، وأعاد نفوذ الفرس القديم فى الدولة العباسية ، على يد عنصر جديد من عناصرهم ، وهم الفرس الديلم ، أو الديالمة . ويستمر تسلط هؤلاء الديالمة على الخلفاء العباسيين فى الحكم ويستأثرون بالسلطة فى بغداد دون الخليفة ، حتى يستعيد الترك نفوذهم من جديد ، بزعامة

عنصر جديد منهم ، وهم الترك السلاجقة ، الذين يتولون السلطة فى بغداد سنة ٤٤٧ هـ ، ويظلون مسيطرين على الخلافة العباسية فى العراق حتى سقوطها سنة ٦٥٦هـ على يد المغول. وهكذا رأينا أن نظام إمرة الأمراء الذى أنشأه الراضى لإقالة الدولة من عثرتها ، لم يقلها من عثرتها وإنما ألحق بها غاية الضرر ووصل بها إلى هاوية التفكك والاضطراب .

الدول المستقلة عن الخلافة العباسية
فى العصر العباسى الثانى

تميز العصر العباسى الثانى بظاهرة قيام الدول المستقلة عن الخلافة العباسية ، وإن كانت بداية هذه الظاهرة ترجع إلى العصر العباسى الأول ، إلا أنها لم تصبح ظاهرة عامة إلا فى العصر العباسى الثانى .

ولم يقتصر قيام الدول المستقلة على جهة دون أخرى من العالم الاسلامى ، بل عم المشرق والمغرب على السواء . غير أن ظهورها فى المغرب كان أسبق من ظهورها فى المشرق ، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن المغرب الاسلامى كان مركز القوة للدولة الأموية بينما كان المشرق الاسلامى مركز المعارضة للحكم الأموى . فلما نجحت الثورة العباسية بقوة المشرق تبادل جناحا العالم الاسلامى دوريهما فانتقل مركز المعارضة للحكم العباسى إلى بلاد المغرب ونزحت إليه ذات القوى التى طالما عارضت حكم بنى آميه ، وهى قوة الخوارج والعلويين . بينما تبادل العباسيون والأمويون دوريهما فأصبح العباسيون فى مقعد الخلافة وانضم الأمويون إلى صفوف المعارضة .

وإذا كان المغرب الاسلامى قد سبق فى قيام الدول المستقلة به ، فسرعان مالحق به المشرق الاسلامى فى ذلك وأصبح ميداناً لعديد من الدول المستقلة التى انتشرت فيه ، نتيجة لازدياد نفوذ قواد الأتراك وضعف الخلافة العباسية ، ورغبةً فى إحياء النزعة القومية والاقليمية إلى الدرجة التى مكنت الطامعين من

الحكام من انتزاع الأنحاء التى استقلوا بها عن جسم دولة الخلافة .

وقد تميزت الدول التى إستقلت فى المشرق عن مثيلاتها فى المغرب باستمرار ولائها للخلافة وتبعيتها الروحية لها والالتزام بالمذهب السنى ، مذهب دولة الخلافة ، كما تميزت بحرصها على أن تعترف للخلافة بشرعية حكمها وأن تبارك تقدمها وأن تظل العلاقة الطيبة قائمةً بينهما .

وقد أحسنت الخلافة العباسية صنعاً حين اعترفت باستقلال تلك الدول ، وباركت قيامها ، وقبلت استمرار العلاقة الطيبة بينهما وخضوعها لسيادة الدولة الروحية . ولقد استفادت دولة الخلافة ، فى المقابل ، من ذلك الاعتراف وتلك العلاقة الطيبة ، بأن مد فى عمر الخلافة العباسية أربعة قرون أخرى ، وأخر سقوطها إلى سنة ٦٥٦ هـ . وليس أدل على ذلك من أن ظهور الأتراك السلاجقة فى حياة هذه الدولة ، كما سوف نرى ، هو الذى حال دون قضاء الفاطميين الشيعة الاسماعيلية على دولة العباسيين حين امتد نفوذهم ووصل إلى بغداد ذاتها سنة ٤٥٠ هـ واستمر الدعاء فيها للخليفة الفاطمى المستنصر بالله لمدة عام كامل .

كذلك فإن اعتراف الخلافة بشرعية هذه الدول المستقلة ومباركة قيامها وانطلاقها ، قد خدم الحضارة الاسلامية وجعل من عواصم هذه الدويلات المستقلة منارات علمية وثقافية ساهمت فى استمرار مسيرة هذه الحضارة الزاهرة التى أضاءت للعالم بنورها طوال العصور الوسطى . ذلك لأن حكام هذه الدويلات

المستقلة كانوا رجال حضارة وكانوا علماء ، فجعلوا من عواصمهم مراكز للعلم والثقافة ، وشجعوا العلماء والأدباء وقربوهم اليهم وأجزلوا لهم العطاء . فشجع ذلك على ظهور كوكبة كبيرة من علماء الحضارة الاسلامية ، انتسبوا إلى عواصم تلك الدول ، كالطبرى والبيرونى والخوارزمى والبخارى والتسترى والبلخى والأصفهانى والسجستانى والقزوينى وغيرهم. وبذلك لم يقتصر الاشعاع الحضارى الاسلامى على عاصمة الخلافة بغداد وحدها ، بل ساهمت فى ذلك كل من حواضر :دمشق وحلب والموصل وبخارى وسمرقند ونيسابور وغزنة والقاهرة والقيروان وقرطبة ، وغيرهم من مدن هذه الدول المستقلة .

والدول التى استقلت فى المشرق الاسلامى ، هى دول عربية وفارسية وتركية ، والدول العربية هى : الدولة الحمدانية ، والدولة المرداسية ، والدولة العقيلية فى بلاد الشام والموصل واقليم الجزيرة بشمال العراق . أما الدول الفارسية فقد استقلت فى بلاد فارس وبلاد ماوراء النهر ، وهى : الدولة الطاهرية ، والدولة الصفارية ، والدولة السامانية ، والدولة البويهية . أما الدول التركية ، فهى التى استقلت فى بلاد ماوراء النهر وشمال الهند ، وهى : الدولة الغزنوية ، والدولة الخوارزمية ، ودولة الأتراك السلاجقة ، والدول الغورية ، وسلطنة دلهى الاسلامية .

وسوف يقتصر كلامنا فى هذا المجال على الدول المستقلة فى المغرب الاسلامى ، لأن الدول المستقلة فى المشرق الاسلامى عن الخلافة العباسية تشكل

منهجاً ومقرراً مستقلاً تُفرد له دراسة خاصة.

الدول المستقلة فى المغرب الاسلامى

لم تمض على مقتل مروان بن محمد ، آخر الخلفاء الأمويين (ذى الحجة ١٣٢ هـ) إلا ستة أعوام حتى استطاع أميرا أموى آخر هو عبد الرحمن الداخل ، أن يقيم إمارة أموية فى الأندلس (ذو الحجة ١٣٨ هـ) ، بعد أن تمكن من الهرب من مذابح العباسيين وتخفى عند أخواله من قبيلة نفزة البربرية ثم عبوره إلى الأندلس واستفادته من الظروف الداخلية المضطربة آنذاك فيها ، وإقامة هناك دولة أموية جديدة . وقد حافظت هذه الامارة الأموية على فكرة وحدة الخلافة ، فلم يعلن حكامها الذين اتخذوا قرطبة عاصمة لهم ، أنفسهم خلفاء ، ولم يتخذوا ألقاب الخلافة ، بل تسموا بأبناء الخلائف طوال قرنين إلا ربع من الزمان حتى اتخذ عبد الرحمن الثالث لقب الخلافة وتلقب بالخليفة الناصر لدين الله سنة ٣١٦ هـ ، بعد أن سبقه الفاطميون إلى خرق وحدة الخلافة فوجد أنه لا يقل عن إمام الفاطميين ولا عن خليفة العباسيين . وإن قيام إمارة أموية مستقلة فى الأندلس ، وإن كان يمثل نقمة على العباسيين ، لأنه حرمهم من أن يمدوا سلطانهم إلى تلك البلاد ، إلا أنه كان نعمة للأسلام وللحضارة الاسلامية . فقد أنقذ قيام هذه الامارة الأموية الأندلس الاسلامى من التردى فى هاوية السقوط التى كان يسير اليها عند نهاية خلافة دمشق ، وفتح الباب أمام الأندلس ليلعب دوراً متميزاً فى الحضارة الاسلامية وأن يمد عمر الاسلام هنالك لستة قرون أخرى .

وقد أدت الدولة الأموية في الأندلس ، دوراً واضحاً في الحياتين السياسية والحضارية ؛ وأهم دور سياسى قام به الأمويون هو أنهم ظهروا فى وقت هام ، وهو وقت ظهور الامارات المسيحية فى شمال أسبانيا وسعى هذه الامارات فى استرداد الأرض التى فتحها العرب ، كذلك فى وقت ظهور الامبراطورية الرومانية الغربية التى تسيدها شارلمان وقيام التحالف بين هذه الامبراطورية والامارات المسيحية فى أسبانيا ، هذا التحالف الذى كان هدفه الأول والأخير هدف صليبى وهو طرد المسلمين من أسبانيا واسترداد البلاد التى فتحوها وكان ظهور الدولة الاسلامية يعنى تأجيل هذا الهدف الصليبى حتى آخر القرن التاسع الهجرى (٨٩٧ هـ/١٤٩٢ هـ) وهو الوقت الذى سقطت فيه غرناطة الأسلامية ، آخر معاقل المسلمين فى الأندلس ، فى أيديهم .

كما كان للأمويين فى الأندلس دورهم فى حضارة الأندلس الاسلامية ، هذه الحضارة التى تجلت مظاهرها فى مدن قرطبة وطليطلة وأشبيلية وغرناطة وبلغت ذروتها فى هذه البلاد ، واستمرت الآداب والعلوم والفنون زاهرة طوال التاريخ الاسلامى فى الأندلس كما ظهرت فى الأندلس أعلام للحضارة الاسلامية تصدروا أعلام هذه الحضارة الزاهرة . وبذلك ساهمت الأندلس المستقلة فى خدمة العالم الاسلامى الكبير ، على الرغم من استقلالها عن العباسيين وقيامها فى طرف بعيد ، فإنها ظلت جزءاً من الوطن الاسلامى الكبير مفتوحاً أمام التيارات الحضارية التى كانت زاخرة فى حركة أخذ وعطاء بين كل أجزاء هذا الوطن .

هذا عن الأندلس ، أما عن بلاد المغرب الأفريقى ، فإن شخصية المغرب الأفريقى المستقلة بدأت فى الظهورمنذ أواخر العصر الأموى ، ولكن هذا الاستقلال اتخذ شكلاً واضحاً مع بداية العصر العباسى . وقد أعان على ظهور شخصية المغرب المستقلة تقهقر المعارضة إليه واتخاذه مركزاً لنشاطها. وكانت للمعارضة الأموية أطراف ثلاثة : المعارضة الأموية التى فرت إلى المغرب والأندلس والمعارضة الخوارجية والمعارضة العلوية وكانت المعارضتان الخوارجية والعلوية قد توزعتا بين المشرق والمغرب لكن مجالهما فى المغرب كان أقوى من المشرق . وكما لجأت المعارضة الخوارجية إلى مناطق استقرار القبائل العربية فى المشرق حيث تنتشر فيهم الروح القبلية النازعة إلى الحرية والديمقراطية فإنها ظهرت فى المغرب الأفريقى حيث القبائل البربرية التى تسودها هذه الروح القبلية .على نفس طريقة القبائل العربية . ولقد إتسمت سياسة الدولة الأموية بالتعصب للعرب على غيرهم من الشعوب ، كما اتسمت سياستهم المالية بالشدة لحاجة الدولة إلى المال لتغطية نفقاتها الداخلة والخارجية . ولم يرض البربر عن هذه السياسة الأموية التى تصوروا أنها تستهدف الضغط على الموالى ولا تعدل بينهم وبين العرب فى الحقوق والواجبات . لذلك انحازوا إلى جانب الخوارج الذين اتجهوا من المشرق إلى المغرب وتقبلوا آراءهم ومبادءهم . وقد وجد الخوارج فى الشمال الافريقى ملجأ وتربة مهيئة لزرع أفكارهم ،وصادفوا هنالك نجاحاً منقطع النظير . وإذا كان المشرق الاسلامى قد ضاق بشدة مذهب الخوارج وشدة تعصبهم له فإن سكان الشمال الافريقى تلقوا آراء الخوارج فى حماسة بالغة دون بحث عن

أفضل جماعتهم التى يتصلون بها ، فلم يكن يهمهم أن تكون تلك الجماعة حرورية أزارقه أو صُفريه أو اباضية ، وإنما أخذوا مبادئ الخوارج عموماً أخذا قوياً لا حتوانها أفكاراً تحقق تطلعاتهم فى الاستقلال عن دولة الخلافة

سيطر الخوارج على افريقية وفتك بربر (ورفجومة) بعرب قريش وغيرهم من عرب افريقية مما إضطر العرب بالمغرب لارسال وفد منهم إلى الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور لطلب مساعدته فأمدهم بأربعين ألفاً بقيادة محمد بن الأشعث إبنعقبة الخزاعى ، منهم ثلاثون ألفاً من خراسان وعشرة آلاف من عرب الشام من ضمنهم الأغلب بن سالم عقال بن خفاجة التميمى الذى آلت إليه أمور المغرب فى سنة ١٤٨ هـ/ ٧٦٥هـ -٧٦٦٦م ، وهو الذى تنتسب إليه دولة الأغالبة التى أسسها إبنه ابراهيم فى افريقية ، لكن البربر ثاروا عليه بزعامة قواد من العرب ودخلوا معه فى معارك طاحنه إنتهت بقتله سنة ١٥٠ هـ/٧٦٧ م ، واستمر البربر فى ثوراتهم واستمر العباسيون فى مقاتلتهم ، فأرسل المنصور عمر بن حفص الأزدى على رأس خمسمائه فارس من العرب لتهدئة أحوال المغرب ، فدخل القيروان سنة ١٥١ هـ/ ٧٦٨ م وحاصرته الخوارج بها فى سنة ١٥٤ هـ/ ٧٧١ م فأمدهم المنصور بيزيد بن حاتم فى ستين ألفاً من عرب أهل البصرة والكوفه والشام ، وثلاثون ألفاً من عرب خراسان ، وخلفه أخوه روح بن حاتم بن قبيصه على أفريقية للحفاظ على مميزات عصبيتهم ببلاد المغرب التى عززها بخمسائة فارس من الجند رافقوه إليها وألف وخمسمائة فارس لحقوا به وعلى رأسهم إبنه قبيصة .

ونتيجةً لوفود القبائل العربية رفقة الولاة على افريقية حتى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى كثرت العناصر العربية فى مدينة تونس حتى أصبحت تعدل القيروان فى كثرة العرب والجند الذين كانوا بها ، وأصبحت مركزاً لثورات الجند من العرب ضد الدولة فى القيروان .

وفى نهاية القرن الثانى الهجرى نشأت ببلاد المغرب دويلات عربية مستقلة قامت بتأسيس مدن عربية إسلامية كانت مركز جذب للقبائل العربية من خارج بلاد المغرب وداخلها للعمل بخدمه هذه الدول وساعدت على نشر الحضارة الاسلامية فى المناطق التى خضعت لنفوذها مما ساعد على تعريب المغرب خلال القرن الثالث الهجرى . ففى سنة ١٧٢هـ/٧٨٨ م قامت دولة الأدارسة (١٧٢-٢٧٥هـ) فى المغرب الأقصى ، وفى سنة ١٨٤هـ /٨٠٠ م قامت دولة الأغالبة بافريقية (١٨٤-٢٩٦ هـ) ، وفى سنة ١٤٣هـ/ ٧٦٠ م أسس بنو صالح الحميريون دولة نكور بالريف الغربى . وفى تاهرت (بالجزائر) اسس عبد الرحمن إبن رستم بمساعدة البربر الاباضية (١٦٠-٢٩٧) دولة عُرفت بالدولة الرستمية . وفى سنة ١٦٧ هـ أسس بنو مدرار دولة بنى مدرار فى سجلماسة سنة (١٤٠-٢٩٧هـ) عُرفت باسمهم أو باسم دولة بنى واسول . وفى سنة ٢٩٨ هـ قامت دولة علوية ضمت المغرب الاسلامى كله عدا الأندلس ، هى الدولة الفاطمية (٢٩٨-٥٦٧ هـ).

١- دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى
(١٧٢ - ٣٧٥ هـ)

لجأت المعارضة العلوية التى فرت من وجه الخلافة العباسية إلى المغرب كما سبق أن لجأت إليه المعارضة الخوارجية . وكان الخوارج أسبق من العلويين فى هجرتهم إلى المغرب ، وقد استطاعوا ، كما أوضحنا ، أن يقنعوا البربر ، النازعين إلى الاستقلال ، بعدم شرعية الحكومات الأموية والعباسية إذ أنها ورثت سلطاناً لا يقوم على أساس الحق ولا على أساس مبادئ الاسلام وأنها حكومات مغتصبة وجبت مقاومتها .

فلما وصل دعاة الشيعة العلويين إلى المغرب دعوا لنفس الفكرة ، وزادوا فى أن أصحاب الحق الشرعى هم آل البيبت أبناء على من السيدة فاطمة الزهراء إبنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فاكتسبت الدعوة العلوية عطف البربر ، الذين كانوا بطبيعتهم موقرين لرجال الدين معظمين للأولياء والصالحين . وقد حرث الخوارج للشيعة أرض المغرب ومهدوها لهم ، وحين قدم دعاتهم اليها كان سلطان الخوارج قد زال فأنتفعوا بغرسهم وفي نفس الوقت لم يتعرضوا لمقاومتهم

وكان العلويون قد ثاروا فى المشرق على العباسيين بقيادة الشقيقين : محمد النفس الزكية وأخيه ابراهيم إبنى عبد الله بن الحسن بن على فى المدينة والكوفة . لكن المنصور قضى على هاتين الثورتين وقتل أبطالها : النفس الزكية

فى المدينة سنة ١٤٤ هـ ، وابراهيم فى (باخمرى) ، بين الكوفة وواسط سنة ١٤٥ هـ . ولقى العلويون من العباسيين قسوة وشراً أشد مما لقوه على يد حكام الأمويين . وظل العلويون يثورون والعباسيون يتتبعونهم بالقتل والسجن فلم يكن أمامهم إلا أن يفروا من بطشهم إلى أماكن بعيدة لا تصل أيديهم اليها فى أطراف العالم الاسلامى .

وفى سنة ١٦٩ هـ ثار الحسين بن على بن الحسن ، على عامل العباسيين بالمدينة فى عهد الخليفة الهادى العباسى لما ألحقه هذا الوالى من بطش بأهله العلويين. ووقعت بين قوات الدولة وقوات العلويين معركة كبيرة فى موضع يُقال له فخ ، وهو مكان بين مكة والمدينة ويبعد عن مكة نحو ستة أميال . وقُتل الحسين فى هذه المعركة ومعه عدد كبير من آل البيت ، وقد قيل أن أعداد من قُتل من آل البيت فى هذه المعركة يفوق عدد من قتل منهم فى معركة كربلاء .

وبعد أن وقعت الهزيمة بالقوات العلوية فى هذه المعركة ، فر من ميدانها هارباً إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب إلى المغرب ، وهرب معه أخوه يحيى الذى لم يتجه للمغرب وإنما اتجه إلى بلاد الديلم . وقصد إدريس المغرب الأقصى ونزل مدينة وليلى ، الواقعة طرف جبل زرهون بين فاس ومكناس ، عند منطقة زراعية خصبة تكثر فيها العيون ، وتسكنها آنذاك قبائل أوربه من البربر البرانس . ونزل ادريس على زعيم أوربه اسحق بن محمد الذى أكرمه وأحسن وفادته .

ووافق وصول ادريس إلى المغرب نشاط الحركة الاستقلالية فى هذه البلاد ، كما وافق احتدام الصراع فيها بين القوات العباسية وقوات الخوارج . واستطاع ادريس أن يضم حوله قبائل البربر الذين وجدوا فيه ثائراً على الدولة التى يضمرون الكره لها . كذلك مثّل إدريس فى نظرهم روح الاسلام التى لاتقر الظلم ، وأرضى ، بنسبه الشريف ، عاطفتهم الدينية ، فانضوت لذلك الحركة الاستقلالية تحت لوائه .

وكان ادريس قد أظهر أمره للزعيم الأوربى وحقه فى الخلافة ، فوافقه دون تردد على دعواه ، وجمع له اسحق زعماء أوربة وعرفهم بادريس ونسبه فاستقبلوه مرحبين وبايعوه بالامامة ، فكان ذلك بداية الدعوة العلوية الأولى بالمغرب الأقصى . وتبع ذلك حركة دعاية واسعة له بين القبائل ، فدخلت فى دعوته قبائل : زناته ، زواغة ، زوارة ، سدرامة ، مسراتة نفزة ، ومكناسة ، وقصده الناس من كل مكان . وبإنضمام كل هذه القبائل إلى الدعوة العلوية بدأت المرحلة الايجابية فى تأسيس الدولة الادريسية ، فأعلن ادريس سنة ١٧٢ هـ/ ٧٨٨ م تأسيس دولته التى حكمت بلاد المغرب قرابة قرنين من الزمان .

ووضع ادريس النواة الأولى لمدينة فاس ، والتى كانت مغربية الطبع وأتمها إبنه من بعده وأخذت الطابع العربى لانتقال القبائل العربية إليها . وتقع المدينة فى وادى فاس عند نهر فاس الذى كانت تسكنه قبيلتى زواغة ويزغتن الزناتيتين.

ولقد وضع ادريس هدفاً سامياً نصب عينه أثناء حكمه للمغرب ، وهو العمل على رفع راية الجهاد ونشر الاسلام بين القبائل التى لم يرسخ الاسلام فى قلوبهم بعد أو التى عُرف أهلها بانحراف العقيدة ، وكان اقليم تامستا ، مقر قبائل برغواطة على ساحل المحيط الأطلسى أنسب الأماكن لتحقيق ذلك بسبب ما عُرف عن ميول أهله الأنفصالية وانحرافاتهم العقائدية منذ وقت مبكر وظهور الزندقة فيهم . واستطاع ادريس إخضاع هذا الأقليم لسيطرته ، كذلك أخضع اقليم تادلاونج بحصونه وقلاعه وأدخل أهله الذين كانوا على دين النصرانية واليهودية الاسلام .

وفى سنة ١٧٣ هـ توجه أدريس نحو تلمسان بالمغرب الأوسط ، حيث كانت قبيلتا مغرواة وبنى يفرن ، فبايعه أهلها ، دون قتال ، بالامامة وأخذ بلدهم صلحاً وبنى هنالك سنة ١٧٤ هـ مسجد المدينة الجامع .

ولقد أثار نجاح ادريس مخاوف الخليفة العباسى هارون الرشيد ، فى أن يكتسح العلويون كل بلاد المغرب ، فعمل على الحد من نفوذه بانشاء دولة الأغالبة فى تونس ، وتدبير المؤامرات للتخلص منه . وقد نجح الرشيد فى ذلك سنة ١٧٥ هـ حين أرسل من دس السم لادريس فى الطعام مما أدى إلى وفاته .

على أن مقتل ادريس لم يوقف جهود العلويين فى بلاد المغرب ولم يؤثر على الحركة الاستقلالية بها ولم ينه دولة الأدارسة . فقد كان لادريس جارية من البربر تسمى (كنزة) ، وكانت على وشك الوضع ، ورأى زعماء القبائل أن

ينتظروا وليدها إذا كان ولداً جعلوه عليهم إماماً ، أما إذا كانت أنثى فيختارون لأنفسهم إماماً من بينهم . ووضعت الأم غلاماً ذكراً أسموه ادريس، تيمناً باسم والده، وجعلت الوصاية عليه حتى يكبر وقُدر لإدريس أن يلى الإمامة باسم ادريس الثانى سنة ١٨٨ هـ/ ٨٠٤ م ، وهو ابن أحد عشرة سنة ، ويُعتبر ادريس الثانى هو المؤسس الحقيقى لدولة الأدارسة بالمغرب .

وقدعمل ادريس على نشر العروبة بالمغرب ، وفى نهاية سنة ١٨٩ هـ/٨٠٥ م إنهالت أفواج الهجرات العربية على ادريس الثانى من افريقية والأندلس ، ففى نفس العام إستقبل ، فى احتفال كبير ، خمسمائة فارس من زعماء القبائل العربية ممن ينتمون إلى قبائل قيس والأزد ومذحج وغيرهم ، ويبدو أنهم كانوا ساخطين على الأغالبة بافريقية والأمويين بالأندلس بحيث اعتبر ادريس وفودهم إليه كسباً كبيراً خصوصاً إذا أدركنا أن شعور ادريس الثانى وهو العربى بالعزلة فى الوسط البربرى الذى أحاط به دفعه إلى استغلال وجود العرب فى تكوين بلاطه العربى . فاستوزر عمير بن مصعب الأزدى ، وولى على الكتابة أبا الحسن عبد الله بن مالك الخزرجى ، وأسند القضاء إلى عامر بن محمد بن سعيد القيسى .

واستمر تدفق العرب على ادريس الثانى حتى لم يجد البربر القاطنون بالمدينة مناصاً من ترك هذه البقعة لهم فى الوقت الذى ضاقت بهم المدينة مما اضطره إلى الانتقال سنة ١٩٢ هـ/٨٠٨ م مع حلفائه العرب إلى دار القيطون

بوادى فاس ، وأحاطها بالأسوار وسماها العالية فى مقابل فاس مدينة والده . وحيث أن معظم الذين سكنوا العالية كانوامن العرب القيروانيين الفارين من الأغالبة لذا سمُيت المدينة بمدينة القيروانين .

وفى سنة ٢٠٢ هـ/ ٨١٧ م لجأ ثوار الربض إلى الدولة الادريسية بالمغرب حيث رحب بهم ادريس الثانى وانزلهم مدينة فاس ، فأقاموابها وأعطوا المدينة طابعاً أندلسياً جميلاً لدرجةأنها سُميت باسمهم وعُرفت بمدينة الأندلس . وبمضى الوقت غلب اسم فاس على المدينتين وصار يشمل عدوة القرويين وعدوة الأندلسيين .،

وقد قام ادريس الثانى بعدة جولات حارب فيها بقاياالخوارج وانتصرعليهم فإنضوا تحت لوائه . بذلك نخلص إلى القول بأن الحركة الخارجية التى بدأت فى المغرب الأقصى سنة ١٢٢ هـ على يد ميسرة انقلبت إلى ضدها ، إلى حكومة علوية نظامية وراثية هى الدولة الادريسية.

وتُوفى ادريس الثانى سنة ٢١٣ هـ ، وهو يبلغ من العمر السادسة والثلاثين ، بعد أن حكم خمسة وعشرين عاماً . وقد خَلف ادريس وراءه اثنى عشر ولداً ذكراً ما بين راشد وقاصر . وقد حكم بعد ادريس الثانى ثمانية من أبناء الاسرة الأدريسية . وقد خلفه من بعده إبنه الأكبر محمد ، الذى قام بتوزيع الدولة على ثمانية من إخوته البالغين وجعلهم على رأس الولايات المختلفة من السوس الأقصى إلى تلمسان ووهران فى المغرب الأوسط . وتبعهم حلفاؤهم من

العرب ومواليهم الذين استقروا بجوارهم مساهمين فى نشر الاسلام وتعريب المغرب الأقصى .

ولما توفى محمد بن ادريس الثانى ، سنة ٢٢١ هـ ، خلفه فى حكم دولة الأدراسة إبنه على ، وكان طفلاً فى التاسعة من عمره ، وتوفى وهو دون الثانية والعشرين . ثم خلفه من بعده أعظم حكام الأدارسة ، بعد إدريس الثانى ، وهو يحيى بن محمدادريس الثانى الذى إمتد حكمه وملكه ليشمل جميع المغرب الأقصى . وفى أيام يحيى ظهر الفاطميون فى شمال افريقية الذين أخذوا يمدون بنفوذهم نحو المغرب حتى وصلوا إلى بلاد الأدارسة واقتطعوا أجزاءً منها . ووقعت دولة الأدارسة آنذاك بين شقى الرحى : الفاطميون فى افريقية والأمويون فى الأندلس . وكان الأمويون قد بدأوا فى عهد عبد الرحمن الناصر يتجهون بنفوذهم إلى المغرب الافريقى . وأمام هذا الضغط من الجانبين تقهقر نفوذ الأدارسة إلى منطقة الريف دون الساحل ، لكنهم لم يستطيعوا الصمود والاحتفاظ باستقلالهم ، فزال ملكهم على يد الفاطميين سنة ٣٧٥ هـ بعد أن حكموا لأكثر من قرنين من الزمان .

٢- دولة بنى الأغلب فى افريقية (١٨٤ - ٢٩٦ هـ)

خشيت الخلافة العباسية على نفسها من إتساع أهداف الدولة الأدريسية بالمغرب الأقصى فأقامت سنة ١٨٤ هـ/ ٨٠٠ م دولة الأغالبة فى افريقية لتكون حداً فاصلاً بين بلادها وبلاد الأدارسة . وبنو الأغلب أسرة عربية مُضرية من بنى تميم ، حكمت افريقية طوال القرن الثالث الهجرى ، وأسسها ابراهيم بن الأغلب ، وكان إذ ذاك عاملاً على الزاب وإمارة افريقية .

وقد كان ابراهيم بن الأغلب ، مثل والده ، قائداً من قواد الدولة العباسية فى مصر ، والذى يُفهم من النصوص التاريخية أن ولاية الأغلب على افريقية تحققت بعد صراع مرير بينه وبين واليها السابق محمد بن مقاتل العكى الذى كان على علاقة طيبة بالوزير جعفر بن يحيى البرمكى وكان يستند على هذه العلاقة . لكن ابن الأغلب إستند على حب الرشيد له لاخلاصه لدولة الخلافة فعينه والياً على افريقية ، ولاية تفويض سنة ١٨٤ هـ.

بدأ ابراهيم بن الأغلب ولايته بالتخلص من وجوه الجند العرب الذين دأبوا على الوثوب بأمراء افريقية بأن أبعدهم إلى عاصمة الخلافة بغداد حيث حبسوا هنالك بسجونها . ثم قام ببناء عاصمة جديدة له بعيداً عن القيروان واضطراباتها ، فوقع إختياره على قطعة من الأرض على بعد ثلاثة أميال جنوب شرقى القيراون وبنى مدينته الجديدة التى أطلق عليها أول الأمر اسم العباسية ، إيماءً لولائه للخلافة ، ثم عُرفت فيما بعد باسم القصر القديم ، وعندما أتم بناء

عاصمته الجديدة انتقل اليها مع أهله وحاشيته وحرسه الخاص ، كما أسكن معه أهل الثقة من جنده العرب ومن جند السودان المجلوبين من غرب افريقيا .

ولقد انقسم عرب افريقية فى ذلك الوقت إلى فريقين ، الأول : وهم أغلبية القبائل العربية من أعقاب العرب الفاتحين للمغرب استوطنوا هذه البلاد وأصبحوا بمرور الزمن عرباً أفارقة أو عرباً (بلديين) ، وانضمت اليهم الجماعات العربية الوافدة من المشرق فى العصرين الأموى والعباسى لطلب الرزق فاستقروا فى البلاد كطبقة متميزة من الجند وأغلبهم من القبائل القيسية .

وحدث ما كان يخشاه ابن الأغلب من عرب افريقية ، ففى سنة ١٨٦ هـ/٨٠٢ م تعرض لثورة خطيرة بقيادة حمديس بن عبد الرحمن الكندى والى تونس ، وأنضم اليه كثير من العرب المستقرين بافريقية . وهذه الثورة تفسر لنا مقاومة العرب الأفارقة الذين يرون فى أنفسهم أهل البلاد والأولى بحكمها من الولاة الذين ترسلهم الخلافة وقد انتهت هذه الثورة بمقتل زعيمها ومعه عشرة آلاف من أتباعه بين قتيل وجريح ، ودخلت قوات ابن الأغلب تونس لإقرار الأمور فيها .

كذلك قام الخوارج الاباضية فى اقليم طرابلس بثورة ضد ابن الأغلب استطاع القضاء عليها ، كذلك قضى على أخطر الثورات عليه والتى جاءت على يد قائده عمران بن مخلد الربيعى سنة ١٩٤ هـ . وحكم ابراهيم بن الأغلب اثنتى عشرة سنة قمع الشر خلالها بافريقية وضبط أمور أهلها وكف عنها خطر الخوارج

. ولقد كان خلفاء العباسيين يرضون على دولة الأغالبة ويباركون جهاد ابن الأغلب ضد أعدائه ، ولتثبيت مركز حكم ابن الأغلب فى افريقية أرسل له الخليفة الأمين تفويضاً بولاية افريقية عندما تولى الخلافة سنة ١٩٣ هـ بعد وفاة أبيه الرشيد .

تُوفى ابراهيم بن الأغلب سنة ١٩٦ هـ ، وخلفه من بعده فى ولاية افريقية . إبنه عبد الله ، وقد جنى عبد الله ثمار مابذره والده فلم يكن فى أيامه شر ولا حرب بعد أن مهد له أبوه حكم البلاد ، وحكم البلاد دون أى اضطراب بها حتى وفاته سنة ٢٠١ هـ . وخلف عبد الله بن الأغلب من بعده أخوه زيادة الله (٢٠١ - ٢٢٣ هـ) ، وقد قام زيادة الله بفتح جزيرة صقلية التى كانت من أملاك الدولة البيزنطية على يد قائده الكبير أسد بن الفرات سنة ٢١٢ هـ/ ٨٢٧ م . وقد دفعه إلى فتح هذه الجزيرة إشتغال الجند بالجهاد والتخلص من قواد الجند العرب المشاغبين ، والأحوال السيئة التى كانت فى الجزيرة ، فقد كان حاكمها البيزنطى يرهق الناس بمطالبه المالية مما أدى إلى ثورة أحد قواد الروم ضد هذا الوالى وأستنجاده بالأغالبة .

ومن حكام الأغالبة البارزين : ابراهيم بن أحمد الأغلبى (٢٦١ - ٢٨٩هـ)، وهو تاسع أمراء البيت الأغلبى وأطولهم حكماً ، فقد حكم ثمانية وعشرين عاماً ، واستطاع أن ينقل الحرب والجهاد إلى جنوب ايطاليا . وقد قام ابراهيم فى سنة ٢٦٣ هـ بتأسيس مدينة رقادة ، وانتقل اليها من مدينة القصر

القديم ، وأضاف بذلك مدينة عربية بجانب المدن العربية بالمغرب ، واستمرت عاصمة لبنى الأغلب حتى سقوط دولتهم . كذلك أكمل هذا الحاكم وجدد جامع الزيتونة فى تونس .

وفى أواخر عهد حكم ابراهيم بن أحمد الأغلبى ظهر نشاط الشيعة الاسماعيلية على يد أبى عبد الله الشيعى ، راعى الفاطميين بالمغرب . ولم ينجح الشيعة الاسماعيليون فى الاستيلاء على رقادة وافريقية إلا بعد تنازع البيت الأغلبى على الحكم . ويكفى أن نقول ان آخر الأغالبة المعروف باسم زيادة الله (الثالث) ٢٩٠ - ٢٩٦ هـ دبر مؤامرة قتل فيها والده ليرث ملكه . وانتهى أمر الأغالبة بسقوط دولتهم سنة ٢٩٦ هـ على يد الشيعة الإسماعيليين وانضمت دولتهم لدولة الفاطميين الشيعية .

٣ - دولة بنى صالح الحميرية
(١٤٣ - ٤٧٣ هـ/ ٧٦٠ - ١٠٨٠ م)

وفى بلاد الريف الغربى المعروفة باسم بلاد النكور (وهى سلسلة جبال فى شمال المغرب تمتد فى شكل هلال من سبته إلى مليلة) إستقرت إحدى الأسر العربية منذ الفتح العربى لبلاد المغرب ، أسسها صالح بن منصور الحميرى ، وهو من عرب اليمن إنتقل إلى المغرب بصحبة الجيوش العربية برئاسة عقبة بن نافع الفهرى . وقد نزل صالح مرسى تمسامان (والمعروف بمرسى البقر) واستقر بها ، وقد رافق صالح الكثير من عصبيته من العرب . وقد نجح صالح الحميرى فى نشر الاسلام بين بربر غمارة وصنهاجة المستقرين ببلاد الريف .

وقد نجح صالح فى تأسيس مملكة له فى الريف ، يحدها من الشرق بربر زواغة وجرواة ومن الغرب بربر بنى حميد من غمارة . وقد أقره الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك عليها سنة ٩١ هـ/ ٧٠٩ م ، واستمر فى حكمها حتى وفاته . وقد خلفه أبناؤه من بعده فى الحكم إلى أن تولى سعيد بن ادريس بن صالح فبنى مدينة نكور واتخذها عاصمة له .

واستمر حكم بن صالح لمملكة نكور حوالى أربعة قرون يحدها من الشرق الأغالبة ومن الغرب الأدارسة . ولا شك فى أن هذه المملكة كانت مركز جذب للعناصر العربية الثائرة على الأغالبة وملجأ أميناً للأمراء الأدارسة .

ولقد جعلت العناصر العربية التى سكنت مملكة نكور من هذه الدولة دولة

عربية سنية على المذهب المالكى ، وقد لعبت هذه الدولة دوراً كبيراً فى نشر الاسلام واللغة العربية بين أهل الريف من البربر ، كما مكنتها من مقاومة تيار الخوارج والشيعة ، وقد لقيت بسبب ذلك العناء الشديد لم يخففه عنها سوى تأييد الأمويين فى الأندلس لها ومدها بالمساعدات من الجند التى وصلتها عن طريق مرسى المرية ، الذى يقابل مملكة نكور على الساحل الأندلسى .

وقد نجح بنو صالح بنقل هذه المساعدات الأندلسية ، من القضاء على ثورات جندهم من الصقالبة ، كذلك استطاعت بواسطتها مقاومة الغزو النورماندى لعاصمة ملكهم . وظل بنو صالح مسيطرين على مملكتهم وتبادلوا هذه السيطرة مع الفاطميين إلى أن تمكن المرابطون من الأستيلاء على أملاكهم وتدمير مدينة نكور سنة ٤٧٣ هـ/ ١٠٨٠ م .

٤- دول الخوارج فى المغرب

أ- الدولة الرستمية الأباضية فى تاهرت

(١٦٠ - ٢٩٧ هـ)

انقسم الخوارج إلى فرق أهمها : الأزارقة ، أتباع نافع بن الأزرق ، والصُفرية ، أتباع زياد بن الأصفر ، والاباضية ، أتباع عبد الله بن اباض . والاباضية هى أقل هذه الفرق تشدداً وأقربها إلى مذهب أهل السنة ، والدولة الرستمية التى قامت فى تاهرت تنتمى إلى هذه الفرقة . ومؤسس الدولة الرستمية الأباضية هو عبد الرحمن بن رستم بن بهرام الفارسى ، وكان قد هاجر من المشرق إلى افريقية ؛ كما تقول الرواية ، مع أمه التى تزوجت من رجل من أهل القيروان بعد وفاة زوجها وهو يؤدى فريضة الحج فى مكة . وقد عاد زوج أمه بهما إلى القيروان عند عودته إلى بلده . وتربى عبد الرحمن فى القيروان وأخذ العلم عن فقهائها ، ومال إلى تعاليم الخوارج الاباضية . واتخذ ابن رستم وأتباعه من منطقة تاهرت (بالجزائر) التى بنيت فيهافيما بعد مدينة تاهرت ، مقراً لنشر تعاليم المذهب الاباضى بين قبائل المنطقة ، واستغرق هذا الأمر منه حوالى خمس عشرة عاماً . وقد جاء إختيار ابن رستم لهذه المنطقة مقراً لدعوته لكونها منطقة داخلية معزولة على نفسها فى المغرب الأوسط، وهى تدير ظهرها للبحر وتوجه أنظارها نحو الداخل وتحتل موقعاً استراتيجياً ممتازاً بالنسبة لجماعة تريد أن تعيش فى أمان فى منطقة يحيط بها الأعداء من كل جانب .

ولقد ساعد على نجاح دعوة عبد الرحمن بن رستم فى تلك المنطقة ، أنها تُعتبر امتداداً لبلاد الزاب ، مهد الدعوة الاباضية ، وأن كثيراً من قبائلها من لواته وهوارة وزواغة ومطماطة من أقاليم المغرب الشرقية (طرابلس ونفزاوة وبلاد الجريد) كانوا على المذهب الاباضى . وقد سهل ذلك الأمر تحرك كثير من أباضية تلك المنطقة إلى مقر ابن رستم حيث أقاموا فى المغرب الأوسط بين بنى بلدتهم . وبرغم وعورة المنطقة وقسوة تضاريسها إلا أنها منطقة غنية المرعى والانتاج الحيوانى مليئة بالمزارع والبساتين .

وقد انضمت جميع قبائل المغرب الأوسط لدعوة ابن رستم واعترفوا بامامته ، وبايعوه فى سنة ١٦٠ هـ/ ٧٧٦ م إماماً ، وقام ابن رستم بعد ذلك ببناء مدينة تاهرت واتخذها عاصمة له سنة ١٦١ هـ بعد أن تمت له البيعة من كل قبائل المغرب الأوسط .

ولقد أراد فقهاء الاباضية أن يجعلوا من ظروف أنتخاب عبد الرحمن بن رستم إماماً أساساً لمبادئ وشروط أساسية لانتخاب الامام فى مذهبهم ، وقد جعلوا هذه الشروط ترتكز فى أربعة نقاط : أولها أخلاقى ، وثانيها علمى ؛ وثالثها ورابعها سياسى .

فالشرط الأول الأخلاقى هو الفضل ، والثانى هو حمل العلم ، والثالث هو التعيين أو الوصية ، والرابع هو ألا تمنعه قبيلته إذا هو حاد عن طريق العدل

وقد أضيف بعد ذلك شرط خامس ، وهو صفة الشجاعة وقت الأزمة .

وشرط الفضل عند الاباضية يوازى العدالة عندهم ، التى تعنى الكمال الأخلاقى من حيث سلامة الاعتقاد وسلامة الجوارح ونزاهة السلوك الشخصى.

وأما كون الإمام من حملة العلم، فإن العلم شرط أساسى ليس فقط بالنسبة للمرشح للامامة ، ولكن هو ضرورى أيضاً بالنسبة لطبقة أهل الاختيار، أى أصحاب الحق فى أنتخاب الامام . وهنالك تفسير آخر لمفهوم العلم بالنسبة للمختارين وللمختار بمعنى أن العلم بالنسبة لطبقة الأختيار هو العلم ... الذى يوصل إلى إختيار الأصلح . أما بالنسبة للامام فهو العلم الذى يوصل إلى مصلحة الجماعة فى الدنيا وسعادتها فى الآخرة . أما الشرط الثالث الذى يمثل فكرة التعيين أو الوصية فقد تحول عندهم إلى مبدأ الوراثة ، وهذا يعنى تحول الجماعة الاباضية عن مبدأ الاختيار. والمعروف أن الخوارج لم يوافقوا على مبدأ التعيين أو الوراثة وحاولوا منعه بكل السبل ، وأنهم وافقوا على مبدأ الشورى والانتخاب وألا يقتصر الترشيح على طبقة دون طبقة بل يكون مفتوحاً للجميع دون نظر لجنس أو لون أو قومية ؛ حتى أنهم أجازوا إمامة العبد الأسود طالما يتمتع بالأهلية .

أما الشرط الرابع ، وهو أنه لا قبيلة تمنعه إذا تغير عن طريق العدل ، فهو شرط سياسى يتنافى مع نظرية العصبية التى قامت عليها دولة الاباضية ، وقد هدف هذا المبدأ عند الخوارج إلى دفع ما يمكن أن تتعرض له الجماعة من استبداد

وتحقيق الحكومة المثالية التى يكون العدل وحده عصبيتها . وقد قال بعض مفكرى الخوارج أنه إذا تحقق العدل بين أفراد الجماعة فلن تكون هنالك حاجة إلى الامامة، أى إلى الحكومة. ومن الواضح أن أصحاب هذه الأفكار كانوا نظريين أكثر مما يجب ، فقد اثبتت التجربة أن الاباضيين حين أقاموا دولتهم فى تاهرت لم يستطيعوا تطبيق هذه الشروط وخاصة فى تطبيق الانتخاب الحر فى إختيار الامام، لأن إمامتهم صارت وراثية فى بنى رستم ، مثلهم فى ذلك مثل العباسيين والأمويين .

حقيقةً أن الجماعة الاباضية انقسمت على نفسها عند وفاة عبد الرحمن بن رستم ، وبعد أن خلفه فى الإمامة إبنه عبد الوهاب سنة ١٦٨ هـ./ ٧٨٤ م ، وأنكر البعض منهم أن يرث عبد الوهاب والده فى الامامة ونادوا بحرية الاختيار ، ولذلك أطلق على هؤلاء الناكرين إسم النكار أو النكارية ، بينما تمسكت الغالبية منهم بصحة إمامة عبد الوهاب على أساس إختيار الأفضل ، وكانوا يرون أنه الأفضل. وبهذا نرى أنفسنا أمام أسرة من الأئمة تورث الحكم لأبنائها دون غيرهم من الناس وهم يتشابهون فى ذلك مع الشيعة وغيرهم ممن نادوا بالحكم الوراثى.

هذا وقد نجح عبد الرحمن بن رستم فى تثبيت أقدامه فى الإمامة وإقامة الدولة واستمرارها وتوريثها لأسرته من بعده. وقد توفى عبد الرحمن سنة ١٦٨ هـ.، بعد أن صار فى نظر الاباضيين فى الشرق والغرب إماماً لهم جميعاً بعد أن

توافرت فيه شروط الإمامة الأربعة وبسبب ما عُرف عنه من فضل وعدل.

وبعد شهر من وفاة عبد الرحمن بن رستم تمت مبايعة إبنه عبد الوهاب بالامامة، وإن كان هنالك بعض المعارضين على إختياره بحجة عدم جواز إمامة العالم إذا وُجد من هو أعلم منه. وقد خرج المنكرون لإمامة عبد الوهاب من تاهرت وارتحلوا إلى الجبال وأظهروا هنالك إنكار إمامته فعُرفوا بجماعة النكارية. وبذلك انقسمت الجماعة الاباضية الرستمية إلى فريقين : الوهبية، وهم أنصار عبد الوهاب ، والنكارية ، وهم المنكرون لإمامته، وقد تزعمهم يزيد بن فندين ، أحد المتطلعين للامامة.

وقد قام عبد الوهاب بمحاربة جماعة النكارية، ونجح فى قتل زعيمهم ابن فندين، فارتحل من تبقى منهم إلى المنطقة، ما بين تاهرت وجبل نفوسة، وهناك أعلنوها حرباً لا هوادة فيها على عبد الوهاب، الأمر الذى اضطره إلى قتالهم طوال عهد امامته وحتى وفاته سنة ١٨٨ هـ.

ولما توفى عبد الوهاب خلفه فى إمامة الاباضية إبنه أفلح، وقد اختاره للامامة رؤساء الجماعة الاباضية بتاهرت لصلاح حاله وكثرة علمه، كذلك لشجاعته، وهى الصفة الخامسة التى أضيفت لشخص الامام وذلك لخوف الجماعة من كثرة العدو من حولهم، وهى صفة لزم توافرها عندهم للامام وقت الشدة.

وانبرى أفلح يقاتل المعارضين لحكمه من جماعة النكارية ، وكان على رأسهم خلف بن السمح، الذى رفض الاعتراف بامامة أفلح، وأنشأ فرقة إباضية

ثالثة منشقة عن النكارية ، عُرفت باسم الخلفية، نسبةً إليه. فأصبحت فرق الاباضية بذلك ثلاثة فرق ، وزاد عليها ، بعد ذلك ، فرقتين أخريتين ، وهما : فرقة المستاوية ، وهم أتباع عبد الله بن يزيد المستاوى ، وفرقة الحسنية ، وهم أتباع أحمد بن الحسن الاباضى.

وقد خلف أفلح بن عبد الوهاب بعد وفاته سنة ٢٣٨ هـ. إبنه ابو بكر ، ثم تولى الامامة بعده أخوه أبو اليقظان محمد بن أفلح ، حسب وصية أخيه لعلمه وورعه. واستمر أبو اليقظان إماماً للدولة الرستمية مدة أربعين عاماً حتى وفاته سنة ٢٨١ هـ. ، وقد قورنت إمامته لطولها وكفاءته فى الحكم بامامة جده الأول عبد الرحمن بن رستم.

وبعد وفاة أبى اليقظان محمد ، وقع الخلاف بين الأسرة على من يتولى الحكم ، وبايع البعض إبنه أباحاتم يوسف ، لكن عمه يعقوب بن أفلح نازعه فى الامامة وانتهت حياة أبى حاتم نهاية دامية إذ قتله بنو أخيه سنة ٢٩٤ هـ. ، أى قبل سنتين من نهاية الدولة الرستمية الاباضية فى تاهرت وسقوطها فى يد الشيعة الفاطميين سنة ٢٩٦ هـ.

ب - دولة بنى مدرار (واسول) الصُفرية فى سجلماسة (١٤٠ - ٢٩٧ هـ)

أقام الخوارج الصُفرية دولتهم فى سجلماسة سنة ١٤٠ هـ . وتقع سجلماسة (الريسانى) على وادى نهر ملويه جنوبى تلمسان فى شمال وادى درعة على طرف الصحراء المغربية جنوباً وتليها الصحراء الكبرى التى تؤدى إلى غانة فى غرب افريقيا. وتُعرف المنطقة التى تقع فيها مدينة سجلماسة باسم اقليم تافللت وكان تسكنه قبائل الملثمين الصنهاجية من مسوفة ولمتونة وقبيلة مكناسة أهم قبائل البربر فى تلك المنطقة ، وهى التى أيدت ثورة ميسرة الخارجى فى إقليم طنجة. ولقد كانت سجلماسة، قبل أن يتوسع بنو مدرار فى بنائها سنة ١٤٠هـ قرية بسيطة فى الصحراء تقع على مفترق الطرق التجارية عبر الصحراء الغربية ، وبانيها الحقيقى هو عيسى بن يزيد الأسود ، وهو من فلول أصحاب ميسرة .

ولقد استفاد الخوارج الصفرية من اضطراب الأحوال فى المغرب فى أواخر النصف الأول من القرن الثانى الهجرى وأقاموا دولتهم ، مستغلين انشغال عمال الخلافة فى المغرب عن الأقاليم الغربية والجنوبية بتدعيم نفوذهم فى المغرب الأدنى وافريقية. وقد جاء إختيار الخوارج الصُفرية لاقليم تافللت بأقاصى الصحراء الكبرى إختياراً موفقاً لبُعد هذا الاقليم النائى عن الصحراء من ناحية الجنوب والغرب ولصعوبة الوصول إليه لامتداده خلال متاهات من القفار والرمال

ولذلك فهو فى حماية طبيعية أتاحت لبربر مكناسة التحصن فى هذا الاقليم. ومكناسة هى العصبية الأساسية التى ارتكزت عليها دولة سجلماسة وهم من البربر البتر ، كذلك أسهمت عناصر أخرى فى قيام الدولة مثل بربر صنهاجة وزويلة وزناتة وزنوج السودان الغربى.

ويُعزى دور مكناسة القيادى إلى أسبقيتها فى اعتناق المذهب الصُفرى ، وقد وصلها المذهب فى وقت مبكر وتلقاه المكناسيون عن أئمتهم ورؤوسهم فى المغرب ، وكان زعيمهم أبو القاسم سمكو بن واسول المكناسى ، الملقب بمدرار ، على صلة بالداعى الخارجى عكرمة مولى ابن العباس منذ وصوله إلى القيروان ، وهو من أشهر دعاة الصفرية فى بلاد المغرب على الاطلاق . وبعد أن نشر ابن واسول المذهب بين قومه من قبيلة مكناسة أخذ فى بثه بين سكان إقليم تافللت.

وقد نزل ابن واسول تافيللت سنة ١٣٨ هـ ، واشتغل هناك بالرعى وأخذ يتصل بالرعاة الذين كانوا ينتجعون بقطعانهم موضع سجلماسة ويعلمهم أصول المذهب الصفرى. وظل نفوذه يزداد هنالك حتى أعلن فى سنة ١٤٠ هـ قيام دولة الصفرية وقد بايعه قومه من مكناسة على السمع والطاعة وفى نفس الوقت بايعوا عيسى بن يزيد الأسود بالإمامة بعد أن أمرهم ابن واسول بذلك، وكان ذلك تطبيقاً عملياً لرأى الخوارج فى الإمامة.

وقد ساعد ازدهار مدينة سجلماسة على تدعيم دولة بنى مدرار ، فقد غدت هذه المدينة قبلة للخوارج الصفرية فى بلاد المغرب جميعهاً وقصدها جموع

الصفرية من كل صوب لاتذين بها هرباً من انتقام ولاة العباسيين من آل المهلب. وكان لذلك أثره فى تدعيم الكيان السياسى لدولة الصفرية التى كانت تعانى من نقص السكان. وقد أدت هذه الهجرات الجماعية بدورها إلى نتائج سياسية هامة أثرت فى التطور السياسى لدولة بنى مدرار. فقد هجرت بقية بطون مكناسة مواطنها الأصلية واستقرت فى المدينة الجديدة ، وغدت أكبر العصبيات وأقواها ؛ الأمر الذى أهلها للزعامة السياسية والتطلع لمنصب الامامة.

وفى سنة ١٥٥هـ إنتقلت الامامة لابن واسول ، بعد أن سخط صفرية مكناسة على الامام عيسى بن يزيد الأسود السودانى الأصل، فقاموا بتنحيته وقتله وولوا زعيمهم ابن واسول مكانه.

ولما آلت الامامة لابن واسول ، ظلت من بعده حكراً على صفرية مكناسة التى إختصت باختيار الأئمة من بنى واسول وأخذ البيعة لهم من جمهور الصفرية فى سجلماسة وتوابعها ، واستمر هذا الحال قائماً فيهم حتى نهاية دولتهم على يد الفاطميين.

وقد حكم ابن واسول حتى وفاته سنة ١٦٨هـ مدة ثلاث عشرة عاماً ، وخلفه من بعده إبنه إلياس ، الملقب بأبى الوزير (١٦٨ - ١٧٤ هـ) . والمصادر لا تمدنا بأية أخبار عن أحوال الدولة الصفرية فى عهده ، ويبدو أنه كان خاملاً فاتر الهمة ، مما جعل الصفرية ينقمون على حكمه وينتفضوا عليه ويولوا مكانه أخاه اليسع، الملقب بأبى المنصور ، الذى طالت إمارته وكانت أربعة وثلاثين عاماً

(١٧٤ - ٢٠٨ هـ / ٧٩٠ - ٨٢٣ م).

وقد عُرف اليسع بجده ونشاطه ورغبته فى تقوية دولته وتوسعة رقعتها وقد أخضع قبائل البربر المحيطة بسجلماسة ممن لم تكن خاضعة لهم وأدخلها فى طاعته. وكان صاحب الفضل فى نشر المذهب الصفرى فى بلاد المغرب. حتى وادى درعة. وفى عهده اتسعت سجلماسة وزاد عمرانها بفضل ما كان يأتيه من أموال وخاصة خمس المعدن الذى كان مفروضاً على مناجم درعة الشهيرة بمعادنها.

وقد تطلع جيران اليسع من بنى رستم الاباضية ، إلى كسب وده حتى يأمنوا جانبه وليضمنوا أيضاً الأمن والاستقرار لاخوانهم الاباضية المقيمين فى سجلماسة. ويفسر ذلك تزويج عبد الرحمن بن رستم إحدى بناته ، وتُدعى أروى ، لأحد أبناء اليسع ويدعى مدرار ، وبذلك ارتبطت الدولتان الخارجيتان برباط المصاهرة.

ولما توفى اليسع سنة ٢٠٨ هـ ، خلفه فى حكم الدولة الصفرية إبنه مدرار، الذى لقب بالمنتصر. وفى عهد مدرار اندلعت ثورات الخوارج الاباضية فى سجلماسة ضد الدولة واشتعل الصراع بين الاباضية والصفرية. وقد وجد الصراع طريقه إلى البيت المدرارى نفسه ، ذلك لوقوع الخلاف بين إبنى مدرار على ولاية العهد من بعده. وكان لمدرار ولدين أحدهما من أروى يدُعى ميمون والآخر من زوجة أخرى تُدعى بقية ويسمى ميمون أيضاً ولذلك عُرف ابن بقية

بميمون ، ابن بقية.

وكان مدرار يؤثر ابن أروى الرستمية على أخيه فعهد إليه بولاية عهده ، وكان ذلك انتصاراً لاباضية سجلماسة. وفى الوقت نفسه آزر الصفرية ابن بقية. ودخل الطرفان فى صراع استمر لمدة ثلاث سنوات (٢٢١ -٢٢٤ هـ.) كان مدرار المنتصر خلالها مسلوب الارادة. ثم أقدم مدرار على خرق تقاليد الإمامة إذ قام بخلع نفسه عنها وتوليته ميمون ابن الرستمية مكانه بعد طرده لابن بقية من سجلماسة. فأغضب هذا التصرف ، من جانب مدرار ، شيوخ الاباضية من بسجلماسة لانتهاكه تعاليم المذهب من ناحية ولخوفهم من وقوع البلاد تحت سيطرة الاباضية من ناحية أخرى ، فصمموا على خلع ابن الرستمية وتم خلعهم له بالفعل ، وقام شيوخ الصُفرية بمبايعة ابن بقية سنة ٢٢٤ هـ. وبادر ابن بقية بطرد أبيه من سجلماسة إلى إحدى القرى ، فظل فيها حتى وفاته سنة ٢٥٣ هـ ، وظل ابن بقية حاكماً حتى وفاته سنة ٢٦٣ هـ. ، ثم خلفه من بعده إبنه محمد ، الذى لم ترد فى المصادر أخبار عنه إلا ما ذكره عنه ابن خلدون من أنه كان مستبداً فى حكمه وأنه كان مضطراً لذلك لمواجهة فتن الاباضية ومؤامراتهم. ويبدو أن محمداً هذا قد نجح فى إستئصال شأفة الأباضية من بلاده لأننا لم نسمع عن حركات مقاومة منهم له طوال حكمه الذى استمر سبع سنوات.

ولما توفى محمد خلفه إبنه اليسع (الثانى) سنة ٢٧٠ هـ. ، والذى لُقب بالمنتصر ، وفى عهده وقعت حادثة الغزو الشيعى الفاطمى لسجلماسة الذى نجح فى قتل اليسع واسقاط دولة بنى واسول المدرارية سنة ٢٩٧ هـ./٩١١ م.

العصر البويهى
(٣٣٤ - ٤٤٧ هـ / ٩٣٢ - ١٠٥٥ م)

يطلق على الفترة ما بين سنوات ٣٣٤ و ٤٤٧هـ ، اسم العصر البويهى ، أو عصر سيطرة البويهيين على الخلافة العباسية فى العصر الثانى زهاء قرن من الزمان ، وذلك نسبة لبنى بويه الفرس الديالمة ، أصحاب النفوذ الحقيقى والسلطان الفعلى فى العراق فى ذلك الوقت.

والبويهيون جماعة من الفرس ، ينتسبون إلى بلاد الديلم ، وهى المنطقة الجبلية الواقعة جنوب غربى بحر قزوين ، وقد عرفها المسلمون باسم بلاد الخزر. وقد جعلت وعورة التضاريس فى تلك المنطقة وارتفاع الجبال من الديالمة مقاتلين أشداء ومحاربين أكفاء ؛ لذلك استخدمهم أمراء النواحى فى جيوشهم ليستفيدوا من كفاءاتهم ومهاراتهم القتالية. وقد دفع فقر هذه البلاد إلى لفظ سكانها لها وتطلعهم إلى البلاد الغنية المجاورة لهم ، لذلك عمل الكثير منهم كجند مرتزقة لمن يدفع لهم. وقدكان البويهيون من هؤلاء الديالمة الفرس الذين دفعتهم الحاجة إلى احتراف العسكرية بعد أن عز عليهم ايجاد الأعمال المدنية المربحة .

وقد روُى عن معز الدولة أحمد بن بويه ، رئيس البيت البويهى أنه قال عن نفسه أنه كان يحتطب الحطب على رأسه لكسب قوته قبل أن يحترف العسكرية.

ولقد أدى فقربلاد الديلم ، إضافة إلى اضطراب الأحوال فيها ، وتناحر القبائل بعضها مع البعض هناك على لقمة العيش ، إلى هجرة هؤلاء الديالمة

لبلادهم وتسربهم إلى بلاد العالم الاسلامى المجاورة الأكثر رخاءً ، عبر خط ينزل من مدينة الرى فى الشمال نحو الجنوب إلى شرقى بلاد فارس ، فى منطقة الحدود بين دولة الخلافة العباسية ودولة السامانيين المستقلة.

ولقد اعتنق الديالمة الاسلام ، على مذهب الشيعة الزيديين ، بسبب قيام الحركة الزيدية العلوية فى بلادهم وانتشار المذهب الزيدى بينهم ، وهو المذهب الشيعي المعتدل وأقرب المذاهب إلى مذاهب السُنة.

ولقد أدى تدفق الشيعة الديالمة على حدود الدولة العباسية ، إلى إنزعاج حكام هذه الدولة ، وحاولوا ، قدر الامكان ، وبالتعاون مع السامانيين وقف هذا الزحف نحو أراضى دولة الخلافة ، لكن جهود العباسيين والسامانيين لم تفلح فى ذلك فلقد كان الموجُ أشد وأقوى من أن يُواجه. ونجح هؤلاء الديالمة فى إقامة دولة لهم عُرفت بالدولة الزيارية ، نسبة لمؤسسها مرداويج بن زيار الديلمى فى منطقة طبرستان (جنوبى بحر قزوين) ، والتى كانت البداية الحقيقة لقيام دولة البويهيين.

وكان بنو بويه فى أول أمرهم ، بعد أن احترفوا الجندية ، يعملون فى خدمة مرداويج الديلمى ، مؤسس الدولة الزيارية ، وقد أخذ نجمهم فى الظهور فى ظل دولته حين نجحوا فى الاستيلاء على همذان وأصبهان وضمهما للدولة الزيارية. ولكن سرعان ما تخوف الأمير الزيارى من قوة شخصية على بن بويه وتفوقه فى القتال وبروز شخصيته وتزايد أتباعه ، فقرر الخلاص منه ؛ فافتعل

العداوة معه وأرسل لاخراجه من أصفهان قوة بقيادة أخيه وشمكير بن زيار الديلمى. ونجح وشمكير فيما وكله أخوه إليه ، فغادر على بن بويه وأعوانه إلى أرجان ، وتقدم بقواته بعد ذلك إلى شيراز سنة ٣٣٢ هـ. واستولى عليها ، كما أرسل أخاه أحمد بن بويه إلى كرمان ونجح فى الاستيلاء عليها.

ولما قُتل مرداويج الديلمى على أيدى غلمانه ، وجد البويهيون فرصتهم للتوسع على حساب الزياريين وورثة مملكتهم. فتقدمت قوات البويهيين إلى أصفهان والرى واستولوا عليها واسقطوا بذلك دولة الزياريين وورثوا ممتلكاتها. واستمر البويهيون ، بعد ذلك ، فى توسعهم غرباً ، فاستولوا على بلا د فارس وعلى الأهواز وصارت قواتهم تقف على حدود العراق. وكتب على بن بويه إلى الخليفة العباسى الراضى بالله يعرض عليه طاعته ، على أن يعترف الخليفة بما صار تحت يده من بلاد ، فوافق الخليفة على ذلك وأجابه إلى ما طلب.

وكان نظام إمرة الأمراء فى بغداد قد ثبت فشله ، ولم يستطع حل مشاكل دولة الخلافة ، بل زاد من مشاكلها وأوقع البلاد فى الفوضى والاضطراب ؛ الأمر الذى دفع أهل بغداد إلى الاستنجاد بأحمد بن بويه ليقر الأمور فيها ، بعد الذى سمعوه عن حسن إدارته وقوة شخصيته وكفاءته كحاكم وقائد. واستجاب أحمد بويه لطلب أهل بغداد ، وكانت هذه هى الفرصة التى طالما تمناها البويهيون للسيطرة على دولة الخلافة. فتقدم أحمد بن بويه نحو بغداد ودخلها سنة ٣٣٤ هـ. فلم يجد الخليفة العباسى المستكفى بالله (ابن المكتفى بن المعتضد) الذى بويع

سنة ٣٣٣هـ. بالخلافة بعد خلع المتقى ، بُدأ من الترحيب والحفاوة بالأمير البويهى أحمد بن بويه حين وصل إلى بغداد. وما لبث الخليفة أن ولىّ أحمد بن بويه إمرة الأمراء وأسبغ عليه بلقب معز الدولة ، وعلى أخيه على بن بويه بلقب عماد الدولة ، وعلى أخيه الحسن بن بويه بلقب رُكْن الدولة ، وأمر أن تضرب ألقابهم على دنانير الدولة ودراهمها. وهكذا دخلت الخلافة العباسية عصر سيطرة النفوذ البويهى على العراق.

هذا وقد استبد حكام البويهيين بالسلطة دون الخليفة العباسى ، بل أنهم سلكوا نفس سياسة قواد الأتراك فى التضييق على الخلفاء العباسيين والاساءة اليهم وسوء معاملتهم. وهم فى ذلك لم يُحدثوا أمراً جديداً بل ورثوا وضعاً كان قائماً من قبلهم. ويروى صاحب الفخرى عن معاملة مُعز الدولة البويهى مع الخليفة المستكفى بالله قوله : «وأن معز الدولة ركب يوماً إلى دار الخلافة وسلمَّ على المستكفى وقبلَّ الأرض بين يديه ، وأمر المستكفى فطُرح كرسى فجلس عليه معز الدولة . ثم تقدم إلى المستكفى رجلان من الديلم ، بمواطأة معز الدولة ، فمدا أيديهما نحوه ، فظن المستكفى أنهما يريدان تقبيل يده ، فمد يده ، فجذباه ونكسّاه من السرير ، ووضعا عمامته فى عنقه وسحباه. ونهض معز الدولة ، وضُربت البوقات والطبول ، واختلط الناس ، ودخل الديلم إلى حرم الخليفة. وحُمل المستكفى إلى دار معز الدولة فاعتُقل بها ، وخُلع من الخلافة ونُهبت داره ، وسُملت عيناه ، ولم يزل فى دار السلطنة معتقلاً حتى توفى سنة ٣٣٨ هـ».

وبعد أن خلع معز الدولة البويهى الخليفة المستكفى ، أحضر الفضل بن المقتدر ، وأقامه خليفةً بدله باسم المطيع لله ، وذلك سنة ٣٣٤هـ. وكان المطيع خليفة ضعيفاً ، ولم يكن له مع معز الدولة البويهى من الأمر شئ سوى ذكر اسمه فى الخطبة ونقش اسمه على السكة ، وقد حدد معز الدولة له اقطاعات قليلة يتعيش منها. واستمر هذا الخليفة مجرد رمز للخلافة حتى سئم الخلافة وتنازل عنها سنة ٣٦٤هـ لإبنه عبد الكريم، الذى بويع خليفة باسم الطائع لأمر الله. وكان مرض الفالج قد تمكن من المطيع وثقُل لسانه الأمر الذى جعله يتنازل عن الخلافة لابنه بموافقة معز الدولة. وظل الطائع العوبة فى يد البويهيين حتى قبضوا عليه وعزلوه عن الخلافة سنة ٣٨١ هـ. وبايع البويهيون بعده لأحمد بن اسحاق بن المقتدر بالخلافة باسم القادر. وقد استمر القادر فى الخلافة مدة طويلة حتى وفاته وهو عليها سنة ٤٢٢ هـ. ثم تولى الخلافة بعده إبنه عبد الله ، باسم الخليفة القائم بأمر الله ، وقد طالت خلافته حتى انتهت دولة بنى بويه أثناء توليه الخلافة.

هذا ولم يحاول البويهيون ، رغم اعتناقهم المذهب الشيعى ، أن يحولوا الخلافة عن العباسيين للعلويين وعن المذهب السنى إلى المذهب الشيعى ، وكان ذلك فى مقدورهم لو أرادوا لأن السلطة الفعلية فى البلاد كانت فى يدهم والخليفة لم يكن له آنذاك حول ولا طول . وقد فكر معز الدولة البويهى فى ذلك فى بداية تسلمه السلطة فى البلاد ، لكن خواصه حذروه مغبة الاقدام على هذه الخطوة خشية إثارة الشعب الاسلامى السنى المذهب ضده. كذلك أشاروا اليه إلى أنه من مصلحة البويهيين أن يحكموا الدولة فى ظل خليفة عباسى ضعيف يستأثرون

بالأمر دونه من أن يبايعوا خليفةً علوياً قوياً قد يسلبهم السلطة والسلطان الذى وصلوا إليه وقد يعمل على الخلاص منهم والاستبداد بالأمور دونهم. لذلك تحول معز الدولة عن تنفيذ فكرته وظل يستأثر بالسلطان دون الخليفة العباسى ، وسار خلفاؤه من حكام البويهيين على نفس السياسة وتزايد نفوذهم فى الدولة ، ويظهر ذلك إذا ما قارنا الألقاب التى حملوها بألقاب الخلفاء ؛ ففى الوقت الذى كانت ألقاب الخلفاء فيه تتناقص وتأخذ شكلاً يدل على الضعف والاستكانة : كالمطيع والطائع ، كانت ألقاب البويهيين تتزايد وتتعاظم : كعضد الدولة وجلال الدولة وشاهنشاه (ملك الملوك) وغيرها.

ولقد ظل البويهيون اقوياء ، داخل العراق وخارجها ، طالما كانوا حريصين على وحدتهم وتماسكهم ، لكن البيت البويهى سرعان مادب النزاع بين أفراده وسادت الفرقة بينهم حين وقعت الحروب بينهم عقب وفاة عضد الدولة. وكان عضد الدولة قد استطاع أن يوحد دولة البويهيين عقب وفاة معز الدولة سنة ٣٥٦ هـ باستيلائه على ممتلكات عز الدولة بختيار بن معز الدولة وممتلكات أخيه ركن الدولة.

ذلك لأنه لما تُوفى معز الدولة خلفه فى مناصبه ورياسته للبيت البويهى إبنه عز الدولة بختيار فى حكم العراق والأهواز وكرمان. وقد حدث أن ثار الجند على بختيار فاستنجد بابن عمه عضد الدولة بن عماد الدولة (على بن بويه) ، وكان من أقوى أمراء بنى بويه وأبعدهم نظراً فى السياسة والادارة ، فتقدم

عضد الدولة لمساعدة ابن عمه بختيار ونجح فى اخماد ثورة الجند واعادة الأمور إلى نصابها . إلا أن عضد الدولة لم يكن مخلصاً لابن عمه بختيار ، إذ كان يطمع فى أملاكه ، وبالفعل نجح فى الاستيلاء عليها والاطاحة بحكمه ، كذلك نجح فى انتزاع أملاك أخيه ركن الدولة . وتمكن عضد الدولة بذلك من توحيد الدولة البويهية كلها تحت سلطانه وعادت كما كانت أيام مؤسسها معز الدولة، وبلغت أوج ازدهارها وقوتها.

لكن لما مات عضد الدولة، نشب القتال بين أبنائه حول ممتلكات أبيهم، وانتهى القتال بينهم بانتصار إبنه بهاء الدولة ، الذى ظل يحكم حتى وفاته سنة ٤٠٣ هـ. وتقسمت الدولة، بعد وفاة بهاء الدولة بين أبنائه الأربعة، الذين لم يستطيعوا الحفاظ على البلاد التى كانت فى أيديهم فسقط بعضها فى أيدى أمراء البلاد المجاورة.

وخلف بهاء الدولة بعد وفاته سنة ٤٤٠هـ إبنه أبو كاليجار، ومن بعده أبو نصر خسرو، الذى انتزع السلاجقة فى عهده سنة ٤٤٧هـ، ما كان للبويهيين من سلطة وسلطان فى دولة الخلافة، وذلك بدخول الأمير السلجوقى طغرلبك بغداد وإزالة سيادة البويهيين عليها، ولتفرض عليها سيادة جديدة هى السيادة السلجوقية ، ولتدخل الدولة العباسية ثانية فى دور جديد من أدوار تحكم الأتراك فى العراق ، عُرف بعصر سيادة الأتراك الثانى تحت الحكم السلجوقى ، وليستمر هذا العصر حتى نهاية الدولة العباسية فى العراق على يد المغول سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨ م.

العصر السلجوقى
(٤٤٧ - ٦٥٦هـ / ١٠٥٥ - ١٢٥٨م)

يطلق على القرنين الأخيرين من عمر الدولة العباسية اسم العصر السلجوقى، الذى تميز بخضوع بغداد للسيطرة التركية السلجوقية حتى نهاية الخلافة العباسية فى العراق على يد المغول.

واصل السلاجقة من الترك الغز (الخزر)، الذين كانوا يقيمون فى الصحراء الواسعة الممتدة من حدود الصين حتى شواطىء بحر قزوين. وكان السلاجقة يخدمون عند ملوك الترك شرقى نهر جيحون، وعرفوا بهذا الاسم نسبة الى زعيمهم سلجوق بن دقاق، الذى دخلوا السلام على عهد رياسته على المذهب السنى.

وقد نشأ سلجوق، جد السلاجقة جميعا، نشأة عسكرية خشنة، وكانت امارات النجابة والرئاسة ظاهرة عليه، فقربه ملك الترك الغز اليه واحتفى به وجعله (شباشيا)، أى قائد الجيش فى لغتهم. ونبغ شلجوق بعلو همته واستمال قلوب الرجال بعقله وكرمه وانقاد الأكابر اليه. ويقال أن زوجة ملك الترك خافت على زوجها منه لعلو مكانته وخطورة شخصيته فنبهته الى ذلك ونصحته بالخلاص منه، وقيل إنها قالت لزوجها: «إنى أتوسم فى سلجوق تغلبا عليك، والرأى عندى أن تقتله، فقد كثر ميل الناس اليه»، فقال لها: «سوف أبصر ما أصنع فى أمره»، وأخذ فى التربص له، ولما أحس سلجوق ذلك وظهر له تغير

ملك الترك، جمع عشيرته ومن تابعه وحالفه من الأتراك الغز، ونفر بهم من بلاد الترك الى بلاد المسلمين، فلما دخلها أظهر الاسلام ليكون المسلمون عونا له وليمكنوه من المسكن والمرعى. فنزل بجنده حيث نزل، وشرع فى غزو من قاربه من أصناف الترك الكفار، وقد كان لملك الترك اتاوة سنوية مفروضة على تلك البلاد المتاخمة لبلاده فقطعها سلجوق وطرد منها نوابه فيها. ومات سلجوق وهو يبلغ من العمر مائة عام. ولما مات انتقلت زعامة السلاجقة الى أكبر أبنائه أرسلان، الذى أحرز الإنتصارات على الاتراك الكفار.

وكان الغزنويون قد أدركوا قوة السلاجقة، فخافوا منهم على ملكهم، وأراد السلطان محمود الغزنوى أن يتخلص من شرهم فسمح لهم بالاستقرار فى خراسان بعد أن أعلنوا ولاءهم له. وقد نجح السلاجقة فى خراسان فى توحيد صفوفهم بعد وفاة محمود الغزنوى وأخذوا فى التوسع فيها، ونجح زعيمهم طغرلبك فى ايقاع الهزيمة بالغزنويين سنة ٤٢٩هـ عند سرخس، ثم توجه الى نيسابور واستولى عليها، وهنالك أعلن فى رمضان من نفس العام قيادة دولة السلاجقة، ونصب نفسه سلطانا، واتخذ مدينة الرى قاعدة لحكمه، وكانت تلك الخطوة هى البداية الرسمية لقيام دولة السلاجقة، ويتعبر طغرلبك المؤسس الحقيقى لدولة السلاجقة. وأول سلاطينهم. ومازال أمر طغرلبك يقوى، حتى كانت حركة البساسيرى وتغلبه على بغداد ونهبها والقبض على الخليفة العباسى القائم بأمر الله وحبسه بالقلعة، واستنجاد هذا الخليفة بالسلطان السلجوقى طغرلبك، وقدومه الى بغداد وتوليه السلطة فيها.

حركة البساسيرى ودخول طغرلبك بغداد:

لم تكن حالة الخلافة العباسية فى عهد الخليفة القائم بأمر الله بخير ما كانت فى عهد من سبقه من خلفاء العباسيين، فقد تجلى فى أيامه استئثار بنى بويه بالسلطة وقيام النزاع على المنافسة بينهم وبعضهم البعض من جهة وبينهم وبين الجند من جهة أخرى. وكان أبو كاليجار ابن سلطان الدولة قد حاول ان يستعيد سلطان البويهيين الأول فى بغداد أيام معز الدولة وعضد الدولة، ونجح بعض الشىء، فى تحقيق ذلك سنة ٤٣٦هـ بعد استمالة كبار القواد فى الجيش اليه واغداقه عليهم. وكان طغرلبك قد استولى على خراسان والرى فى عهده سنة٤٣٩هـ، من أجل ذلك خاف منه ومن توسعه وعمل على التصالح معه وتوثيق عرى المودة بينهما بتزويج ابنته لطغرلبك وتزويج ابنه أبى المنصور من أبنة الملك داود أخى طغرلبك.

وفى نفس الوقت عمل أبو كاليجار على التقرب من الفاطميين، حتى يرهب بهذا التقرب خلفاء العباسيين الأمر الذى لا يجعلهم يطلبون العون من السلاجقة الذين كانوا الخطر الحقيقى الذى يهدد دولة البويهيين آنذاك. وكانت الدعوة الفاطمية الاسماعيلية. اذ ذاك، قد لقيت قبولا عند ديالمة فارس على يد الداعى المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى، الذى قام بدور هام فى نشر الدعوة للخليفة المستنصر بالله الفاطمى فى بلاد الفرس والعراق، واستطاع بسياسته أن يجذب الملك أبا كاليجار البويهى الى هذه الدعوة. ولما رأى الخليفة العباسى

القائم بأمر الله الخطر الذى يهدد كيان دولته والمذهب السنى فى بلاد فارس والعراق، من جراء نشاط الشيرازى فى نشر الدعوة الفاطمية، بعث رسولا من قبله الى أبى كاليجار يطلب منه فيها تسليم داعى الفاطميين، ويهدده بالاستعانة بالسلاجقة واغرائهم بدخول بغداد. لكن أبا كاليجار، لم يعبأ بتهديد الخليفة أول الأمر، وفى نفس الوقت خاف على الشيرازى، فأرسل اليه يحذره من نوايا الخليفة العباسى وينصحه بالعودة لمصر، فيستجيب الشيرازى لنصحه ويعود سنة ٤٣٨هـ لمصر.

ولما توفى أبو كاليجار سنة ٤٤٠هـ، خلفه فى منصبه ابنه أبو نصر خسرو فيروز، وبايعه الخليفة بذلك، واستقر ملك الأمير البويهى بالعراق بفضل مجهودات قائده التركى أبى الحارث أرسلان البساسيرى. وكان الخليفة العباسى القائم بأمر الله قد عين البساسيرى رئيسا لقواد الترك فى الدولة، الأمر الذى جعل البساسيرى يستبد بالسلطة فى بغداد حتى أصبح الخليفة لا يقع أمرا دونه ولا يحل ولا يعقد الا عن رأيه، فضعف أمر الخليفة معه، كذلك ضعف الى جانبه مركز السلطان البويهى. وكان البساسيرى قد تأثر بدعوة الشيرازى للفاطميين حين ساءت العلاقة بينه وبين الخليفة. وقد قام البساسيرى بمراسلة الخليفة الفاطمى المستنصر بالله بمصر وأخبره عن عزمه الدعاء له خليفة من فوق منابر بغداد وخلع الخليفة العباسى القائم من الخلافة.

هذا ولم تكن الأحوال السيئة فى بلاد العارق خافية على السلاجقة، الذين

كان نفوذهم قد ازداد آنذاك فى شرق الدولة الاسلامية، لذلك حاولوا انتهاز تلك الظروف لمواصلة جهودهم فى بسط سيادتهم على العراق. وفى أوائل عام ٤٤٧هـ، أظهر طغرلبك أنه يريد أداء فريضة الحج واصلاح طريق مكة والمسير الى الشام ومصر لازالة دولة المستنصر الفاطمية منها. وقد تجهز طغرلبك لذلك وأعد الرجال والأقوات والمؤن، ثم أرسل للخليفة العباسى القائم يعلن ولاءه وطاعته له ويستأذن فى دخول بغداد وهو فى طريقه الى مكة. فأذن الخليفة العباسى له، كما أمر الخطباء بالدعاء له فى الخطبة من فوق منابر بغداد، وقد دخل طغرلبك بغداد فى أواخر رمضان من نفس العام ودعى له بالفعل من فوق منابر بغداد .

على أن العامة فى بغداد أبدوا تذمرهم من دخول طغرلبك وجنده بغداد. وتمكنوا بمساعدة بعض قواد الأتراك من قتل عدد من جند السلاجقة. فاستاء لذلك طغرلبك، واستدعى على الفور الملك البويهى خسرو فيروز وأتباعه واتهمهم بتدبير ما حدث، وعاقبهم باعتقالهم وارسالهم مع الملك البويهى ليقتلوا فى قلعة قرب الرى. ولقد ظل الملك البويهى معتقلا فى تلك القلعة حتى وفاته بها بعد ثلاث سنوات من اعتقاله. ولما بلغ الخليفة ما حل بالملك البويهى وأتباعه، بعث الى طغرلبك ينكر عليه سياسة العنف التى لجأ اليها على أثر دخوله بغداد، وطلب منه وقواته الرحيل عن بغداد، فارتحل طغرلبك عنها بعد أن ظل فيها ثلاثة عشر شهرا لم يحظ خلالها بمقابلة الخليفة ولو لمرة واحدة.

وكان البساسيرى قد أخذ فى توطيد صلاته مع رجال الدولة الفاطميين، وأرسل للخليفة الفاطمى المستنصر بالله يعلن له ولاءه ودخوله فى طاعته وخروجه عن الخليفة العباسى. كذلك تبادل البساسيرى المكاتبات مع الداعى الشيرازى ، الذى كان بالقاهرة يرقب نشاطه فى بلاد العراق. وقد أرسل المستنصر الفاطمى تأييده للبساسيرى فى خروجه على الخليفة العباسى، وقام بارسال المال والسلاح لمعاونة البساسيرى الذى اتخذ من مدينة الرحبة قاعدة له بعد اعلان تمرده على الخليفة العباسى. ووصل الشيرازى الى الرحبة واستقبله البساسيرى هنالك استقبالا حافلا. وفى الرحبة وصلت للبساسيرى امدادات من المرداسيين والكلبيين وسائر أمراء الشام من العرب. وقد ساعدت هذه الامدادات البساسيرى فى الانتصار على القوات التى ارسلها طغرلبك لقتال البساسيرى، بقيادة ابن عمه قتلمش، فى موقعة سنجار سنة ٤٤٨هـ.

ولقد حاول طغرلبك، بعد الهزيمة، أن يعيد صفوف قواته، فأعد جيشا كبيرا خرج على رأسه بنفسه لكى يثأر للهزيمة التى حاقت بجيشه. كما انفذ طغرلبك كتبه الى خراسان وبلاد ما وراء النهر يستنفر فيها أتباعه هناك، ونجح بذلك فى حشد قوات كبرى تستطيع هزيمة قوات الفاطميين.لكن طغرلبك عدل عن زحفه بجيشه على قوات البساسيرى بسبب ثورة قام بها آنذاك ضده أخوه ابراهيم فى بلاد الجبل، ويبدو أنه قد تأثر بالدعوة الفاطمية وركن الى اغرائهم له بمساعدته فى تحويل مُلك الدولة من أخيه اليه.

فانتهز البساسيرى، فرصة انشغال طغرلبك فى الحرب ضد أخيه فى اقليم الجبل، وزحف الى بغداد بقواته التى حملت الرايات الفاطمية المستنصرية التى كتب عليها «الامام المستنصر بالله أبو تميم معد، أمير المؤمنين» وتمكن من دخولها يوم الثامن من ذى القعدة سنة ٤٥٠هـ، دون أن يلق مقاومة تذكر. ومال اليه أهل الكرخ، بسبب تشيعهم، ورحبوا بقدومه وأقاموا له الزينات فى السوق. وفى يوم الجمعة الثالث عشر من ذى القعدة من نفس العام أقام البساسيرى الخطبة بجامع المنصور الكبير للخليفة المستنصر الفاطمى، كما أُمر المؤذنين أن يؤذنوا «بحى على خير العمل». ثم خطب بعد ذلك، للخليفة الفاطمى من على جميع منابر بغداد وضربت السكة باسمه. وبعث البساسيرى الى المستنصر بمصر يبشره بفتح بغداد واقامة الدعوة والدعاء له من فوق منابرها. فعمت الفرحة مصـــر وازدانت شوارع القاهرة لهذا الحدث الكبير الذى سعى له العلويين منذ أمد بعيد.

ولقد ضعفت سلطة الخليفة العباسى القائم بدخول البساسيرى بغداد وتحرج موقفه بانصراف الناس عنه. وقام البساسيرى بالقبض عليه وحبسه بالقرب من مدينة الأنبار ومعه حريمه وحاشيته. وقد أرغم البساسيرى الخليفة، قبل مغادرته بغداد، على كتابة اقرار يعترف فيه بأن لا حق له ولا لأى من بنى العباس فى الخلافة مع وجود أبناء فاطمة الزهراء. ثم بعث بهذا العهد الى القاهرة حيث ظل محفوظا بقصر الخلافة حتى استرده السلطان صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٦٧هـ، وبعث به الى الخليفة العباسى المستضىء بالله فى بغداد مع بعض تحف خلفاء الفاطميين والهدايا التى استولى عليها من قصورهم على أثر الغاء الخلافة

الفاطمية فى مصر عند وفاة الخليفة الفاطمى العاضد، آخر خلفاء الفاطميين فى مصر.

كذلك أرسل البساسيرى الى الخليفة الفاطمى المستنصر بالله ثوب الخليفة وعمامته مع مبلغ من المال وكمية من التحف. وقد أثار وصول هذه الأشياء وقيام الدعوة الفاطمية بالعراق والدعاء للخليفة الفاطمى من فوق منابرها حماسا عظيما بين جمهور القاهرة الذى احتشد حول قصر المستنصر مهللا مكبرا فرحا لهذا الحدث العظيم. وعلى الرغم من الجهود التى بذلها البساسيرى فى سبيل نشر النفوذ الفاطمى بالعراق، فانه لم يتلق من الخليفة الفاطمى ما فيه الكفاية من المال والرجال والسلاح الأمر الذى يشجعه على مواصلة القيام ببسط سلطان الفاطميين على بلاد العراق. ولعل مرد ذلك الى سوء الأحوال واضطرابها فى مصر آنذاك وانشغال المستنصر بمواجهة هذه الاضطرابات السياسية والصاعب الاقتصادية.

وعلى الجانب الآخر، فان طغرلبك استطاع أن يقض على ثورة أخيه ابراهيم‌نيال، تلك الثورة التى أعطت الفرصة للبساسيرى لدخول العراق وفرض السيادة الفاطمية فيها. وما أن فرغ طغرلبك من أمر هذه الثورة اتجه بقواته الى العراق لنجدة الخليفة العباسى واعادته الى خلافته وازالة ما تم حول الخلافة على يد البساسيرى. ولما اقتربت قوات السلاجقة من بغداد، أدرك البساسيرى أنه لا قبل له بمواجهة هذه القوات الكبيرة لأن المدد لم يصله بعد من القاهرة، فأمر جنده

بمغادرة بغداد، فغادروها وهو على رأسهم سنة ٤٥١هـ، .لما دخل طغرلبك بقواته بغداد لم يجد أمامه أى مقاومة فاطمية فدخلها وقواته دون قتال واستولى عليها، وأرسل للخليفة العباسى يخبره بالنصر ويطلب منه العودة وحاشيته الى عاصمة الخلافة. ورأى طغرلبك أن يبالغ فى الاحتفال بعودة الخليفة العباسى القائم بأمر الله الى بغداد ليظهر اخلاصه وولائه له، وخرج فى مقدمة المستقبلين لاستقباله عند مدخل المدينة. ولما وصل قبل الأرض بين يديه، وأعتذر له عن التأخر لنجدته لانشغاله بالقضاء على تمرد أخيه عليه. ووعده بالمضى فى أعقاب البساسيرى والمسير الى الشام ومصر للقضاء على خلافة الفاطميين. وبالفعل أرسل طغرلبك جزءً من قواته وتعقبت البساسيرى وجنده الفارين، وأوقعت بهم الهزيمة سنة ٤٥١هـ عند الكوفة، وقتل البساسيرى أثناء القتال. وبذلك تيسر للأمير السلجوقى القضاء على حركة البساسيرى وعلى محاولة الفاطميين القضاء على الخلافة العباسية وجعل الخلافة فى العالم الاسلامى كله فقط للشيعة الفاطميين. فعاد الخليفة العباسى الى كرسى الخلافة فى بغداد، وخطب له ثانية من فوق منابرها، بعد أن ظل يخطب من فوقها لأكثر من عام للخليفة المستنصر الفاطمى.

السلاجقة والعباسيون:

حكم السلاجقة فى بلاد العراق تحت ظل الخلافة العباسية من وقت دخول طغرلبك بغداد (٤٤٧هـ) حتى سقوط هذه الخلافة فى العراق على يد المغول

(٦٥٦هـ). ولقد استأثر السلاجقة بالحكم دون الخليفة بداية من طغرلبك حتى آخر سلاطينهم. ولم يستطع خلفاء العباسيين مجابهة حكام السلاجقة بعد أن أعادوا لهم خلافتهم وانقذوهم من خطر الفاطميين. فاعترفوا لهم بهذا الجميل واستكانوا لتسلطهم ونفوذهم. وازداد السلاجقة فى نفوذهم بمصاهرتهم لبيت الخلافة حتى ينجبوا أبناء يكون من حقهم أن يرثوا عرش خلافة العباسيين. فلقد تزوج طغرلبك من أبنة الخليفة العباسى، وهو شرف لم يسبقه اليه أحد من رجالات العجم، لكن طغرلبك توفى سنة ٤٥٥هـ بعد أن ثبت السيادة والنفوذ السلجوقى على دولة الخلافة. وقد سار على هذه السياسة من جاء بعده من سلاطين السلاجقة حتى أصبحت حالة خلفاء العباسيين لا تختلف اختلافا كبيرا عما كانت عليه أيام سيطرة البويهيين. على أن معاملة السلاجقة للخلفاء العباسيين كانت أفضل، بعض الشىء، عن معاملة البويهيين لهم، ولعل سبب ذلك أن السلاجقة كانوا يعتنقون المذهب السنى، مذهب الخلافة العباسية، وكان عليهم أن يحترموا الخليفة رمز هذا المذهب. لكن، على العموم، اتفق كل سلاطين السلاجقة على الحد من نفوذ الخليفة وسلبه سلطاته وتسلم هذه السلطات منه حتى لا يبقى له سوى السيادة الشكلية والمظهرية. وقد تعسف بعض حكام السلاجقة مع خلفاء العباسيين، فنرى السلطان ملكشاه يصمم سنة ٤٨٥هـ على طرد الخليفة المقتدى من بغداد لأنه رأى فيه ميلا للتدخل فى الحكم ورغبة فى استعادة سلطانه كخليفة. كذلك نرى سلاطين السلاجقة يستولون من الخليفة المسترشد بالله على، بردة الرسول صلى الله عليه وسلم، التى ورثها خلفاء

العباسيين عن خلفاء الأمويين، والتى كانوا يرتدونها عند توليتهم الخلافة وعند حضورهم الاحتفالات الدينية، وكانت رمزا من رموز تولى الخلافة.

وتعد الفترة الأولى من العصر السلجوقى، والتى تشمل عصر سلاطينهم الثلاثة الأول: طغرلبك، والب أرسلان، وملكشاه عصرا زاهرا، يمكن أن نطلق عليه عصر سلاطين السلاجقة العظام. ففى هذا العصر تمكن هؤلاء السلاطين الثلاثة من السيطرة الفعلية على دولة الخلافة فى العراق وكانوا الحكام الفعليين لهذه الدولة، فضلا عن توسيع دولتهم واقامة امبراطورية مترامية الاطراف تمتد من التركستان وبلاد ما وراء النهر شرقا حتى البحر المتوسط غربا. واذا كانت هذه الدولة قد حملت اسم سلجوق بن دقاق، فان حفيده طغرلبك بن ميكائيل هو مؤسسها الحقيقى، كما سبق أن ذكرنا، وهو الذى ثبت الوصاية على الخلافة العباسية. هذا ولم تكن للسلاجقة تقاليد راسخة لتوريث الحكم فى دولتهم، لذلك كانت مشكلتهم المعتادة والمكررة عقب وفاة أحد سلاطينهم هى تنافس أبناء البيت السلجوقى على السلطة الأمر الذى يؤدى الى حدة الانقسام بينهم، حتى يتمكن أقواهم من اخضاع بقية المنافسين له وينفرد بالسلطان، وقد تكرر هذا الأمر مرارا عندهم.فعندما توفى طغرلبك (سنة ٤٥٥هـ) دب هذا النزاع بين أفراد السلاجقة على من يخلفه فى السلطنة، وذلك لعدم انجابه ولدا يرث ملكه. وكانت أرملة أخيه جغرى بك، التى كان قد تزوج منها بعد وفاة أخيه، جعلته يوصى بالسلطة من بعده لابنها الصغير سليمان بن جغرى. وقد قام الوزير عميد الملك الكندرى بتنفيذ الوصية وأعلن سليمان بن جغرى سلطانا فى مدينة الرى. لكن أخا سليمان

إبن جغرى وهو الب أرسلان بن جغرى، كان يرى أنه أحق بالسلطنة من أخيه لأبيه الصغير السن، فعزم الب أرسلان على المسير الى الرى وخلع أخيه سليمان، فخشى الوزير الكندرى سطوة ألب أرسلان، فانضم الى جانبه، ونادى به سلطانا على دولة السلاجقة،على أن يكون أخوه سليمان وليا لعهده، وبذلك أصبح ألب أرسلان فى ذى الحجة سنة ٤٥٥هـ، سلطانا لدولة السلاجقة بعد طغرلبك. الا أن بعض أفراد البيت السلجوقى لم يقبلوا تولى ألب أرسلان سلطنة السلاجقة، ورأوا أنفسهم أحق بها منه، فثار ضده الأمير قتلمش ابن عم جغرى بك، كذلك ثارضده عمه بيغو ميكائيل، وغيرهم لكن ألب أرسلان تغلب عليهم وأخمد ثورتهم ونجح فى أن يستخلص الحكم لنفسه، وأن يبقى سيطرة السلاجقة على دولة الخلافة فى العراق.

وأخذ ألب أرسلان، بعد ذلك، يتطلع الى توسيع دولته فى آسيا الصغرى، على حساب البيزنطيين، وفى الشام على حساب الفاطميين، ليكسب بذلك عطف العالم الاسلامى السنى بمجاهدة النصارى ومحاربة الشيعة.

ولقد نجح ألب أرسلان فى غزو أرمينية، وكانت الحاجز الذى يدفع عن الدولة البيزنطية ما يقع عليها من هجمات من جهة المشرق، فانفتح بذلك الطريق أمامه للتوغل فى آسيا الصغرى، الأمر الذى أفزع الامبراطور البيزنطى. وردا على ذلك، قام الامبراطور البيزنطى بمهاجمة بلاد الشام ليوسع على السلاجقة جبهة المواجهة، لذلك حول الب أرسلان حملاته الى بلاد الشام واستولى على جزء

كبير منها. وترك الامبراطور البيزنطى قوات السلاجقة فى الشام، وقطع بجيشه آسيا الصغرى،متجها صوب قلب الدولة السلجوقية. وما أن سمع ألب أرسلان حتى قطع حملاته على الشام وسحب جيشه منها، واسرع لملاقاة الامبراطور البيزنطى. ولما عاين الب أرسلان ضخامة عدد الجيش البيزنطى، آثر التفاوض وذلب الهدنة، لكن الامبراطور البيزنطى رومانوس ديوجينيس أعجبه كثرة جنده فاعتد بقوته ورفض المهادنة، وأعلن أنه لن يجيب على طلب الصلح مع السلاجقة الا فى عاصمتهم الرى بعد فتحها وهزيمتهم واخضاعهم. فغضب الب أرسلان لهذا الرد المتعجرف، والتهب حماسه الدينى، وقرر ملاقاة الجيش البيزنطى مهما كانت نتيجة اللقاء ومهما كان الثمن.

وجاء اللقاء الحاسم فى أرمينية، على مقربة من مدينة خلاط عند مانزيكرت (ملاذكرد)، يوم السابع من ذى القعدة ٤٦٣هـ/٦ أغسطس ١٠٧١م، واستطاع الجيش السلجوقى، بفضل حماسه الدينى الملتهب، أن يعوض للنقص الكبير فى عدده الذى لم يكن يتجاوز الخمسة عشر الف جندى، أن يلاقى الجيش البيزنطى البالغ عدده أكثر من مائة ألف جندى، وأن ينتصر عليه نصرا حاسما، وأن يبيد منه العدد الكبير، وأن يأسر الامبراطور الرومانى نفسه. ويرجع هذا النصر الساحق الذى حققه الجيش السلجوقى فى معركة مانزيكرت الى قوة ايمان المسلمين وحبهم للجهاد فى سبيل الله واعلاء راية الاسلام، كذلك بسبب خفة حركة فرسان السلاجقة فى مواجهة فرسان البيزنطيين المثقلين بالدروع، هذا فضلا عن هروب أعداد كبيرة من جنودهم لحظة الإلتحام فى المعركة مع جيش المسلمين

بسبب ضعف ايمانهم وتردى روحهم المعنوية. وازاء هذه الهزيمة، اضطر الامبراطور الرومانى أن يفدى نفسه بمبلغ كبير من المال، ويتعهد أن يدفع جزية سنوية كبيرة للسلاجقة، وأن يسلم لهم مدن أنطاكية والرها ومنبج، وأن يطلق سراح أسرى المسلمين، وأن يرسل الى السلطان السلجوقى عساكر الروم حين يطلبها لتقاتل لحسابه، على أن تسرى معاهدة الصلح بينهما مدة خمسين عاما يلتزم الامبراطور البيزنطى ببنودها خلال هذه المدة. لكن الامبراطور البيزنطى المنهزم، لم يكد يعود الى بلده حتى قبض عليه ثائر وثب على عرش الامبراطورية يدعى دوكاس، وقام بسمل عينيه وحبسه وتوفى بعد ذلك بأيام قليلة.

ويعد انتصار السلاجقة الحاسم في معركة مانزيكرت علامة بارزة في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ونقطة تحول خطيرة في كل من التاريخ الاسلامي والتاريخ البيزنطي علي سواء، فقد ترتب عليها ضياع الأجزاء الشرقية من الامبراطورية البيزنطية التي كانت بمثابة مخزن بشري لبيزنطة كان يمدها بالقادة والجند والمؤن. ولم يستطع البيزنطيون، بعد هذه المعركة، أن يوقفوا التوسع الاسلامي السلجوقي في آسيا الصغري التي قام فرع سلجوقي بتأسيس دولة له فيها هي التي عرفت بدولة سلاجقة الروم. وأصبحت آسيا الصغري مستوطنا لكثير من القبائل التركية التي أنشأت فيها لنفسها امارات خاصة كانت تمد في رقعتها علي حساب البيزنطيين الذين انحسر نفوذهم عن أملاكهم الأسيوية نهائيا. وسرعان ما نجد احدي القبائل التركية، التي عرفت بالعثمانيين، تستطيع

فيما بعد أن تجهز علي الدولة البيزنطية نفسها وتستولي علي حاضرتها القسطنطينية محققين بذلك حلما طالما راو دالمسلمين منذ العصر الأموي. ومن ناحية أخري، أدى انكسار الروم في مانزيكرت الي استغاثة البيزنطيين بالغرب الأوروبي، مما أدي الي فتح سلسلة طويلة من الصراع بين الشرق الاسلامي والغرب المسيحي، وهو الصراع الذي عرفت حروبه باسم الحروب الصليبية.

حكم السلطان ملكشاه:

لم يعش السلطان ألب أرسلان طويلاً بعد معركة مانزيكرت ، وكان قد توجه إلى المشرق على رأس جيش كبير لتأديب بعض المتمردين وإقرار الأمور هناك . وقد قتله أحد المتمردين ويُدعى يوسف الخوارزمى ، غيلةً بسكين كان يخفيها بين طيات ملابسه. ودُفن فى مرو ، بعد أن حكم قرابة العشرة أعوام. وكان الب أرسلان قد أكد ، قبل وفاته ، أن يتولى السلطنة من بعده إبنه ملكشاه، وكان قد تعهده فى حياته بالرعاية وأعده للسلطنة من بعده. غير أن ملكشاه، عند وفاة أبيه ، لم يكن قد تجاوز السبعة عشرة عاماً من عمره ، فقام على تدبير الأمر له وزيره نظام المُلك الطوسى ، الذى أخذ البيعة من الأمراء لملكشاه ، ثم دبر له شئون الدولة أحسن تدبير . وعلى الرغم من أن ملكشاه تولى السلطة بناءً على وصية أبيه ، إلا أن صغر سنه أطمع بعض أمراء السلاجقة فيه فنافسوه فى الحكم ، على عادتهم عند وفاة أحد سلاطينهم. فثار عليه عمه قاورد، صاحب كرمان ، معلناً أحقيته فى السلطنة دون ملكشاه ، لكن نظام الملك

وملكشاه استطاعا أن يهزما قاورد ويقتلانه.

ولتوطيد سلطانه ، أرسل ملكشاه إلى الخليفة العباسى القائم بأمر الله بطلب تجديد الاعتراف بسلطنته ، فلم يتردد الخليفة فى إجابة طلبه وخطب له من بعده ، وقد قام ملكشاه بتوطيد ملكه فى المشرق ، وفى نفس الوقت أراد أن يكمل مشروعات أبيه التوسعية فى بلاد الشام وآسيا الصغرى ، فأرسل قائده أتسز سنة ٤٦٧ هـ إلى الشام ، فاستولى على دمشق وأزاح عنها حكم الفاطميين . وأقطع ملكشاه أخاه تاج الدولة تُتُش بلاد الشام وأعمالها ، واتخذ تتش من دمشق حاضرة له وتفرغ لمواجهة الفاطميين ، وأسس هنالك فرعاً سلجوقياً عُرف باسم سلاجقة الشام. وفى نفس العام (٤٧٠ هـ) أقطع ملكشاه سليمان بن قتلمش أملاك السلاجقة فى آسيا الصغرى ، فأسس هنالك فرعاً سلجوقياً آخر عُرف باسم سلاجقة الروم. وقد نجح سليمان هذا فى الاستيلاء على مدينة أنطاكية من الروم ، فأطلت ، بذلك ، حدود السلاجقة فى بلاد الشام لأول مرة على سواحل البحر المتوسط . وقد قام ملكشاه بالاستيلاء على حلب وأقطعها إلى مملوكه آقسنقر ، والد عماد الدين زنكى ، الذى سوف يكون له دورٌ كبير هو وإبنه نور الدين محمود فى مقاتلة الصليبيين.

نظم ملكشاه أمور الشام وأقر أحوالها ، ثم ارتحل عنها إلى بغداد ، فاحتفى بمقدمه الخليفة العباسى المقتدى بأمر الله ، وأظهر ملكشاه ، من جانبه ، تواضعاً واحتراماً للخليفة العباسى . وتوطيداً للعلاقة بينهما زوّج ملكشاه إبنته

للخليفة العباسي سنة ٤٨٠ هـ/١٠٨٧ م ، وارتفعت بذلك مكانة ملكشاه أمام جمهور المسلمين فى كافة بلاد العالم الاسلامى باعتباره صهر خليفة المسلمين. ولقد وصلت دولة السلاجقة فى عهد ملكشاه إلى أقصى إتساع لها، وضمت أطرافاً مترامية من المشرق الاسلامى كله ، فضلاً عن آسيا الصغرى والعراق والشام.

وقد كان للوزير نظام الملك الطوسى دور عظيم فيما وصل إليه ملكشاه من نفوذ وهيبة وسلطان ، وكان ، فى المقابل ، يحفظ ملكشاه لوزيره أياديه البيضاء عليه ، ففوضه فى إدارة شئون الدولة تفويضاً كاملاً وأسبغ عليه من الألقاب والتكريم ما لم يتمتع به وزيرٌ آخر غيره . لكن ، للأسف ، ساءت العلاقات بين الملك ووزيره المحبوب فى أواخر أيامهما بسبب كثرة حُساد نظام الملك لمكانته فى دولة السلاجقة وعند السلطان ، فأخذوا يكيدون له عنده . وتفاقم خطر هؤلاء الحاقدين وازداد عندما انضمت اليهم زوجة السلطان ، تركان خاتون ضد نظام الملك بسبب وقوف نظام الملك دون جعل ولاية العهد فى الدولة لإبنها الصغير محمود ، وجعلها لابن السلطان الاكبر بركياروق ، وقد نجح المتآمرون ضد الوزير فى إيغار صدر السلطان ضده فتآمروا على اغتياله على يد أحد رجال الفداوية الاسماعيلية . وكان الحسن الصباح . داعى دعاة الشيعة الاسماعيلية فى المشرق ، قد استولى على عدة قلاع فى بلاد فارس أهمها قلعة الموت المنيعة واستطاع أن يكوّن فيها قوة كبيرة من أتباعه سنة ٤٨٣ هـ ، ودربهم على الطاعة والأعمال الفدائية لذا سموا بالفداوية ، وقاموا بالاغتيال كأسلوب لتصفية أعدائهم من كبار

الشخصيات ، وقد كان الوزير نظام الملك ، الذى كان فى حياته عدواً لدوداً للاسماعيلية ، من أكبر ضحاياهم ، فاغتالوه بتحريض المتآمرين ضده فى شهر رمضان سنة ٤٨٥ هـ. هذا ولم يعش السلطان ملكشاه بعد اغتيال وزيره إلا خمسة وثلاثين يوماً ، تُوفى بعدها ، على أثر حمى أصابت أمعاءه . ولقد انتهى بوفاة ملشكاه عصر سلاطين السلاجقة العظام، وانفرط بعده عقد السلاجقة وانقسموا على أنفسهم وانحدرت دولتهم نحو الضعف والزوال.

عصر انقسام السلاجقة :

يعتبر عصر بركياروق بن ملكشاه وسطاً بين عصرين عاشتهما دولة السلاجقة ، عقب وفاة كل سلطان من سلاطينهم ،تنافس أفراد البيت السلجوقى على الحكم عقب وفاة ملكشاه ، وواجه إبنه الأكبر بركياروق منافسة قوية من جانب كلٍ من أخيه محمود وعمه تتش وكانت تركان خاتون ، زوج ملكشاه، تقوم على رعاية إبنها الصغير محمود ، وقد حضرت وفاة زوجها فى بغداد ، فانتهزت فرصة وجودها فى حاضرة الخلافة وحملت الخليفة العباسى على الاعتراف بابنها محمود سلطاناً على دولة السلاجقة ، فاعترف به، وخُطب له فى شوال سنة ٤٨٥ هـ من فوق منابر البلاد . وأمرت تركان خاتون أعوانها فى أصفهان بالقبض على بركيا روق وسجنه ، وبالفعل قُبض عليه وسُجن . إلا أن أتباع نظام الملك وبركيا روق ثاروا لذلك ، وقاموا باخراج بركيا روق من سجنه ونادوا به سلطاناً فى بلاد فارس . فأصبح بذلك للسلاجقة ، ولأول مرة، سلطانان

فى وقت واحد : محمود فى بغداد وبركيا روق فى أصفهان . وكان على أحدهما أن يزيح الآخر من طريقه فتقابلا فى معركة كان النصر فيها حليفاً لبركيا روق . وقبل أن يلتقط بركيا روق أنفاسه من حربه مع أخيه وتصفو له الأمور ، كان عليه أن يواجه عمه تتش ، صاحب دمشق ، الذى رأى فى تنازع إبنى أخيه على السلطنة فرصةً لأنتزاعها لنفسه . لكن بركيا روق استطاع بقواته أن يهزم عمه سنة ٤٨٨ هـ، قرب مدينة الرى وأن يقتله فى المعركة . ولم يهنأ بركيا روق بالحكم بعد تخلصه من أخيه وعمه ، فقد ثار عليه أخواه الآخران محمد وسنجر ، واستمرت الحروب طويلاً بينهم . ولما سئم بركيا روق قتال إخوته إتفق معهما على الصلح على أن تقسم الدولة السلجوقية بينهم ويستولى كل منهم على ماتحت يده ويعترف له الآخرون بذلك ، وقد تم هذا الاتفاق بين الاخوة السلاجقة سنة ٤٩٧ هـ/ ١١٠٣ م.

ومالبث بركيا روق أن توفى فى العام التالى ٤٩٨هـ/١١٠٤ م ، تاركاً الدولة السلجوقية أشلاء ممزقة على ناحية كل منها أمير منهم مستقل بها . فالأجزاء الشرقية فى يد سنجر بن ملكشاه ، وبلاد الشام فى يد أبناء عمهم تتش ، وآسيا الصغرى بأيدى أبناء سليمان بن قتلمش . وبذلك تمزقت الدولة السلجوقية القوية التى سهر على توحيدها وقوتها سلاطين السلاجقة العظام : طغرلبك وألب ارسلان وملكشاه ، ويمكن القول بأن الدولة السلجوقية ، بعد بركيا روق ، دخلت فى دور النهاية ، مع أنها استمرت بعد ذلك نحو قرن من الزمان (٤٩٨ -٥٩٠ هـ) ، إلا أن نهايتها باتت مؤكدة منذ نهاية القرن الخامس

الهجرى.

ولقد حاول السلطان محمد بن ملكشاه ، الذى انفرد بالسلطة بعد وفاة أخيه بركيا روق ، أن يعيد وحدة الدولة السلجوقية وأن يتصدى للأخطار الخارجية التى أحاطت بها من كل ناحية دون جدوى.

وبعد وفاة السلطان محمد انقسم البيت السلجوقى ثانيةً على نفسه ، وتعرضت الدولة السلجوقية لأكبر خطرين خارجين وهما : خطر القرخطائيين ، وخطر الخوارزميين.

وينتسب القرخطائيون إلى قبائل الخطا التركية ، التى نزلت شمال شرق فارس فى عهد السلاجقة واستطاعت أن تكون لها دولة هناك سنة ٥١٨ هـ ، وأن تتخذ مدينة بلاساغون ، على نهر سيحون ، حاضرة لهم يهاجموا منها أملاك السلاجقة فى بلاد ما وراء النهر. ولقد استطاع هؤلاء القرخطائيون أن يوقعوا بالسلطان سنجر السلجوقى هزيمة ساحقة عند قطوان ، قرب سمرقند سنة ٥٣٦هـ. وقد فر السلطان السلجوقى هارباً من المعركة وترك زوجته فى يد أعدائه ، فقضى بذلك القرخطائيون على دولته ، واستولوا ، بعد ذلك ، على بخارى وسمرقند ، واستمرت دولتهم هناك حتى قضى عليها الخوارزميون سنة ٦٠٩ هـ.

أما الخوارزميون ، فقد أسسوا الدولة الخوارزمية فى منطقة مدينة خوارزم ونسبوا اليها ، ولقد أسس دولتهم أنو شتكين ، وكان من رقيق الأتراك كان

والياً على خوارزم ، واستقل بها وظل يحكمها حتى وفاته سنة ٤٩٠ هـ . وقد ورث دولتـه من بعـده إبنه قطب الدين محـمـد ، الذى أطلق على نفسـه لقب خوارزمشاه ، أى ملك خوارزم ، ويُعد المؤسس الحقيقى للدولة الخوارزمية ، وقد قام الخوارزميون بتوسيع دولتهم على حساب السلاجقة بعد احراز النصر عليهم فى الحروب التى وقعت بينهما . ولقد ازدادت الدولة الخوارزمية فى قوتها واتساعها فى الوقت الذى كانت فيه دولة السلاجقة تعانى من الضعف والانهيار عقب وفاة السلطان سنجر السلجوقى .

ولقد عاشت الخلافة العباسية صحوة جديدة فى ذلك الوقت ، وحاول خلفاؤها استرداد نفوذهم ، منتهزين فى ذلك فرصة ضعف الحكام السلاجقة . وقد بدأت هذه الصحوة فى عهد الخليفة المسترشد بالله ، الذى بويع بالخلافة سنة ٥١٢ هـ . وقد تجرأ هذا الخليفة بمحاربة السلطان السلجوقى مسعود بن سنجر سنة ٥٢٠ هـ ، وأجبره على عقد صلح معه يستعيد على أساسه الخليفة بعضاً من نفوذه داخل الدولة . وقد خلف الخليفة الراشد أباه المسترشد ، وواصل صحوة واضعاف نفوذ السلاجقة فى دولته. ولماعُين المتقى خليفة تحين الفرصة لضرب قوة السلاجقة واستعادة هيبة الخلافة ومكانتها وتقليص مكانة السلاجقة ، لما ولى الخلافة الخليفة الناصر لدين الله كتب للخوارزميين يستعين بهم لانهاء الوجود السلجوقى فى دولة الخلافة ، فكتبت الخليفة الناصر لعلاء الدين تكش خوارزمشاه يحرضه على محاربة طغرل الثالث ، آخر سلاطين السلاجقة ، فالتقى خوارزمشاه بطغرل ، على مقربة من الرى ، وانهزم السلطان السلجوقى وقُتل فى

المعركة ، وحُملت رأسه إلى الخليفة العباسى ، واستولى تكش على أصفهان والرى ، وبمقتل السلطان طغرل الثالث ، سقطت دولة السلاجقة فى فارس والعراق ، بعد أن سيطر سلاطينها قرابة قرنين من الزمان على دولة الخلافة والخلفاء وحل النفوذ فى بغداد من بعدهم للخوارزميين ، لكن الخوارزميين لم يسيطروا على خلفاء العباسيين ، تلك السيطرة الكاملة التى سبق أن فرضها عليهم كل من البويهيين والسلاجقة .

تطور الأحداث فى العالم الاسلامى مع نهاية الدولة السلجوقية

(المغول وسقوط الخلافة العباسية)

فى الوقت الذى كانت فيه الدولة السلجوقية تسير نحو نهايتها ، كانت الأحداث فى بلاد العالم الاسلامى تتطور تطوراً فى صالح المسلمين عامةً وصالح أهل السنة خاصة.

فلقد قام الأتابك عماد الدين زنكى ، الذى حكم الموصل ، وخلفه فى حكمها إبنه نور الدين محمود ، قد قاموا بمجاهدة الصليبيين ، الذين كانت أقدامهم قد رسخت آنذاك فى بلاد الشام منتهزين فرصة ضعف كل من الخلافتين العباسية والفاطمية . ثم استطاع ، بعد ذلك ، صلاح الدين الأيوبى ، قائد نور الدين محمود ، أن ينهى الخلافة الفاطمية من مصر سنة ٥٦٧ هـ، ويعيد بذلك الوحدة المذهبية السنية للعالم الاسلامى . ثم تولى صلاح الدين مهمة التجميع الاسلامى بعد وفاة نور الدين ، واستطاع أن يوحد مصر والشام فى مواجهة الصليبيين ، ولم يلبث الخليفة العباسى المستضئ بالله ، أن أقره سنة ٥٧١ هـ على حكم مصر والشام وغربى الجزيرة العربية . وبهذه القوة الاسلامية واجه صلاح الدين الصليبيين وانتصر عليهم فى موقعة حطين واسترد بيت المقدس من أيديهم وكثيراً من بلاد سوريا الساحلية .

هذا فى المغرب الاسلامى ، أما فى المشرق الاسلامى ، فإن الخلافة العباسية قد استعادت قوتها بظهور خلفاء أقوياء تطلعوا إلى استعادة قوة الخلافة القديمة وتحريرها من سيطرة قواد الترك والفرس. كذلك ورثت الدولة الخوارزمية مُلك السلاجقة ، وبلغت هذه الدولة أقصى اتساعها فى عهد السلطان علاء الدين خوارزمشاه ، إذ امتدت من حدود العراق غرباً إلى حدود الهند شرقاً ، ومن بحر قزوين شمالاً إلى الخليج العربى والمحيط الهندى جنوباً .

وبينما كانت الدولة الخوارزمية تسير فى سياستها قُدماً فى عهد السلطان تكش خوارزمشاه وابنه علاء الدين محمد خوارزمشاه ، كانت المنطقة المعروفة الآن باسم هضبة منغوليا ، الواقعة شمال صحراء جوبى القاحلة والممتدة فى أواسط آسيا جنوبى سيبيريا وشمال التبت وغربى منشوريا وشرقى التركستان ، تموج بتحركات قبلية وتطورات سياسية بين القبائل التى عُرفت باسم المغول أو التتار ، وهى القبائل التى سوف يكون لها أثر عميق ليس فى التاريخ الاسلامى فحسب ، بل فى التاريخ الانسانى عامةً.

ولقد عاشت هذه القبائل على الصيد والرعى فى بلادها ، فى ظروف سيئة للغاية ، وسط تزايد كبير فى الأعداد ونقص هائل فى الأقوات وضعف فى المرعى وتطاحن وشقاق وغارات مستمرة على المناطق الغنية المجاورة . ولقد تعرض المغول أول ما تعرضوا لبلاد الصين المجاورة فأغاروا على أرضها وهددوا أمن سكانها ، فما كان من الصينيين إلا أن شيدوا حول بلادهم سورهم العظيم

من ناحية منغوليا حتى يدرءوا عنهم الهجمات المغولية . وكانت القبائل المغولية تفتقر إلى الوحدة السياسية التى من الممكن أن تخلق منها مارداً عملاقاً لا يمكن التصدى له أو وقف خطره.

وقد توفرت ، فى أواخر القرن السادس الهجرى ، هذه الوحدة السياسية على يد فتى من فتيانها يُدعى تيموجين.

وكان تيموجين قد ولد فى عام ٥٤٩ هـ من أصول مغولية نبيلة ، وكان أبوه زعيماً لاحدى قبائل المغول ، وقد توفى وابنه لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره . لكن تيموجين استطاع بفضل قوة شخصيته أن يجمع قبيلته حوله ، رغم صغر سنه ، واستطاع فى غضون ثلاثين عاماً أن يقهر كل القبائل المغولية ويجعلها تحت سلطانه وأن يجعل منها شعباً موحداً فعين نفسه عليها سيداً وحاكماً مطلقاً ، وأطلق على نفسه لقب جنكيزخان أى الخان الأعظم ، أو الملك الأعظم ، واتخذ من مدينة قراقورم، حاضرةً لدولته . وقد قاد جنكيزخان شعبه فى موجة عاتية وبأعداد كبيرة كالجراد ليجتاح كل من يقابله . فبدأ اجتياحه ببلاد الصين الغنية ، ولم يقف سورها العظيم حائلاً أمام أعداده الهائلة فتسلقوها واجتاحوا امبراطورية الصين واستولوا على العاصمة بكين سنة ٦١٢ /١٢١٥ م . ثم تقدم جنكيزخان بعد ذلك ، بقواته إلى منطقة التركستان الشرقية فاستولى عليها ،ثم هاجم الدولة الخوارزمية ، التى كانت قد فرغت آنذاك من اخضاع كل بلاد فارس لها وأخذت تبسط نفوذها على اقليم العراق وتسيطر على الخلافة فى

بغداد ، إسوة بما فعله البويهي ، والسلاجقة قبلها . لكن خطر المغول أوقف المخطط الخوارزمي ولم يعط الر ، للخوارزميين كى يحققوا أحلامهم .

فتعرضت دولتهم لهجمات المغول الضارية وتخريبهم الكبير للبلاد التى يفتحونها ويستولون عليها. وقد حاول علاء الدين محمد خوارزمشاه أن يتصدى لهذه الهجمة المغولية الكبرى على بلاده بكل قواه ، لكن الكثرة غلبت الشجاعة ، واجتاحت حشود المغول بلاد ماوراء النهر فى وحشية ، ولم تبق أمامها أخضراً ولا يابساً إلا واقتلعته . وتساقطت تحت أقدامهم مدن هذه البلاد الواحدة بعد الأخرى صريعة تلقى الخراب والدمار . وقام المغول بنشر الخوف والرعب فى كل مكان وطأته أقدامهم . لما فشل السلطان الخوارزمى فى وقف هذا الطوفان البشرى المدمر اضطر إلى الالتجاء إلى إحدى الجزر المنعزلة فى بحر قزوين وعاش فيها لفترة يعانى المرض حتى أدركته الوفاة هناك . وكان علاء الدين قد أوصى بحكم بلاده من بعده لإبنه جلال الدين منكبرتى ، الذى تولى الحكم وورث عن والده ضرورة التصدى لخطر المغول الكاسح لدولته . وبالفعل تصدى جلال الدين للمغول ببسالة . لكن المغول اجتاحوا كالاعصار خراسان وخوارزم نفسها ، واضطر جلال الدين إلى الهرب ، عبر نهر السند ، ولجأ إلى مسلمى الهند ، وأخذ فى جمع جيش من مسلمى شمال الهند يعود به لمنازلة المغول . وقد نجح جلال الدين بفضل هذا الجيش ، بعد أن توفى جنكيزخان ، زعيم المغول ، فى استرداد معظم ما فقدته الدولة الخوارزمية من بلاد اجتاحها المغول .

إلا أن هذه الصحوة الخوارزمية لم تستمر طويلاً بسبب إعادة توحيد المغول لقوتهم وتجميع صفوفهم بتولى أقطاى خان المغول الأعظم ، زعامة المغول بعد جنكيزخان . وما كان من أقطاى هذا إلا أن استأنف الهجمات المغولية على الدولة الخوارزمية فاستولى على أجزاء كبيرة منها ، وطارد جيش المغول السلطان جلال الدين من بلد إلى بلد حتى الجأوه إلى جبال كردستان حيث قُتل هنالك سنة ٦٢٨ هـ/ ١٢٣١ م على يد رجال الأكراد . وبموت جلال الدين منكبرتى سقطت الدولة الخوارزمية فى يد المغول واستولوا على كل ما كان تحت يدها وخربوا مدنها وأحرقوها وفتكوا بشعبها وأذاقوهم الهوان والأهوال .

وبعد أن قضى المغول على الدولة الخوارزمية توجهوا إلى قلاع الاسماعيلية فى فارس واجتاحوها وخاصة قلعتهم الحصينة الموت ، ثم توجهوا بعد ذلك بقيادة قائدهم الكبير هولاكو لغزو بلاد العراق ، وأرسل هولاكو إلى الخليفة العباسى المستعصم بالله ، الذى تولى الخلافة سنة ٦٤٠ هـ، كتاباً يهدد فيه بتخريب بغداد إن لم يستسلم لقوة المغول التى لا تقاوم . وقد كتب له فى خطابه يقول بما نصه : «.. لابد أنه قد وصل إلى شخصك على لسان الخاص والعام ما حدث للعالم على أيدى الجيوش المغولية منذ جنكيزخان وعلمت مذلة لحقت بأمر الخوارزميين والسلاجقة وملوك الديلم والأتابكة وغيرهم ممن كانوا أرباب العظمة وأصحاب الشوكة ومع ذلك لم يُغلق بابُ بغداد قط فى وجه أى طائفة من تلك الطوائف التى تولت السيادة عليكم . وأعلم أننى إذا غضبت عليك وقدت الجيش إلى بغداد فسوف لاتنجو منى ولو صعدت إلى السماء أو

أختفيت فى باطن الأرض » .

لكن الخليفة المستعصم لم يبال بتهديدات هولاكو ، مع أنه لم تكن لديه القوات الكافية لدرء هذا الطوفان المغولى ، بل أكثر من ذلك ، قام الخليفة بتهديد هولاكو وتوعده فأرسل إليه هولاكو كتابه قائلاً : « لقد فتنك حب المال والعجب والغرور بالدولة الفانية بحيث لم يُعد يؤثر فيك نصح الناصحين فإنى متوجه إلى بغداد بجيش كالنمل والجراد » ، وصمم هولاكو على إجتياح بغداد ، بعد أن لم يتلق من الخليفة مايفيد الرضوخ والاستسلام بل رأى منه التحدى حين أمر الخليفة بقتل رسل هولاكو . وسار هولاكو فى عدد كبير من قواته واجتاحوا بغداد واسقطوها فى أيديهم وقاموا بتدميرها واحراقها ونهب مافيها وقتل من فيها بعد قتل الخليفة المستعصم بالله نفسه يوم الرابع من صفر سنة ٦٥٦ هـ. ولقد استباح هولاكو مدينة بغداد ، بعد اجتياحها ، لمدة أربعين يوماً وأباح لجنده أن يفعلوا فيها وبأهلها ماشاءوا.

وبذلك طويت فى أيدى المغول سنة ٦٥٦ هـ ، آخر صفحة من صفحات الخلافة العباسية ، وانتهت دولة العباسيين فى العراق ، تلك الدولة التى استمرت تحكم العالم الاسلامى لأكثر من خمسة قرون ، وبنهاية هذه الدولة يدخل العالم الاسلامى فى طور جديد من أطواره .

(تم بحمد الله)